بلاد السين

الأم الرؤوم

الطبعة الثالثة 2023م



سلسلة الجوائز

بلاد السين

الأم الرؤوم



محمد الطيب



بلاد السين - الأم الرؤوم

محمد الطيب



2022/002490316م

التصميم الداخلي/ أيمن بيك

تصميم الغلاف: التشكيلي بكري خضر



سلسلة الجوائز

في البلاد التي يكافح فيها الشعب للحصول على الرغيف، اتجهنا في نرتقي للأدب والسرد بشكل مكثف ولم نكتف بهما، وحمل فريقنا «ليس بالخبز وحده يحيا الإنسان» شعارا لهم، كما أن كتاب نرتقي تركوا أثر ثقافي كبير، علينا أن نفخر ونحتفى بهم على الدوام كعلامات مضيئة في سماء الأدب رغم الظلام الذي يملأ العالم.

تأتي سلسلة الجوائز بتصميم مختلف عن المعتاد، حاملة أسماء جوائز دولية ومحلية، قديمة وحديثة، أقلاما معروفة واخرى سيتعرف إليها القارئ، وذلك بفضل تنوع وزخم الاعمال الإبداعية، والتي لاقى إختيارها ترحيبا واحتراما من النقاد والمتابعين للمشهد الثقافي.

الناشر

إسراء الريس

إهداء

ثُمّ إلى فاطمة

إنَّ الطَّريقَ مُخَضَّبٌ بدَمِ الصَّبَاحَاتِ المعنة
مَا دَامَ بَيْتُكَ في لَهِيبِ النَّارِ مُشْتَعِلُ الأكنَّة

مُحيي الدين فارس

مقدمة

الإسقاط الرمزي في رواية بلاد السين (الأم الرؤوم)

بأسلوب تهكمي هجائي تحفّه الرمزية واللامعقول في معظمه، تصوّر رواية بلاد السين ((الأم الرؤوم)) مجتمعاً خانعاً، تحت نَير نظام سياسي استبدادي قهري فاسد، وواضح أنّ اطلاع محمد الطيب على ما يجري في بلاده من أحداث عظام في ظلّ هذا النظام القاهر الفاسد، المفسد لغيره، قد أوحى له ببعض الأفكار والمعالجات، في مسرحة رائعة للأحداث، استخدم الكاتب وسائلَاً وضروباً من البراعة الفنية، تعكس تمكنه من الإشارات الرمزية، والتهكم والهجاء الساخر، والسخرية الاستهزائية المضحكة، والسخرية المحضة، والوصف الحسّي والموضوعي، والأسلوب المباشر وغير المباشر.

يعكس محمد الطيب، إحساسه وتأثره البالغ بما حدث ويحدث في بلاد السين من جراء هذا النظام الاستبدادي الذي سام الناس العذاب، وسخرهم لأغراضه، بل جعلهم كالدواب، يمتطيهم بكلّ غطرسة واستكبار، جاعلاً بطل روايته (البصير) معبِّراً عن هذا الإحساس الأليم، مصوّراً حيرته مما يجري حوله من فظائع الساسة والحكام الفاسدين، التي اكتوى، وغيره من أفراد مجتمعه

المقهـور بنارهـا، ومـن انحرافـات العقائـد والمعطيـات الفكريـة والدينية وانقـلاب موازيـن القيـم والفضائـل، ممـا أدّى لانهيـار ذلـك المجتمـع بـأسره، وتخلخـل طبقاتـه.

لعـلّ أهـمّ مـا يميـز هـذه الروايـة هـو اسـتخدام الرمزيـة بطريقـة تفتـح البـاب لأكثـر مـن تفسـير، فسـباق الحمـير قـد يرمـز للانتخابـات الرئاسـية، وقـد يرمـز للملهـاة التـي تمارسـها النُّظـم الديكتاتوريـة، لإلهـاء النـاس عـن واقعهـم المريـر، وتعميـة لهـم عـن جرائـم ومظـالم النظـام.

وخـذ حبـة الـذرة التـي يكتنـف إسـقاطها الرمـزي شيء مـن الغمـوض، والتـي أرى أنّهـا ترمـز لنـير الطغـاة، والنـير حلقـة توضـع حـول عنـق العبـد الآبـق، كنـوع مـن العـذاب البـدني والنفـسي، ولذلـك سـميت بنـير العبوديـة، وهـي ترمـز أيضـاً للقمـة العيـش، وصعوبـة الحصـول عليهـا في ظـلّ الأنظمـة الاسـتبدادية، فيعيـش الفـرد ذليـلاً، يطأطـئ رأسـه (كحامـل النـير عـلى كتفـه) وعليـه أنْ يذعـن لظلـم الحاكـم الديكتاتـور وزبانيتـه لينـال هـذه اللقمـة، وفيـه إشـارة واضحـة لسـيف الصالـح العـام في ظـلّ نظـام الإنقـاذ، وهكـذا يظـلّ الفـرد في حالـة خـوف وهلـع دائـم مـن النظـام، مخافـة أنْ يفصـل مـن عملـه، فـلا يحصـل عـلى لقمـة العيـش، فحبـة الـذرة تتسـاقط مـن السـماء رزقـاً للعالمـين، ولكـن النظـام الفاسـد جعـل الحصـول عليـه مسـتحيلا.

ورمزيـة حـرب بـلاد السـين والعـين، تشـير إلى الحـرب بـين الشـمال والجنـوب في ظـلّ نظـام الإنقـاذ، فيسـخر محمـد الطيـب مـن مفهـوم

نظـام الإنقـاذ للحـرب والخدمـة العسـكرية الإلزاميـة التـي مـا قصـد بهـا إلا الإذلال والاضطهـاد للنـاس، وهـذه الحـرب القـذرة افتعلهـا النظـام بتخويـف النـاس مـن قـوى أجنبيـة تريـد ببـلاد السـين شراً ليلتفـوا حولـه، وبذلـك يضمـن اسـتمراره في السـلطة (وهـذا مـا فعلتـه الإنقـاذ تمامـاً في حـرب جنـوب السـودان).

وهكـذا تـأتي الإسـقاطات الرمزيـة مثـل خلايـا النمـل كدلالـة عـلى الطاعـة العميـاء، والانقيـاد الكامـل، ومـرض سـقوط طقـم الأسـنان في إشـارة لوبـاء الإيبـولا والكولـيرا، وحمـى الـوادي المتصـدع، وغيرهـا مـن الأوبئـة وتعامـل نظـام الإنقـاذ غـير الرشـيد معهـا.

تتمحـور فكـرة الروايـة الأساسـية حـول عـدّة أفـكار، تشـير جميعهـا وبـسرد دائـر سـاخر ومحكـم إلى قسـوة هـذا النظـام الاسـتبدادي الغاشـم، ومـا يعانيـه المحكومـون مـن شـظف العيـش، وامتهـان كرامتهـم، واسـتغفالهم وإلهائهـم بـما لا يفيـد، وأفضـل طريقـة لقـراءة هـذه الروايـة، وفهـم الأفـكار التـي تبنّاهـا محمـد الطيـب، هو دراسـتها مـن تقاليـد أدبيـة عريضـة (فلسـفية، وسـايكولوجية، طبيعيـة، وفـوق طبيعيـة، يحفّهـا المعقـول واللامعقـول) أي أنْ تقـرأ بمعـزل عـمّا عهدنـا مـن أعـمال روائيـة تقليديـة، تعتمـد عـلى الحكـي والحكايـة، محـدّدة المسـالك والبراعـة الفنيـة، فروايـة بـلاد السـين مزيـج معقّد مـن أجناس أدبيـة عـدّة، ومـع ذلـك فقـد نجـح الكاتـب في كثـير مـن المواقـف مـن جعـل قصتـه تبـدو حقيقيـة، بيّنـة، وواقعـاً معاشـاً في عصرنـا هـذا، ولا بُـد مـن توضيـح أنّ الأسـلوب التهكمـي السـاخر، ليـس

القصد من الإضحاك والتفكه فقط، لكنه يترك أثراً في نفوس القراء، لأنّه تصوير رمزي ساخر لما يحدث في هذه الدولة الظالم نظامها وحكومتها (الأم الرؤوم) في ضياع الحقوق، وأكل أموال الناس بالباطل (سوق كما هو، وبائع القهوة) وامتهان كرامتهم، واستغفالهم، وإلهائهم بتوافه الأمور أيضاً، وبرمجة المواطن وإعادة تشكيله من قبل النظام، فيصبح مطية له وداعماً له من دون أنْ ينتبه أو يرغب في ذلك.

ا .د. جبارة عبد الله محمد الحسن

أستاذ اللغويات، قسم اللغة الانجليزية

كلية الآداب جامعة الخرطوم

١٥/ ١١/ ٢٠٢٠

(١)

تتبعثر الذاكرة في الفراغ فلا تمسك أسئلته سواه، يأتيه صوت كأنه الهمس، يقوى قليلاً، يتحوّل إلى ضجيج، ينتبه وينظر نحو النافذة، تفر الذاكرة في تمردها الأبدي إلى مهرجان الشعر الرديء السنوي، في العاصمة (صاد) ببلاد السين، كان (البصير) من ضمن المئات الذين احتشدوا داخل الخيمة المنصوبة في الطريق العام، عند نهاية الحي الجديد، لجنة التحكيم التي تكوّنت من قصّاب، وسائس حمير وسبّاك، كانت تبدو في قمّة الانضباط، ومحاولة إظهار الحياد، وعدم التحيز لشاعر دون الآخر، رغم اعتراف الحضور بأن الشعر الذي قُدم في تلك الأمسية كان من أردأ أنواع الشعر على الإطلاق، كما أنّ السلال الموضوعة بجانب الكراسي، الممتلئة بالبيض الفاسد، وحبات الطماطم المتعفنة، كادت حمولتها أنْ تفرغ، وكلّت أيدي الجمهور من إلقائها على الشعراء، الذين توالوا على خشبة المسرح، في حين انهمك بائع البطيخ، ومساعدوه الاثنين،

في عـدّ حبـات الطماطـم، والبيـض الفاسـد التـي تصيـب الشـاعر أثنـاء إلقائـه لقصيدتـه، كان الأمـر يبـدو طريفـاً، والجميـع يتبـارى في إصابـة الشـعراء، خاصـة وأنّ البيضـة التـي تصيـب الشـاعر تحسـب بنقطتـين، وحبـة الطماطـم المتعفنـة تحسـب بنقطـة واحـدة، في حـين لا تحتسـب الحبـات التـي لا تصيـب هدفهـا، وكان عـدد النقـاط المحتسـبة يشـكّل دوراً كبـيراً رفقـة رأي لجنـة التحكيـم الموقـرة، في تحديـد الفائـز بجائـزة العـام، كـما أنّ الأمـر لم يكـن يخلـو مـن مراهنـات تقـام داخـل الخيمـة عـلى الشـاعر الفائـز، مما زاد مـن حمـاس الحضـور وأشـعل المنافسـة إلى درجـة الجنـون.

صعـد إلى خشـبة المـسرح رجـل قصـير القامـة، يرتـدي قبعـة بذيـل مضحـك، كان الرجـل يملـك موهبـة كبـيرة في قـرض الشـعر الـرديء، كـما كان بارعـاً في التصـدي لقذائـف البيـض الفاسـد، والطماطـم المتعفنـة، التـي كانـت تلقـى عليـه بغـزارة، فـلا يـكاد يفلـت منهـا واحـدة، وكان مـن الواضـح أنّـه في طريقـه للفـوز بفـارق كبـير عـن أقـرب منافسـيه، فالتهبـت الأكـف بالتصفيـق، وتكاثـرت القذائـف ناحيتـه، حتـى تغطّـت ملابسـه بعصـير الطماطـم والبيـض الفاسـد، وعندمـا أوشـك عـلى الانتهـاء مـن قصيدتـه، تهـادت بيضـة فاسـدة في سـماء الخيمـة، وبـدا أنهـا ستسـقط بعيـداً عنـه، ولكنهـا فجـأة انحرفـت عـن مسـارها، وكأن يـداً قـد وجهتهـا في الخفـاء إلى وجـه الشـاعر الموهـوب مباشـرة، فتراجـع للخلـف مـن قـوّة الضربـة، في حـين حلّـق طقـم أسـنانه كحمامـة بيضـاء، ثـم ارتطـم بالمـسرح، وقفـز مثـل كُـرة

مطاطيـة صغـيرة قبـل أن تهمـد حركتـه تمامـاً.

يظـلّ مشـهد الرجـل بقبعتـه ذات الذيـل، ورشـاقته في القفـز عـلى المسرح، مـن أجـل التقـاط حبـات البيـض الفاسـد والطماطـم المتعفنـة، دون أنْ يفقـد براعتـه في إلقـاء أبيـات الشـعر الرديئـة، التـي تدفـع الحضـور لقـذف المزيـد مـن البيـض والطماطـم نحـوه، أو للاندفـاع في مراهنـات مجنونـة، نتائجهـا شـبه محسـومة للموهبـة المتألقـة في صـدر المـكان، أو ربّـما الاكتفـاء بالضحـك، وفرقعـة اللـب مـن دون زيـادة أو نقصـان، يظـلّ هـذا المشـهد عالقـاً بذاكرتـه كذكـرى نـادرة، وسـعيدة وجميلـة، رغـم قلّـة أهمّيتـه في حياتـه، التـي احتشـدت بأحـداث جسـام تبعـت هـذه الحادثـة، بـل وسـبقتها أيضـاً، وإنْ كانـت الذاكـرة لم تعهـا إلا لاحقـاً، كلّ هـذا لم يكـن كافيـاً لتتـوارى هـذه الذكـرى في ركـن منـسي، ولكنهـا لا زالـت تتمـرّد وتقفـز في فضـاء ذاكرتـه المتمـرّدة التـي تنقـل لـه أحـداث المـاضي بومضـات متقطعـة سريعـة غـير مترابطـة، وعندمـا يطـلّ الرجـل بقبعتـه المضحكـة مـن نافـذة الذاكـرة، يبتسـم لوهلـة قصـيرة ثـم يغـرق في فيضـان اللّقطـات المتتابعـة، متنقـلاً عـبر الذاكـرة لأزمـان طويلـة تتشـابك الأحـداث فيهـا، مثـل غـزل محكـم لعنكبـوت عمـلاق، ماهـر حـاذق في صنـع الـشراك المهلكـة والقاتلـة، حتـى وهـو جالـس الآن مواجهـاً للنافـذة العاريـة مـن الخشـب والزجـاج والألمونيـوم والحديـد، النافـذة العاريـة مـن كلّ شيء، مشرعـة فاهـاً كأنهـا في عيـادة طبيـب الأسـنان، النافـذة المطلّـة عـلى الفـراغ الشاسـع مـن زاويـة رؤيتـه الحـادة، كانـت تريـه الجانـب الفـارغ منهـا،

الجانب الخاوي من محفّزات الرؤية في دكتاتورية مطلقة، ذات الجانب الذي يدفعه لإغماض عينيه دون تردّد، بحثاً عن مشهد من ذاكرته المتعبة، يزيح الملل القاتل الذي يجتاحه، أي مشهد قد يخطر في مخيلته سيكون أفضل من نافذة تطلّ من زاوية رؤيته على اللاشيء، ابتسم في داخله والشاعر ذو القبعة المضحكة يتقافز في فضاء ذاكرته، وابتسامته تتسع مفسحة عن أسنان بيضاء جميلة قبل لحظة من سقوط طقم أسنانه كشمس صغيرة تهوي بسرعة في بحر الظلمات.

في ذات الليلة، طرقوا باب البيت بعد منتصف الليل، كان نائماً، نهض في تثاقل وفتح الباب، ولا زال النوم يداعب عينيه، انتصب رجلان في مواجهته والظلام يبتلع ملامح وجهيهما، فشعر بالقلق، وعندما انتبه إلى ملابسهما العسكرية المموهة، طار النوم من عينيه، وخفق قلبه في عنف، وهو يرد تحية لم يلقياها عليه.

لم يمهلاه كي يرتدي ملابسه، جرّه أحدهما من داخل البيت في عنف، في حين كان الآخر مستعداً وهو يدخل رأسه في كيس أسود.

خرج صوته ضعيفاً ومرتبكاً:

- لا أريد أن أموت!

صفعه أحدهما، ثم تلقى لكمة في صدره قطعت أنفاسه وقال أحدهما بصوت صارم:

- اصمت.

أذعن مكرهاً وهو يجاهد لالتقاط أنفاسه، ألقيا به في المقعد الخلفي من السيارة، التي تنهب الطريق نحو أحد مراكز الأمن الشعبي، كانت تعبر في رأسه قصص يشيب لها الولدان، يتداولها الناس عمَّا يدور هناك، لا زال يذكر قصة شهيد الدغدغة جيداً، وهذا محظوظ على الأقل، مات وهو يضحك، أوثقوا قدميه ثم شرعوا في دغدغته دون توقف، ظلّ الرجل يضحك لما يزيد عن نصف ساعة، وهو يرفس بقدميه محاولاً التخلص من وثاقه، ودموعه تنسال من عينيه، وهو يضحك ثم تبول على ثيابه، ولا زال يضحك ثم همدت حركته ومات.

لم يستطع تحمل الضوء بعد نزع الكيس الأسود عن رأسه، كان يرتجف وهما يدفعانه في الممر الضيق، اشتم رائحة الموت، وصكّ أذنيه صوت الصراخ، والآهات المكتومة، خلف الأبواب المغلقة، شعر أنّ أحد الأبواب سيفتح على حين غرة، وسيخرج من خلفه وحش أسطوري يلتهمه دون أنْ يمنحه فرصة للصراخ، وصل إلى آخر الممر، أمسك أحدهما بساعده في حين دفع الآخر الباب، وأشار لزميله بالدخول.

المكتب الواسع من الداخل، بإضاءته الموزعة في عناية كان على خلاف ما توقع، لم يجد السكاكين والفؤوس معلقة على الجدران، أو الحبال تتدلى من السقف مثل الثعابين، الرجل الجالس خلف المكتب الدائري، بشعره الرمادي، وملامحه الطيبة، يصلح كمدير لمدرسة ابتدائية، نهض عند دخوله إلى المكتب، وصافحه في ود

واحترام، أزال الكثير من التوجس الذي كان يعتمل في نفسه، سأله عن أحواله، وثرثر معه عن بلاد السين، وتقلّب الجو، ومهرجان سباق الحمير، وسوق (كما هو) وبضائعه الزهيدة، ومهرجانات الشعر الرديء، تحدثا كرفيقين في حافلة سفرية، أو يمكنك القول كصديقين التقيا بعد فرقة طويلة، كان البصير حذراً فلم يتفوّه بشيء يمكن استخدامه ضدّه، يعلم جيداً قصة الضابط الطيب والضابط الشرير، ولن ينطلي عليه لطفه الزائد، دعاه لتناول وجبة الغداء، وعندما فتح الباب الجانبي، الذي يفضي إلى غرفة الاجتماعات الملحقة بالمكتب، اكتمل ذهوله أمام أصناف الطعام الموزّعة بطول طاولة الاجتماعات، السفرة المبسوطة، كانت تكفي لإشباع عشرة رجال آخرين على الأقلّ، ما يحدث كان غير مفهومٍ بالنسبة إليه، في مراكز الأمن الشعبي يهان الناس ويضربون، لكن لا يدعون لتناول غداء فخم، كان يأكل في توجس، والرجل يقرب إليه أصناف الطعام في كرم وأريحية كبيرين، وبعد الانتهاء من تناول وجبة الغداء الشهية، رجعا إلى المكتب مرّة أخرى، دخل أحد أفراد الأمن الشعبي يحمل بطيخاً، ووضعه أمامهما ثم تراجع واقفاً عند الركن، استأذن الرجل لقضاء أمر صغير، ثم خرج وأغلق المكتب خلفه.

جلس البصير ساكناً منتظراً أوبته، ولكن فرد الأمن اقترب منه، وأشار إليه بالبدء في تناول البطيخ، قال البصير بابتسامة مهذبة، مشيراً إلى المكتب:

-سأنتظر عودته لنتناوله معاً.
هزّ فرد الأمن رأسه نافياً بابتسامة حاسمة.
- هذا البطيخ ستأكله وحدك يا سيدي.
قرأ ملامح التردّد والخوف في وجه البصير، فضحك بصوت عال، ثم عادت ملامحه لتحمل تعبيراً كريهاً قائلاً:
-هل تظن أننا بحاجة إلى وضع السم في البطيخ كي نقتلك؟ سأتناول قطعة أمامك ليطمئن قلبك.
أخذ قطعة من البطيخة وبدأ في التهامها باستمتاع ظاهر، تناول البصير قطعة أيضاً، كانت شهية، فتناول قطعة أخرى، ثم ثالثة وتوقف، أشار إليه فرد الأمن بالاستمرار وابتسامة لزجة ترتسم على وجهه
- شكراً لك لقد اكتفيت.
هزّ فرد الأمن رأسه في أسف قائلاً:
-هل ستهدر موارد الدولة القليلة التي تدعون أننا نقوم بإهدارها بهذه الأعذار الواهية؟ هذه البطيخة تمّ شراؤها من أموال بلاد السين لتؤكل، لا لترمى في القمامة، هيا كُل يا سيدي.
صوته كان يبدو ميتاً، كنصل سكين بارد، تناول البصير قطعة أخرى، ثم قطعة ثانية، فثالثة ثم توقف.
- أنت لا تريد أنْ ترى وجهنا الآخر ولا نرغب نحن في إظهاره، لم لا تأكل بقية البطيخ دون أن تتعب وتتعبنا معك؟
تناول قطعة أخرى فشعر بالرغبة في التقيؤ، قال في رجاء:

- لن أستطيع أكل المزيد.
نهض وتناول بقية البطيخ من أمامه وابتسم قائلاً:
- أظن هذا كافياً يا سيدي شكراً لتعاونك.
خرج فرد الأمن ثم دخل أربعة آخرون، أحدهم يحمل حقيبة، وضعها على ظهر المكتب ثم ألقوا بالبصير على الأرض، حاول أنْ يقاوم ولكن بدلاً عن ذلك صرخ مذعورا وهم يثبتونه على الأرض، ويشرع أحدهم في نزع ملابسه بسرعة
- لن تغتصبوني يا كلاب، لن يستطيع أحد الاقتراب مني، ابتعدوا.
لم يعبأوا به حتى انتهوا من نزع ملابسه تماماً، ثم تناول أحدهم الحقيبة، وأخرج منها حبلاً شفافاً رفيعاً، وأشار إليهم فعادوا لتثبيته بقوّة أكبر، ثم أمسك بقضيبه، وتحسسه في خبرة، وقام بربطه من نقطة معينة، مغلقاً مجرى البول في إحكام، نهض الأربعة بسرعة وغادروا، ثم دخل فرد الأمن وأغلق الباب خلفه، كان صوته منشرحاً وهو يقول:
-أعطيت بقية البطيخ إلى فرد الحراسة عند مدخل المركز، ينبغي ألا نهدر موارد البلد، أليس كذلك؟
كان يشعر بالعار والخجل، ما الذي يحدث؟ ولماذا؟ لقد كان دائماً يسير بجوار الحائط، لا يتحدث في السياسة ولا تشغل باله، يمارس عمله بإخلاص، ويطيع وصية عمه، يتابع مهرجانات الحمير والشعر الرديء، كان يظنّ نفسه مواطناً مثالياً، تنكّر لأبيه وسيرته من أجل تجنب مراكز الأمن الشعبي، ولكن ها هو الآن

يقـف عاريـاً في إحداهـا، دون أن يعـرف مـا هـي تهمتـه، ومـا الـذي فعلـه، لقـد ألقـى أكثـر مـن عـشر بيضـات فاسـدة في مهرجـان الشـعر الـرديء، للأسـف كان حظّـه مـن الطماطـم الفاسـدة أكثـر، ولكـن هـل هـذه تهمـة تكفـي لجـرّه إلى هنـا؟ حتـى مسـيرة النـدم والتوبـة اكتفـى بمتابعتهـا مـن النافـذة، ولم ينـزل إلى سـاحة الحـي كـما فعـل الجميـع.

قطع عليه فرد الأمن تساؤلاته قائلاً:

-لا تحـاول انتزاعـه، فهـو مربـوط بإحـكام وأي محاولـة لانتزاعـه بالقوّة سـتزيد الأمر سـوءاً.

أشـار إليـه بالجلـوس، كان يرتجـف وكأنـه مصـاب بالـبرد، فتـح الـدرج وأخـرج ملفـاً ووضعـه أمامـه قائـلاً:

- ما علاقتك بالشاعر ذو القبعة؟

ارتفـع حاجبـا البصـير في دهشـة، طـرق الضابـط عـلى المكتـب الخشـبي بأصابعـه كأنـه يعـزف لحنـاً لأغنيـة مـا

- هـل تظـن أننـا مـن الغبـاء بحيـث نفـترض أنّ حادثـة الشـاعر ذو القبعـة مجـرد مصادفـة؟ ثبـت لدينـا بـما لا يـدع مجـالاً للشـك أنـك مـن ألقيـت بالبيضـة عـلى الشـاعر، ولم يكـن توقيـت إلقائهـا عبثيـاً، بـل جاء موافقـاً لـذروة الازدحـام داخـل الخيمـة، وقـد يبـدو تدبـير كلّ هـذا فعـل ذكـي للمعارضـة الهدامـة، ولكـن نحـن لكـم بالمرصـاد.

قاطعه البصير والكلمات تتناثر غير مرتّبة من بين شفتيه:

- الشـاعر ذو القبعـة؟ أقسـم أننـي لم أره قبـل اليـوم، أقصـد الأمـس حـين صعـد المنصـة، ثـم أنّ سـلتي كانـت تحتـوي عـلى حبـات الطماطم

الفاسدة، وعدّة بيضات ألقيتها مبكراً !
الضحكة القصيرة الساخرة اخترقت قلبه كنصل سكين بارد
- هل تظن أننا أغبياء؟ لو لم نتيقن بأنك من ألقيت بالبيضة، فلن نأتي بك إلى هنا؟
اعتدل في جلسته وقرّب وجهه من البصير قبل أنْ يكمل:
- بم تبرّر ركضك خلف الشاعر بعد الحادثة حتى اختفيتما في أزقة الحي التاسع معاً؟ هل تظن أن الأمر مجرد مصادفة ليس إلا؟
أسقط في يد البصير، حاول الرّد متلعثماً، ولكن كلماته المضطربة لم تكن دفاعاً جيداً في أي حال:
- كنت أرغب في الاطمئنان عليه ليس إلا، فأنت تعلم أنّ سقوط طقم الأسنان يعتبر أول الخطوات نحو الموت هذه الأيام
تنهّد الضابط تنهيدة عالية، تدلّ على نفاذ صبره:
- يفر الناس من شائعة سقوط طقم الأسنان كالمجانين، وأنت تركض خلف الشاعر ذي القبعة من أجل الاطمئنان عليه، يا لرقة قلبك يا رجل!
أشار الضابط إلى الملف بملل، تناوله البصير وفتحه، وجد في داخله ورقة واحدة
(أقر بكامل قواي العقلية، ودون ممارسة أي ضغوط خارجية مورست علي، بأني كنت مشاركاً في خلية تعمل على إثارة الشغب، وتقويض الثورة المبجلة، عبر استغلال ظهور مرض سقوط طقم الأسنان، بقصد إثارة القلاقل من أجل تقويض الثورة وأهدافها

الجليلـة، وكان هـذا بإيعـاز مـن بـلاد العـين، التـي قامـت بإنشـاء الخلية ورعايتهـا منـذ البدايـة)

نظر إليه برعب ثم قال بصوت مرتجف:

- ولكنـي لم أقـم بـأي مـن هـذه الأفعـال يـا سـيدي، لا بُـدّ أنّ هنـاك خطـأ مـا !

ابتسم قائلاً:

- جميعهـم يقولـون مثلـك، ثـم مـا يلبثـوا أنْ يقـروا بتأريخهـم كامـلاً، هـل تظـن أننـا أتينـا بـك إلى هنـا بشـكل خاطـئ، نحـن نفهـم عملنـا جيـداً

نظر إليه بإمعان ثم أشار إلى الملف مكملاً:

- هـذا الإقـرار توجـد منـه نسـخة واحـدة، حافـظ عليهـا ولا تتلفهـا في نوبـات الغضـب التـي سـتنتابك في السـاعات القادمـة، صدقنـي إنْ إعـداد نسـخة أخـرى يسـتغرق وقتـاً، لـن يفتـح بـاب المكتـب إلا بعـد أنْ يـرى فـرد الأمـن الـذي ينتظـر خارجـاً الملـف يعـبر مـن تحـت البـاب، ويتأكـد مـن توقيعـك عليـه. الـصراخ وطـرق الباب وغـيره من الأفعـال لـن يطلـق سراح مثانتـك.

وضع القلم في وسط الملف المفتوح ثم خرج وأغلق الباب خلفه.

هتـف راجيـاً إيـاه أنْ يتريـث، لكـن جاوبـه البـاب المغلـق، شـعر برغبـة عارمـة في البـكاء، لـو وقّـع عـلى هـذا الإقـرار سـيكون قـد حكـم عـلى نفسـه بالمـوت، خيانـة الثـورة والعبـث معهـا جريمـة ولا تغتفـر، ولكنه بـريء، مراكـز الأمـن الشـعبي قويـة، وسـيدركون أنّهـم عـلى خطـأ، هم

يعلمـون بـكلّ شي في بـلاد السـين، لا يفـوت عليهـم حتـى عـدد حبات الليمـون في الأشـجار المثمـرة، عليـه أنْ يهـدأ فقـط وسـينتهي الأمـر على مـا يتمنـى، حـاول الاسـترخاء، ولكـن رغبـة بعيـدة في التبـول جعلتـه يعتـدل في جلسـته، لـن تتحمـل مثانته وقتـاً طويـلاً، تمنـى ألا يتأخروا في اكتشـاف براءتـه، مكيـف الهـواء البـارد يجعلـه يرتجف،كـما أنّـه سـيعجل بامتـلاء مثانتـه، بحـث عـن زر تشـغيل المكيـف كـي يغلقـه، الجـدران ملسـاء وناعمـة، ومغطـاة بسـتائر مخمليـة بـاردة، صـورة الرئيـس الضخمـة بزيّـه العسـكري خلـف المكتـب مباشرة، وعينـاه الصارمتـان تتبعانـه وهـو يتجـول في الغرفـة، شـعر أنّهـا تسـخر منـه بطريقـة مـا، دفـع بـاب غرفـة الاجتماعـات، لا زالـت بقايـا الطعـام عـلى الطاولـة، المـكان مظلـم، كأن عيونـاً ترصـده يشـعر بهـا ولا يراهـا، تراجـع سريعـاً وأغلـق البـاب، تـرى كـم مـرّ مـن الزمـن؟ بـدأ يشـعر بامتـلاء مثانتـه، وخـزاً خفيفـاً عنـد مثلـث المثانـة، ينبئـه بوجـوب الذهـاب إلى دورة الميـاه، تلفـت بقلـق، لـو أنّـه يتعـرّق قليـلاً لأجـل هـذا رغبتـه في التبـول، عـاد للبحـث عـن زر تشـغيل مكيـف الهـواء مـرّة أخـرى، لـو أنّهـم يراقبونـه الآن لبـدا مثـل حيـوان حبيـس في قفـص، يتجـول عاريـاً مـن جـدار لجـدار كقـرد مذعـور، لمـح جهـاز التحكـم عـن بعـد بجوار الملـف، تناولـه بلهفـة، أغلـق المكيـف فتوقـف صـوت الأزيـز وحـلّ عـلى المـكان صمـت القبـور، ارتـدى ملابسـه الملقـاة عـلى الأرض في إهمـال، يجـب أنْ يسـترخي، سـترتفع الآن درجـة الحـرارة، وينهمـر العـرق مـن جسـده، ويهـدأ نبـض مثانتـه قليـلاً، وضـع رأسـه بـين كفيه

وهـو يفكـر، مـاذا يفعـل كـي يعيـش آمنـاً في بـلاد السـين؟ تنـازل عـن صديقتـه لضابـط الشرطـة مـن أجـل هـذا، قدّمهـا لـه كطبـق شـهي مصحـوب بابتسـامة بريئـة، يعيـش في الظـلّ، يمـشي بجـوار الحائـط، يكـره السياسـة ودروبهـا، لكنـه وبرغـم كلّ هـذا هـا هـو ذا يقبـع الآن، متمنيـاً أنْ تتوقـف كليتـه عـن أداء عملهـما المعتـاد، أو تبطئانـه حتـى حـين، بحثـاً عـن النجـاة مـن سـاحة الأحـكام!

هاهـي قطـرات العـرق تنعقـد أسـفل ظهـره ولكنهـا تـأتي مصحوبـة بوخـزات خفيفـة فـوق المثانـة تمامـاً، يـكاد أشـعر بقطـرات البـول تتجمـع مـن كليتيـه، منحـدرة نحـو الحالبـين، ثـم تنسـاب نحـو المثانـة المغلقـة، يـزداد الوخـز قليـلاً، نـداء الطبيعـة يبـدأ في العمـل، أيـن المفـر؟ قلـب الملف▯كنـت مشـاركاً في خليـة تعمـل عـلى إثـارة الشـغب وتقويـض الثـورة المبجلة▯هـذه العبـارة وحدهـا تكفـي لتعليقـه مشـنوقاً في سـاحة الأحـكام، خيـاران لا حلـو بينهـما ولكنهـما يقطـران مـرارة الحنظـل، هـا هـو الوخـز يبـدأ في الازديـاد، يتحـوّل لألم ملمـوس مثـل طعنـات سريعـة، يبـدأ مـن الجانـب الأيمـن وصـولا لمثانتـه، ومنهـا ليصـل إلى حـدّ الوثـاق اللعـين، ينهـض، يـذرع المـكان مثـل حيـوان حبيـس، يـدور حـول الغرفـة، يزيـد مـن سرعتـه قليـلاً، فينسـاب العـرق غزيـراً مـن جسـده، يركـض كالمجنـون، فينهمـر العـرق نحـو عنقـه ويداعـب حبـة الـذرة خاصتـه فتبـدأ في الاهتـزاز.

(تباً هذا ليس وقتك!)

تمتـم وهـو يبطـئ سرعتـه، ويفـرد ذراعيـه عـلى اتسـاعهما، ثـم شرع

في الرقص، أمام، خلف، يمين، يسار، يفرقع بأصابعه، يضرب الأرض بقدميه، تنهمر دموعه في صمت، انتصب واقفاً ووجهه إلى الأرض، تهدأ حركتها ولكنها في منتصف المنحدر، ستنزلق في أي وقت، يحبس أنفاسه، ويتحوّل إلى جامد تنهمر من عينيه الدموع، لا يدري كم مرّ من الزمن وهو يقف منتصباً هكذا، ربّما منذ بدء الخليقة وسيقف حتى فناء الكون، تمثال لرجل باكٍ، يحمل حبة ذرة خضراء مجعدة عابثة على عنقه، يبللها العرق ويقتله الخوف.
رفع رأسه في حذر، تبدو أكثر ثقلاً وثباتاً، جلس على المقعد منهكاً، اختفى الوخز كأن لم يكن، لم يعد يشعر برغبة في التبول، ستطول الآن لعبة الانتظار، يأمل فقط أن يشرع هذا الباب قبل أنْ يوقِّع على هذه الورقة اللعينة، يا للسخرية! إنه الآن ينتظر ممن ألقوا به إلى هنا أنْ يخرجوه، لا يملك إلا الثقة في قدرتهم على إنقاذه من بطشهم، الآن هي لعبة بين دقّات الساعة، وقطرات البول المنسابة إلى مثانته المغلقة، كم سيحتمل أكثر، ساعة، اثنين، ثلاثة، بعدها سينهار ويوقِّع مرغماً، أغمض عينيه، رأى نفسه هناك محاطاً بالعساكر، بوجوههم العابسة، ونظراتهم الجامدة، يصطفون بطول الساحة، ووجوههم نحو مدرجات الساحة التي تحتشد بالناس، تصله أصوات صراخهم، يبصر الرذاذ المتطاير من أفواههم، أعينهم الغاضبة، نظراتهم المتوعدة، يطالبون بشنقه، يصفقون في جزل من أجل الإثارة، كأنه مهرجان لسباق الحمير، ربّما يتراهنون على الوقت الذي سيصمد فيه معلقاً على حبل المشنقة

قبـل أنْ يلفـظ آخـر أنفاسـه، سـيأتون بسـاعة مؤقـت، ويتراهنـون عـلى عـداد الثـواني، وسيسـعد أحدهـم لتخمينـه العـدد الصحيـح في العـداد، وعندهـا سـيكون مغمـض العينـين، ولسـانه يتـدلى إلى الخـارج في بشـاعة، شـعر بالاختنـاق، نهـض مـن مكانـه، وهـرول نحـو البـاب مكـوِّراً قبضتـه في غضـب، توقّـف قبـل أنْ يصـل، لـن يفـرغ غضبـه هكـذا، فربّـما أغضبهـم، كان هـذا هـو آخـر مـا يبحـث عنـه، عـاد يجـرّ خطواتـه نحـو المقعـد، وعـاد الوخـز عنـد المثانـة ضعيفـاً، خفـق قلبـه في قـوّة، الوخـز يتمـدّد في بـطء نحـو الأعـلى ونحـو الأسـفل، لا زال الأمـر محتمـلاً، سيتشـبث بقشـة، مهـما كان احتـمال اكتشـافهم لبراءتـه ضعيفـاً فلـن يقصيـه، سـيقاتل حتـى الرمـق الأخـير، لـن يفكـر في التبـول فهـذا سـيزيد مـن الألم، حسـناً سـيحاول التفكـير في شيء آخـر، سـباق الحمـير، يقـال إن المـكادي لـن يعـود للمهرجـان مـرّة أخـرى، أصابـه الهـرم، يـزداد الوخـز تبـاً للمـكادي، يخطـر في بالـه مـرض سـقوط طقـم الأسـنان، تذكّـر الشـاعر في المهرجـان، والبيضـة تنفجـر في وجهـه، ثـم يطـير طقـم الأسـنان في الهـواء ويهـوي نحـو الأرض في بـطء، كأنهـا لقطـة من فيلـم مـا، يتمـدّد الوخـز الآن كخـط النـار بطول جانبـه الأيمـن، حـاول النهـوض فلـم يسـتطع، تعثـر منحنيـاً، طـرق البـاب في قـوّة، صرخ، يـزداد لهيـب النـار، كانـت بطنـه تشـتعل، سـاقه اليمنـى تثقـل حركتهـا، يعـدو نحـو المكتـب، ويتنـاول القلـم ثـم يوقِّـع الإقـرار، ويزحـف نحـو البـاب دافعـاً إيـاه مـن الأسـفل، ثـم يطـرق البـاب في قـوّة ويخربشـه بأظافـره، بنظـرات غائمـة رآهـم يدفعـون

الباب، يحملونه خارجاً ثم ينثني أحدهم نحوه ممسكاً بشيء ما، صرخ في ألم، ثم تحرّرت المثانة من أسرها وانطلق البول من داخلها كعمود من النار.

السقف كان خالياً إلا من بيت العنكبوت عند الزاوية، متمدّداً نحو أول الجدار، نقط سوداء صغيرة تنتشر في فراغ السقف الأبيض المغطى بغبار ناعم كأنها براز الذباب، لا نوافذ، جدران، وباب مغلق، وغرفة عارية، ورائحة النشادر القوية تشعره بالرغبة في الغثيان، كان مستلقياً على الأرض غارقاً في بوله، ما يزال يشعر بالوخز فوق المثانة، كأنها تعاتبه على تحميلها ما لا تطيق، دموعه تنساب في هدوء نحو الأرض الصلبة، وربّما تمتزج بالبول المنتشر في المكان، الرائحة العطنة تكاد تزهق أنفاسه، الآن هو الزمن، الأمس مات، والغد مجهول يتوعده بالويل، فتح الباب، دخل أحدهم يجرّ خلفه خرطوماً، اندفع الماء في قوّة مرتطماً به، انتصب واقفاً في هلع، فرّ نحو الركن والماء يطارده، وضع يديه على أذنيه خوفاً من اندفاعها القوي، ظلّ الماء يرتفع حتى مقدّمة رأسه، ثم ينخفض حتى أسفل قدميه، صعوداً وهبوطاً ثم توقَّف، ولكنه لم يغير وضعه، يداه ملتصقتان بأذنيه، وعيناه مغمضتان في قوّة، سمع صوت باب الغرفة وهو يغلق، ظلّ ساكناً لبرهة من الزمن ثم فتح عينيه في تردّد، الأرضية غارقة في بحر من الماء، يسبح في وسطها جلباب قذر، أخذه ونفضه، ارتجف مشمئزاً وهو يلتصق مبتلاً بجسده، استند على الجدار واقفاً، لا يدري كيف

حدث هذا، ولكنه ذهب في غفوة دون أنْ يشعر، فتح عينيه عليهم وهم يدفعون الباب، أخذوه عبر الممر الطويل، طرق أحدهم ذات الباب، قاوم وهم يدفعونه إلى الداخل، كان الرجل ذو الشعر الأشيب يجلس في مكانه يحمل ذات الابتسامة الطيبة، أشار إليه بالجلوس، جلس على طرف المقعد متوجساً

- ما رأيك في عصير البرتقال؟

ردّ بفزع:

- لقد اعترفت ماذا تريدون مني أيضاً؟

ضحك وأشار بيده نحوه قائلاً:

- لا تخش شيئاً لقد انتهى كلّ هذا.

قال متوجسا:

- وكيف ذلك؟

- مجرد تشابه في الأسماء.

- هل هذا يعني أنني بريء؟

ضحك مرة أخرى ثم دنا بوجهه منه قائلاً:

- أنت مواطن سيني شريف بما لا يدع مجالاً للشكّ.

أومأ برأسه في صمت، شعور عميق بالارتياح غمره رغم رائحة النشادر التي لم تختف تماماً، رفع رأسه، رآها للمرّة الأولى تقف عند النافذة، رغم أنّه لم يرَ إلا ظهرها، ولكن بدا جميلاً، مثل أغنية تهمس بها الملائكة في أذن الكون، التفتت نحوه باسمة:

- حمدا لله على سلامتك يا بصير، كنا واثقين من براءتك!

فغر فاه مأخوذاً بجمالها، بالتأكيد لا يمكن أن تنتمي لهذا المكان، كانت وديعة مثل مناغاة الأطفال، ورقيقة كالطيف، وجميلة كالأحلام، انتبه لنفسه محدقاً بها، فغض بصره في ارتباك، خرج صوته متلعثماً:

- هل أستطيع الانصراف الآن؟

أشار الرجل نحو باب المكتب بيده مبتسماً

- والإقرار؟

- لا تشغل بالك به، فبالرغم من أنك من أبناء الخونة، إلا أننا لن نستخدمه إلا إذا اضطررتنا إليه.

حدجت الرجل الأشيب بنظرة بدت مخيفة للبصير، فارتبك الرجل وهو يستطرد في ارتباك:

- اعتبر التقرير ليس موجوداً، سيتم إتلافه قبل مغادرتك للمكان.

ابتسمت في رضا، وأشارت للبصير فنهض واقفاً، مد يده نحو الرجل ثم أرجعها في سرعة، تراجع متقهقراً للخلف وهو يومئ برأسه مبتسماً.

توقفتْ بعد أنْ ابتعدا قليلاً عن مبنى مكاتب الأمن الشعبي، بالقرب من سيارة تقف على أهبة الاستعداد للانطلاق، ودّعته بابتسامة لطيفة، ثم ولجتْ إلى السيارة تاركة إياه غارقاً في العرق ورائحة النشادر والحيرة، مرّ يوم كامل داخل القبر، الطرقات شبه خالية، وسيارات الأمن الشعبي تقطع الطريق في سرعة، الطلاء منتشر على الجدران لإخفاء ما كتب ليلاً، تبدو العاصمة

صاد مدينة ميتة، جثة متعفنة، وسيارات الأمن الشعبي دود ينخر في جسدها طولاً وعرضاً، قطع الطريق مائلاً نحو ساحة الأحكام، كانت خالية تصفّر فيها ريح السموم، مرّ بجوارها قاطعاً سوق (كما هو)، لم يكن هناك باعة أو مشترون، بعض البضائع التي تركها أصحابها لا تصلح للسرقة، أكوام القمامة في كلّ مكان، تلفّت حوله، كلب يقطع السوق ركضاً لاحقاً بشيء ما، محطة المواصلات خالية من الحافلات، أكمل الطريق نحو البيت، طقم الأسنان الملقى على قارعة الطريق محض وهم غير حقيقي، لم ينظر نحوه ثانية وهو يقطع الطريق نحو الجهة الأخرى بعيداً عنه، وصل إلى البيت، أغلق الباب خلفه ثم غرق في البكاء.

كان البصير مؤمناً بأن اعتقاله لم يكن مجرد تشابه أسماء، فهذا العالم مرتبط بخيوط خفية، فكلّ حادثة تفضي إلى حدث، وكلّ حدث يفضي إلى حادثة، ولأنّ العالم هو نفسه القاضي والجلاد، لم يكن هناك بُدّ من ربط كلّ ما حدث بعيد ميلاده الذي أكمل فيه ستة وعشرين عاماً، ظلّ ذلك اليوم عالقاً بذاكرته مثل وحمة الولادة، كانوا ينسابون كالنمل، لا زال يذكرهم بعيونهم التي يعلوها غبار القهر، كلّ واحد منهم يحمل حبة الذرة خاصته، تتأرجح ما بين العنق والقفا مثل بندول الساعة، حبة الذرة التي تحتل قفا كلّ واحد منهم، كانت تتضخم عند أحدهم حتى تكون بحجم بطيخة ناضجة، وتصغر عند آخر لتكون في حجم برتقالة صغيرة، ولكنها لا تتضاءل لتكون بحجم حبة الذرة المعتادة، حتى ألوانها تتدرج

مـن الأحمـر الفاقـع مـروراً بالأصفـر والأخـضر والأبيـض، تتأرجـح حبـة الـذرة خاصتـه مـا بـين مؤخـرة رأسـه وأسـفل عنقـه، تتأرجـح وكأنهـا تمـرح، طـول تواجدهـا علّمـه أنّ يتعايـش معهـا بطريقـة مـا، يتجاهـل وجودهـا وكأنهـا غـير موجـودة، بـل في أحايـين كثـيرة ينسـى وجودهـا فعليـاً، خاصـة بعـد تعلّمـه طرقـاً مختلفـة للاسـترخاء دون أنْ تضايقـه، كان حجمهـا ولونهـا متغـيران بحسـب متغـيرات حياتـه اليوميـة، فعندمـا كان في بدايـة عمـره كانـت صغـيرة وشـفافة وكأنهـا فقاعـة صابـون تلتصـق بعنقـه، ولا زالـت تكـبر ويتغـير لونهـا كلّـما تقـدّم في العمـر، الآن هـي بحجـم حبـة الليمـون الهنـدي الكبـيرة بلـون أخـضر بـراق، كانـت في أوقـات معيّنـة تزعجـه، خاصـة عندمـا يكـون الجـوّ حـاراً ورطبـاً، يتسـلل العـرق حتـى أسـفل عنقـه، فتنزلـق مـن أعـلى العنـق حتـى أسـفلها، دون أنْ يسـتطيع التحكـم فيهـا، فيتراقـص مجـبراً عسـى ولعـلّ تسـتقر في موضعهـا بـدلاً مـن هـذه العبثيـة التـي لا يطيقهـا، كان يفـرد يديـه عـلى اتسـاعهما، ثـم يتمايـل للأمـام والخلـف، محـاولاً تقليـل حركتهـا، والمحافظـة عليهـا في منتصـف العنـق، ولكنهـا ربّـما تحـب العبـث فتبـدأ في التمايـل يمينـاً ويسـاراً، فيضطـر للتمايـل معهـا، أمـام، خلـف، يمـين، يسـار، فتهـدأ حركتهـا قليـلاً، ولكنهـا لازالـت تبحـث عـن القليـل مـن المـرح، فيفرقـع بأصابعـه، ويـضرب الأرض بقدميـه في إيقـاع منتظـم، ثـم يبـدأ في الرقـص فتهـدأ قليـلاً، ويندمـج في الرقـص فتـزداد هـدوءاً، كأنهـا قطـة تتشـمس بعـد وجبـة دسـمة، ولكنـه ينغمـس في الإيقـاع الراقـص فتلتصـق بعنقـه حتـى

تغدو جزءاً منه، وينساب العرق على جانبيها، في جداول صغيرة خلفها مطر الرقص، فيخرج منديله ويزيل العرق في حذر، ثم يعتدل في وقفته، ويعيد المنديل إلى جيبه، واثقاً من ثباتها هذه المرّة بعد أن دفع الثمن كاملاً.

قلت كانوا ينسابون كالنمل في ذلك النهار، تتراقص حبات الذرة على أعناقهم بمختلف أحجامها وألوانها، لم يكن الأمر هكذا منذ البداية، كانوا يسيرون في الشوارع، وحبات الذرة لا تؤرق قفاهم، بعد المجاعة الكبيرة التي تفشّت في البلاد بطولها وعرضها، رأى بعضهم يبحث في بيوت النمل عن حبات الذرة المخزونة، كان صغيراً وقتها، لم يستوعب عظم الأمر وبشاعته، ففي بيتهم لم يشكوا إلا من شُحِّ زيت السمسم على وجه طبق الفول، ولكن ما دون ذلك كانت الحياة تسير بصورتها المعتادة، لا يختل هذا الاتزان إلا عندما يشاهد التلفاز، فيراهم يسيرون في صفوف طويلة ممتدة لما لا نهاية، نساء نحيلات، يحملن في ظهورهن أطفالاً أشد نحولاً، عيونهم التي يقطنها اليأس، كانت ذابلة مثل عشب خاصمه المطر، التلفاز كان يعرض مساحات شاسعة تتناثر في فضائها شجيرات جافة وماشية عجفاء وأناس موتى أحياء، ودائماً ما يقف المشهد عند امرأة عجوز، تنكت الأرض بعود جاف عند بيت النمل، وعندما سأل أمه، قالت إنها تبحث عن حبات الذرة، فيعود للتطلع إلى وجهها الذابل، وعندما يدقق النظر، يبصر آثار مجاري الدمع في خديها المتغضنين، ركض نحو مخزن الذرة

وعـاد يحمـل حفنـة منهـا في يديـه الصغيرتـين، ومدهـا نحوهـا ولكنهـا لم ترفـع عينيهـا نحـوه، ضمّتـه أمـه إليهـا ثـم قبلتـه عـلى خـده قائلـة: يـا لقلبـك الطيـب الحنـون! ثـم مـا فتئـت تعيـد سرد مـا حـدث كلّـما أتـت مناسـبة، وصوتهـا ينبـض بالفخـر، ولكنـه في حقيقـة الأمـر، كان يشـعر بالمهانـة، لرفضهـا أخـذ حفنـة الـذرة، إنْ كانـت هـي تحتاجهـا ولديهـم مـا يفيـض عـن حاجتهـم، فلـم لم تقبـل مسـاعدته؟ بـات يتجنـب النظـر للتلفـاز عندمـا تـأتي، بـل ربّـما يغـادر المـكان تعبـيراً عـن اعتـزازه بكرامتـه التـي أهينـت.

أبـوه الغاضـب عـلى الـدوام، كان يتحـدث عن المخـزون الاسـتراتيجي، وعـن البرلمـان، وشُـحِّ الأمطـار، والمضاربـة في الأسـعار، وعـن العجوز التـي تبحـث عـن حبـات الـذرة، لم يكـن يفهـم مـا يـردّده ولا يجـد بينـه رابطـاً، في المسـجد، كان الخطيـب غاضبـاً، وهـو يحضهـم عـلى العـودة إلى جـادة الصـواب، لترحـل المصيبـة عـن سـمائهم، ودعاهـم إلى الصـلاة كـي يهطـل المطـر، رجـل الديـن كان يعلـم لمـاذا لم يـأت المطـر، وكان يعلـم أيـن يختفـي المطـر حينـما لا يـأتي إليهـم، بـل ويـدرك كيفيـة الإتيـان بـه عندمـا يرفـع رايـة العصيـان، ففزعـوا إلى الصـلاة جميعـاً في السـاحات التـي توسـطت البيـوت، وفي أطراف المـدن، ووسـط المزارع، وفي الفيـافي البعيـدة، ابتهـل مـع النـاس، ودعـا البصـير أن يـأتي المطـر لتنبـت حبـات الـذرة، وتنقـذ تلـك العجوز، وتغسـل آثـار الدمـوع عن خديهـا، تجمّعـت السـحب مـن العـدم حتـى غطـت السـماء، ارتفعـت الحناجـر بالهتـاف، ثـم هطـل المطـر وكأنـه مئـات القـرب المفتوحـة في

نفس الوقت، هرولوا نحو بيوتهم في ذعر، ركض نحو التلفاز وأشعله ثم جلس ينتظر العجوز في لهفة، مرّ زمن طويل وهو متسمِّر أمام الشاشة، وخياله الخصب أحال تلك الفيافي التي تظهر جرداء من خلفها، إلى برك من الماء، وغابة سنابل خضراء مذهبة، ولكنها أتت بذات الملامح، ولا زال الخواء يقطن خلفها كالموت، حاملة ذات العود بذات البؤس، ركض نحو التلفاز محاولاً حمله، ولكن جسده الضئيل لم يسعفه، صرخ أبوه ناهياً إياه في غضب، ولكنه لم يبالِ وهو يحاول زحزحته من مكانه، حمله أبوه بعيداً وسأله عمَّا يفعله، لاذ بالصمت، لم يستطع إخباره برغبته في إيصال المطر إليها.

لم يكن ذات الطفل النقي عندما زارته الفتاة التي تنازل عنها للضابط في البيت، مرورهم بسنوات صعبة صهرت النفس، وأعادت تشكيلها لتحيل نحن إلى أنا، الأمان أمان الأنا، والخطر هو ما ينعكس على الأنا، لا ما يصيب الآخر، الطريق الطويل عبر جحيم السنوات، علمه اتقاء النار ولو بجسد آخر، ليس هذا تبريراً لما حدث، ولكنها محاولة لتوضيح صورة بالغة القتامة والقبح، رائحة الشواء الآدمي كانت تشمّ في الطرقات، في العيون الذاهلة، والشفاه المطبقة، تفوح حتى زكمت الأنوف فألفتها، ولم تعد تلقي لها بالاً، حبات الذرة التي تتراقص في القفا، كان حجمها يكبر كلّ يوم، حتى سحقت البعض بأديم الأرض، وعركت أنفه بالتراب، اعتاد على المشاهدة بعيداً عن التعاطف، هو مجرد موظف في وزارة

الثقافـة، لا يملـك عصـاً سـحرية لإصـلاح العـالم، علّمتـه السـنوات الصعبـة بعـد مـوت أبيـه أنْ ينظـر موطـئ قدمـه جيـداً.
عندمـا توسّـط لـه عمـه مـن أجـل هـذه الوظيفـة أوصـاه بـأن يطبـق شـفتيه جيـداً، قـال:
- لا تكـن مثـل أبيـك، هـذه البـلاد لا تحتـاج أبطـالاً، تأريـخ أبيـك الأسـود وقـف عائقـاً أمـام توظيفـك، لـن تـدرك لأي مـدى قـد وصلـت حتـى تظفـر بهـذا العمـل، انظـر حولـك لتـدرك معنـى كلامـي، حافـظ عـلى عملـك واعتـنِ بأمـك وإخوتـك ودع عنك سـيرة أبيـك فلـن تنالـوا منهـا سـوى المتاعـب.
في الليـل الـذي أعقـب هـذا النهـار الطويـل، وفي اليـوم الـذي بلـغ فيـه السادسـة والعشريـن، لم يكـن وحيـداً تمامـاً، كانـت لـه صديقـة في الواحـدة والعشريـن، وكان يسـتلطفها رغـم أن حبة الـذرة خاصتها كان لونهـا غريبـاً، قريبـاً مـن لـون المـوز قبـل نضجـه بيـوم واحـد، مترهلـة عـلى جانبـي عنقهـا في بشـاعة مزعجـة، ولكـن مـا دون ذلـك فلـم يكـن يعيبهـا شيء، غـير أنّـه قـد رأى حبـات ذرة أشـد غرابـة، وأكثـر بشـاعة، تقبلـه للأمـر كان جيـداً عندمـا يقيسـه بلطفهـا الزائـد، وأنوثتها المتدفقـة، وإنْ كانـت حـين تغضـب تتقافـز حبـة الـذرة عـلى عنقهـا مثـل بالـون ممتلـئ بالمـاء، فتتراقـص عـلى عنقهـا، وترتفـع وتنخفـض في جنـون، فينشـغل بـه عـن غضبهـا، يظـلّ يتابـع البالـون، وهـو يتمـدّد بطـول عنقهـا ثـم يعـود للانكـماش في مؤخـرة الـرأس، كأنـه يـؤدي تماريـن اسـتطالة مـن نـوع خـاص، فتـزداد غضبـاً ويـزداد البالـون

جنوناً ويتوه هو بينهما.
زارته أول الليل في بيته بشكل مفاجئ، كانت تلك زيارتها الأولى والأخيرة، ملابسه التي تبعثرت بطول الغرفة، وعلى الأرضية، وفي غرفة الجلوس الرمادية، وتحت التلفاز مباشرة، بقايا الغداء على الطاولة، والأواني المتسخة، وكوب الشاي نصف الممتلئ، ورواية كان يطالعها، ذهبت في غفوة صغيرة على المقعد المنفرد، وقميصه البني مغطياً نصفه الأعلى، عندما رنّ جرس الباب، وهو ممدد على الأريكة الرمادية في وسط غابة الملابس، ويتابع التلفاز بنصف وعيه في ملل، نهض في تثاقل وأزاح عنه القميص، وكوّره بيده متلفتاً حوله في حيرة ثم ألقاه في طرف الصالة.
بوغت حين وجدها منتصبة أمامه، كانت جميلة كالمعتاد، والوشاح الملتف حول عنقها أخفى حبة الذرة خاصتها، ما عدا طرفها المترهل في الجانب الأيمن للعنق، فظهر كشفتين ترسلان قبلة في الهواء، رغم ارتباكه شعر بالطرافة فابتسم، ثم انتبه لوقوفه شبه عارٍ في مواجهتها، فركض للداخل بحثاً عن قميصه البني، وارتدى معه سروالاً قطنياً يصلح للنوم، ألقى نظرة على الصالة التي تبدو كساحة للعب الكلاب، وارب الباب خلفه وهو يقف أمامها مرتبكاً، بادلها الابتسام مجاملاً، ناظراً إلى يديها المحملتين بالأكياس ولكن لم يستطع إخفاء نظرة التساؤل في عينيه، ابتسمت وهي تدنو منه قائلة:
-كلّ سنة وإنت طيب.

تلفّت حوله في ارتباك خوفاً من العيون المتلصصة، ولكن الممر كان خالياً إلا من كيس القمامة بجوار السلم، وكُرة قدم بالية ترقد بجواره في سلام، لم يكن هنالك بُدّ من دعوتها للدخول، أشار بيده وهو يفسح لها كي تدخل، لم تستطع إخفاء دهشتها وهي تلج للداخل، ولكن على كلّ لم يكن هذا سبب قرارها بعدم زيارته مرّة أخرى، جمع الآنية المتناثرة من الطاولة، متمتماً بكلمات الاعتذار التي خرجت من فمه مرتبكة ومتداخلة، الملابس المتناثرة على الأرضية، جمعها في كوم واحد، ثم ألقى بها في الغرفة، وتأكد من إغلاق بابها خلفه جيداً، كلّ هذا وهي واقفة تراقبه، وكأنها مفتش النظافة والتنظيم العام، أخيراً ابتسم في وجهها وأشار إلى الأريكة، طالباً منها الجلوس، ثم هرول ليتأكد من نظافتها قبل جلوسها عليها

- لو أنك أخبرتني قبل قدومك لرتّبت المكان.

- أحببت أنْ أفاجئك.

قالتها وهي تبحث عن وضع مريح للجلوس

جلس مواجهاً لها، فرَد ظهره قليلاً ثم كحّ بلا داع وحكّ رأسه

- غاب عن بالي أنّ اليوم عيد ميلادي.

قال محرجاً فهو لا يحتفل به أصلاً

فضّت الكيس المقوى وأخرجت التورتة في حرص، لونها الوردي المزين بقطع الشوكلاتة الداكنة جعلها أنيقة، فتحت حقيبتها وأخرجت ثلاث شمعات طويلة ونحيفة بذات اللّون، غرزتها

في جسد التورتة، ثم أخرجت ولاعة من حقيبتها أيضاً، ضحكا معاً، يبدو أنّها لم تنس شيئاً، نهضت في رشاقة وأطفأت الأنوار، ثم عادت للجلوس في مقعدها، ضوء الشموع المتراقص منح ملامح وجهها عمقاً، وكأنّها تطلّ على الغرفة من بُعد آخر، قلبه يخفق وحبة الذرة خاصتها تتابع من خلف الوشاح في فضول، صوتها المنخفض العذب تردّد في فناء الصالة التي تتراقص الظلال الآن في جدرانها

- HAPPY BIRTH DAY TO YOU

- HAPPY BIRTH DAY TO YOU

ابتسم بغباء غير متيقن مما يجب فعله، وهي تنظر نحوه مبتسمة ثم وضعت كفّها على كتفه، وأدنته من الشموع ونفخت في رقّة فأتبعها نافخاً، تلامس خداهما فارتعش، ولكنها ابتعدت وهي تصفق بكفيها في جذل، كأنها طفلة دون العاشرة، نهضت لتضيء الصالة، تعثّرت في الطاولة ولكنها وجدت طريقها في النهاية، أشعلت الأنوار، ثم عادت للجلوس في مكانها، تناولت الهدية الملفوفة بورق الهدايا الناعم ومدّتها نحوه، تناولها في تردّد، ابتسمت مشجعة ففض الورق، وبرقت ساعة يد بلون فضي أنيق، جلست بجانبه وساعدته في ارتدائها، عندما وجدته مرتبكاً، كانت تقوم بكلّ شيء في بساطة، وتجلس ملتصقة به، ورائحة عطرها تضمخ المكان، يدها على كتفه، وصدرها ملتصق بساعده وابتسامتها تدعوه للاقتراب، تسللت كفّه إلى كتفها، ثم داعبت أنامله أطراف

عنقهـا، وهـي تغمـض عينيهـا، وشـفتيها تحمـلان ابتسـامة صغـيرة حالمـة، لامسـت يـده حبـة الـذرة خاصتهـا فانزلقـت مثـل سـحلية مذعـورة، نفـض يـده في ذعـر ثـم نهـض واقفـاً.

- ماذا بك؟

تنحنح متطلعاً إلى الساعة في معصمه ثم قال مرتبكاً

- ما رأيك أن نتمشى قليلاً؟

تهـرّب مـن نظرتهـا المتسـائلة المعاتبـة نحـوه، وهـو يتشـاغل بالسـاعة الجديـدة في يـده، انتظرهـا حتـى جمعـت أغراضهـا، ثـم سـبقها وفتـح بـاب البيـت، تسـللا معـاً حتـى داعبهـما هـواء الليـل، وهـم يذرعـان الطريـق مبتعديـن عـن مـكان سـكنه، وهـو يهـرول بسرعـة أقـرب للركـض.

في هـذه البـلاد عندمـا تحتـاج للمسـاعدة حقـاً فـلا يـد تمتـد نحـوك سـوى يـدك، هـذا الطريـق الموحـش علّمـه الاعتنـاء بنفسـه جيـداً، خـرج مـن الدائـرة الواسـعة التـي تلتهـم ثلثـي الشـعب الموضـوع تحـت دائـرة الاشـتباه، ويتـمّ اسـتدعاؤه بشـكل دوري في مراكـز الأمـن الشـعبي المنتـشرة بطـول البـلاد، عندمـا كانـت تسـير بجانبـه، لم يكـن ذلـك الطفـل الـذي يريـد أنْ يقـدّم حفنـة الـذرة لعجـوز جائعـة، تعلـم أنّ الجـوع وبـاء، وقـد يـأتي متنكـراً في هيئـات متباينـة، حفنـة الـذرة قـد تكـون ترياقـك الوحيـد في وقـت مـا، فمـن الأفضـل الاحتفـاظ بهـا، وهكـذا فعـل عندمـا اسـتدعاه رجـل الشرطـة للاقـتراب منـه، وهـو يوقـف السـيارة في عـرض الطريـق، اقـترب منـه، سـأله عـن بطاقتـه

الشخصية، قرأ بياناتها في عناية ثم أشار لها قائلاً بصوت عابث ونصف ابتسامة:

- مَن هذه التي برفقتك؟

رائحة الدخان المتصاعد من اللفافة المحترقة حتى نصفها بين أصابعه زكمت أنفه:

- لا أحد مهمّ، مجرد فتاة أساعدها على قطع الطريق فأنت تعلم أن الليل لا أمان له.

ابتسامته توحي بالبراءة ولكن ردّ عليه بلهجة صارمة:

- هل تلمح لأننا لا نقوم بعملنا؟هل تقول إنّ الأمن غير مستتب؟

- ومَن يجرؤ على قول ذلك؟!

- دع الفتاة نحن سنوصلها إلى وجهتها، هيا انصرف!

استدار نحوها ووجهه يحمل ابتسامة لا معنى لها:

- سيوصلك رجال الشرطة إلى وجهتك يا سيدتي.

نظرة الهلع التي ارتسمت على وجهها، واستغاثتها الصامتة لم يكونا مجد يين

لوّح لها مودِّعاً وتركها لمصيرها المحتوم.

في تلك الليلة التي أكمل فيها ستة وعشرين عاماً، تخلّى عن الفتاة التي أتت لتحتفل معه بعيد ميلاده، تخلى عنها ببساطة ونذالة وخسة، وقف بجانب الطريق تلفه الكآبة، كان يمكن أن يخبره أنها أخته، أو زوجته، أو أي شيء آخر، ولكنه خاف أن يتحرى عن الأمر، فتنكشف كذبته، وعندها لن يكتفي بها وحدها، راقبها

وهـي تصافـح الضابـط ثـم تلتفـت نحـوه، وتحدجـه بنظـرة تفيـض بالاحتقـار، ثـم فتحـت بـاب السيارة ملتصقـة بالضابـط، وأغلقـت البـاب في عنـاء كبـير. وعندمـا رجـع للبيـت لاحـظ أنّ حبـة الـذرة خاصتـه كانـت أكثـر اخـضراراً وبريقـاً ولزوجـة.

كان البصـير موقنـاً، أنّ خذلانـه للفتـاة في تلـك الأمسـية كان فادحـاً، ولكـن الثمـن الـذي سـيدفعه لـو لم يخذلهـا سـيكون أفـدح، رغـم قناعتـه الراسـخة، بـأنّ سـلامه الهـشّ معـرض للفقـدان دائـماً، ولكنـه لم يملـك شـجاعة المخاطـرة بـه مـن أجـل فتـاة مـا، لم تكـن مجـرد حكايـات تحكـى، أو إشـاعات تطلـق ثـم تمـوت دون أنْ يعـرف مصدرهـا، رغـم أنّ الإشـاعات هنـا تومـض وتمـوت قبـل أنْ تمنحـك فرصـة لهـزّ رأسـك ومـطّ شـفتيك تعجبـاً، ولكـن في وسـط كلّ هـذا فالحقيقـة الماثلـة الوحيـدة هـي نفسـك، انـج سـعد فقـد هلـك سـعيد، لا تقـف في وجـه أحـد، ولا تجـادل أحـداً، ولا تمـارس الشـجاعة أمـام أحـد، دعـك في الظـلّ تسـلم، وهـذا أيضـاً تعلّمـه بالطريقـة الصعبـة، مجـرد نقـاش بسـيط مـع صديـق قـد يغـير مسـار حياتـك بأكملهـا، أبـوه تسـاءل فقـط، اسـتفسر كإنسـان متحـضر، حـدث هـذا والرؤيـة لم تضـح بعـد، والثـورة لا تـزال وليـدة، تسـاءل أبـوه عـن الموعـد المناسـب لعـودة عمـل البرلمـان، حسـبما كان يقـال في الإعـلام وقتهـا، أنّ الثـورة تصحيحيـة، أتـت لتعديـل مسـار البـلاد التـي تسـير نحـو الهاويـة، هـل كان أبـوه سـاذجاً؟ الثائـرون عـادة لا يتمهلـون للإجابـة عـلى الأسـئلة، بـل يجيـدون الـرّد عليهـا في شـكل اتهـام مبـاشر، تحـدث

أبـوه في السـوق، عنـد دكانه المـشرع عـلى الطريق، المارشـات العسـكرية التـي تصـدح مـن الراديو طـوال اليـوم، والسـيارات العسـكرية المرتكزة في أطـراف السـوق، كلّ شيء كان يوحـي بأنهـم أتـوا ليبقـوا لا لأجـل تصحيـح انحـراف مـا، ولكـن أبـاه لم يـرَ كلّ هـذا، تسـاءل في السـوق بـين جيرانـه لأكثـر مـن عشريـن عاماً، عـن موعـد عـودة عمـل البرلمان الـذي تـمّ تجميـده، في الليـل طرقـوا بـاب البيـت وأخـذوه.

(٢)

انساق للزحام الذي يفضي به إلى وسط العاصمة صاد، مرّت عشرة أيام على اعتقاله، وتبقّى يومان على موعد السباق النهائي لمهرجان الحمير الكبير، لا صوت يعلو فوق نهيق الحمير، مهرجان الحمير السنوي كان حدثاً عظيماً في مدينة صاد، أينما ذهبت فستجد الجميع يتحدث عن السباق المرتقب، التصفيات التي دارت في مختلف أنحاء البلاد طوال الأربعة أشهر الماضية انتهت إلى هنا، من كلّ إقليم من أقاليم بلاد سين الخمسة، صعد حماران بعد منافسات محتدمة، ليقام السباق النهائي في العاصمة عند ساحة الأحكام الكبيرة، التي يتمّ العمل فيها منذ الشهر الماضي، حيث فرشت بالرمل الأحمر، والأبيض وحدّدت بالرماد والجير والجبس، وطلي سورها باللونين الأحمر والأبيض، كما ارتفعت في أركانها أعلام الأقاليم الأربعة، الشرقي والغربي والشمالي والجنوبي، في حين ازدان مدخل الساحة نفسه بأعلام الإقليم الأوسط، من المعتاد أن مشجعي كلّ إقليم يتجمعون عند الركن الخاص بهم، من أجل التشجيع والمؤازرة، ولكن بسبب قلّة التنظيم، كثيراً ما

يحـدث الخلـط بـين جماهـير الأقاليـم، مما أفـضى إلى شـجارات تصغـر وتكـبر بسـبب الحـماس الزائـد، بـل في بعـض الحـالات أفضـت إلى أحـداث داميـة، تسـاقط فيهـا عـدد مـن الضحايـا، ولكـن كلّ هـذا لم يقلـل مـن المتابعـة والاهتـمام المتعاظمـين للمهرجـان السـنوي، حيـث تـدور المراهنـات في النـوادي والمقاهـي والأسـواق، وأحيانـاً عـلى قارعـة الطريـق، ودائـماً مـا يكـون للمـكادي بسـيقانه الطويلـة النحيلة، وجسـده الممشـوق، نصيـب الأسـد مـن المراهنـات، وهـو لم يخيـب ظـنّ المراهنـين بفـوزه بآخـر أربعـة كـؤوس، وفي كلّ عـام تتحـدث الصحـف عـن المواهـب المكتشـفة مـن الحمـير في شـتى أصقـاع بـلاد السـين، والمرشـحة بقـوّة للإطاحـة بالمـكادي في السـباق الكبـير، ولكـن يؤكّـد المـكادي، أنّ كلّ هـذه الترشـيحات محـض هـراء، وهـو يطيـح بمنافسـيه الواحـد تلـو الآخـر، حتـى أضحـى أيقونـة، وماركـة تجاريـة معروفـة، تطبـع صورتـه عـلى القبعـات والسـترات، وانتـشرت السـاعات والجـوارب ماركـة المـكادي في بـلاد السـين، مـن أدناهـا إلى أقصاهـا، ووضعـت صورتـه في صـدر المجالـس لجلـب الفـأل، وتأكيـد العزيمـة الماضيـة للحـمار الملهـم، تتحـدث الشـائعات أنّ المالك الحقيقـي للمـكادي هـو السـيد الرئيـس شـخصياً، وإنْ كان هـذا يبـدو أمـراً مبالغـاً فيـه، ولكـن في كلّ حـال، كان يحظـى بالدعـم الرسـمي من الأم الـرؤوم، ولـه إسـطبل خـاص بـه، تتوفـر فيـه كلّ وسـائل الراحـة، ويتواجـد في جميـع المحافـل الرسـمية، ومراسـم اسـتقبال الرؤسـاء الـزوار مـن خـارج البـلاد، كـما أنّ قصـة الحـب التـي ربطـت بينـه وبين

(النخـة)، الأتـان البيضـاء التـي تتبـع لإسـطبلات وزارة الداخليـة، كانـت مثـار اهتـمام كبـير مـن وسـائل الإعـلام بمختلـف أنواعهـا، وبلـغ الأمـر ذروتـه في حفـل الزفـاف، والـذي تـمّ نقلـه في مختلـف القنوات التلفزيونيـة مباشرة، بكافـة طقوسـه ومراسـمه البالغـة الأبهـة والفخامـة.
تصـبّ الترشـيحات هـذا العـام في اتجـاه الجـورف، ممثـل الإقليـم الغربي في المهرجـان، مـن متابعـة البصـير لـه في البرنامـج الخـاص بالمهرجـان الـذي يبـث في تمـام التاسـعة مسـاء، ولمـدّة سـاعة كاملـة، عـلى القنـاة الرسـمية للحكومـة، كان يبـدو قصـير القامـة، وضئيـل الجسـم، ولكـن الـكلّ يجمـع عـلى سرعتـه ورشـاقته، واحتدمـت النقاشـات بـين مشـجعي المـكادي مـن الإقليـم الأوسـط، والجـورف مـن الإقليـم الغـربي، كـما ارتفعـت المراهنـات إلى أرقـام فلكيـة.
أخـذه السـيل المتدفـق مـن البـشر إلى سـاحة الأحـكام، لم يكـن يحب القـدوم إلى هنـا، رغـم أنّـه كان صغـيراً، لا يذكـر تنفيـذ الحكـم ولكـن أمّـه حكـت لي تفاصيـل مـا حـدث، قالـت:
-أتـوا بهـم جميعـاً وقـد غلـت أيديهـم مـن أمامهـم، وربطـت إلى أرجلهـم بسلاسـل طويلـة لهـا صليـل، تجلجـل كلـما خطـوا خطـوة نحـو منتصـف السـاحة، كانـوا يمشـون وهـم محاطـون بثلـة كبـيرة مـن العسـاكر المدججـين بالسـلاح، السـاحة التـي ازدحمـت بالنـاس طغـى عليهـا الصمـت الرهيـب، وقـف القـاضي أمـام المنصـة التـي نُصِبـت عـلى عجـل، وتـلا الحكـم بصـوت جهـور، التهمـة كانـت خيانـة

مبادئ الثورة، والعمل على إثارة البلبلة وتقويض النظام، والحكم هو الإعدام شنقاً حتى الموت.

تخيّل المشهد أمامه، تم شنقهم الواحد تلو الآخر، ثم تركت جثثهم معلّقة في المشانق حتى فاحت رائحتها، وأخيراً جُمعوا بليل ودفنوا في مكان مجهول، وباعتبارهم خونة تمّ التشهير بهم في جميع منابر الدولة، والتأكيد على خيانتهم، حتى وقر في أنفس الناس صحة الأمر، بالإرهاب تارة، وبالتجهيل تارة أخرى، ولم ينج أحد من الطوفان، يحذره عمّه من الاقتداء بأبيه، متجنباً أن يعلم أحد أنّه أحد أبناء الخونة الذين كفروا بمبادئ الثورة، ورفعوا راية العصيان، وإنْ كانت الأم الرؤوم تراه مثالاً جيداً على إعادة الدمج لأبناء الخونة في سياق الثورة العظيم.

تزينّت الساحة بالأعلام الخفاقة، برقت جدرانها باللّونين الأحمر والأبيض، كما ازدحمت بالحمير وسائسيها، وعدد لا يستهان به من الصحفيين، والكاميرات الثابتة والجائلة على الأكتاف، والمكاتب الإعلامية التي نُصِبت على أطراف الساحة في عجل، كأنها أكشاك لبيع المثلجات، كما تصطك الأذن بالنقاشات المحتدمة، بين الجماعات الجالسة في المدرجات حول الحمير الأقرب للفوز، الأمر كان جدياً وليس مزاحاً، فالكثيرون ينون خططهم المستقبلية على المدى القريب والبعيد، بناءً عمّا تسفر عنه الجولة النهائية للمهرجان، على كلٍّ فوز المكادي المكرر بالمهرجان، دفع شركات المراهنة إلى السعي لتلافي خسائرها المتتالية باختراع عبقري، أطلقوا

عليه حمار الذيل، يبدو الرهان طريفاً حول آخر حمار سيقطع خط النهاية، ولكن عندما تسمع بالأرقام المهولة التي تدفع في المراهنات، تدرك أنّ الأمر ليس طريفاً فقط، ولكن تنفق فيه أموال طائلة، وتبنى عليه آمال عظيمة.

في واحدة من السباقات انتشرت شائعة بأنّ الخواد ممثل الإقليم الشرقي، الذي احتل المرتبة الأخيرة في السباقين السابقين لتلك السنة، تم تغذيته بذرة مطحونة مضاف إليها مواد منشطة، انتشرت الشائعة في سرعة حتى طغت على غيرها من أحداث المهرجان، وبما أنّ هناك مراهنات ضخمة قد عقدت عليه كحمار الذيل، فقد ارتفعت تدريجياً المطالبة بإجراء فحوصات على الخواد، للتأكد من خلوه من المنشطات، كما طالبت بعض الأصوات المتطرفة باستبعاده من السباق، وكانت ردّة الفعل قوية من جماهير الإقليم الشرقي اتجاه الأمر، مهددين بسحب الخواد ورفيقه من السباق، اعتراضاً على التشكيك فيهما، والتشكيك في السائس المختص بهما، وبالتالي التشكيك في نزاهة الإقليم ككلّ، وهو أمرٌ مرفوض من حيث المبدأ، فالحماران يعتبران ممثلان رسميان للإقليم، في تظاهرة بحجم مهرجان سباق الحمير السنوي، وأي تشكيك فيهما يعتبر إهانة مباشرة للإقليم الشرقي، شعباً وحكومة، وللحظة بدا أنّ المشكلة في طريقها للتفاقم، وربّما تؤدي لما لا يحمد عقباه، فتدخلت اللّجنة المنظمة، مؤكدة أنّ الفحوصات الروتينية التي تُجرى على الحمير، أكّدت خلو دماء ممثلي الإقليم الشرقي

من أي نوع من أنواع المنشطات، وخلو جسدهما من البراغيث والطفيليات المعدية، فاعترض جمهور الإقليم الشرقي على صيغة البيان، معتبرين ذكر الطفيليات والبراغيث نوع من التعريض غير المقبول، وطالبوا بتعديل البيان، وإلا فلا مناص من الانسحاب من المهرجان، بل وربّما يصل الأمر إلى تجميد المشاركة في الأعوام القادمة، والتهديد بعمل مهرجان سباق منفصل للحمير، خاص بالإقليم الشرقي، وهنا كان لا بُدّ من تدخل رسمي، فأصدرت وزارة المناشط بياناً، ندّدت فيه ببيان اللّجنة المنظمة، معتبرة أن فيه انتقاصاً واضحاً لسيادة ومكانة الإقليم الشرقي، وتمّ إقالة رئيس اللّجنة، واستبداله بآخر مع إحالة الأول للتحقيق، وأُجري السباق في جوٍّ من التوجس والترقب، وكان الكلّ في انتظار ما سيسفر عنه حول حمار الذيل، وعندما حقّق الخواد المركز الأخير كالمعتاد، هللت جماهير الإقليم الشرقي، وحملوه على الأعناق وطافوا به في شوارع العاصمة، في موكب فرح عظيم من السيارات، والفرق الموسيقية، والبهلوانات والمهرجين، بل لم يخلُ الموكب من بعض العرافات، وقارئات الكف، وراميات الودع، وحارقات البخور، وبالطبع المتسولين، والباعة المتجولين، وسائسي القرود، بقرودهم التي تتقافز في زحام الموكب ملتقطة حبات الفول السوداني، والحلوى، والقطع النقدية المعدنية، وغيرها مما تجود به نفوس المحتفلين العامرة بالفرح والحبور، حتى طغت أخبار الخواد على المكادي الفائز بالسباق، واحتلت صورته مختلف الوسائط

الإعلاميـة، كـما أنّ مديـر الإقليـم الشرقـي، ألقـى خطابـاً يشـيد فيـه بنزاهـة السـائس، التـي أكّدهـا احتـلال الخـواد للمركـز الأخـير، بـل وعـد بتقديـم مكافـآت وحوافـز ضخمـة للخـواد ورفيقـه وسائسـه، للخدمـة الجليلـة التـي قدّموهـا ومحافظتهـم عـلى سـمعة الإقليـم مـن القيـل والقـال.

رجوعـه مـن نفـس الطريـق كان مسـتحيلاً، مـع الازدحـام المحيـط بسـاحة الأحـكام، ولا زالـت الجماهـير تنحـدر كالسـيل مـن وسـط العاصمـة، اتجـاه السـاحة ملوّحـين بالأعـلام، ويـردّدون هتافـات أقـرب للزجـل في مـرح صاخـب، لا بُـدّ مـن أخـذ نصـف دورة حـول السـاحة مـن الاتجـاه الجنـوبي، ثـم الانحـدار نحـو السـوق (كـما هـو) المزدحـم بالزبائـن، والبضائـع الرخيصـة، والخضروات التالفـة، ولحوم الأبقـار والدواجـن النافقـة، تجـد بضائـع سـوق (كـما هـو) رواجـاً كبـيراً، وذلـك لرخـص أسـعارها، فيمكنـك شراء جـوال البطاطـس التالفـة بجنيهـين أثنـين فقـط، كـما تبـاع الأحذية المسـتخدمة، والمسـامير الصدئـة، والملابـس القديمـة، وسـيقان الدجـاج البيضـاء المرصوصـة في نسـق جميـل عـلى الطـاولات، وكأنهـا كتائـب في طريقهـا للحـرب، كـما تبـاع الراديوهـات، والتلفزيونـات، والمـراوح، والغسـالات، والثلاجـات، بجـودة منخفضـة للغايـة، والتـي تـرد إلى السـوق مباشرة دون المـرور بضبـط الجـودة أو المقاييـس، أو غـيره، فتمتـاز برخـص أثمانهـا، ورداءة صناعتهـا، كـما تبـاع بـدون ضـمان أو خدمـة مـا بعـد البيـع، لم يطلـق اسـم السـوق عبثـاً، فـكلّ معـروض هنـا يبـاع كـما

هـو، فلـو افترضنـا أنـك ابتعـت تلفـازاً ووجدتـه معيبـاً، أو تالفـاً، أو لم يعجبـك لأي سـبب آخـر، فـلا توجـد خدمـة اسـترداد بعـد البيـع، وحتـى إنْ وجـدت، فأنـت لـن تجـد التاجـر الـذي ابتعـت منـه التلفـاز، فغالبـاً مـا سـيكون قـد تحـوّل لتجـارة الثلاجـات، أو بيـع الأسـماك، أو تجـارة الجلـود المدبوغـة، أو ربّـما جمـع مـا باعـه وهجـر التجـارة بحالهـا، واتجـه للمشـاركة في مراهنـات سـباق الحمـير، أو أي ضرب آخـر مـن ضروب المراهنـة.

عـلى كلٍّ لا توجـد خدمـات مـا بعـد البيـع هنـا، غـير أنّـه لا توجـد محـلات بالمعنـى المعـروف للسـوق، ولكـن تعـرض البضاعـة في الهـواء الطلـق، فلـو زهـدت في بضاعـة اشـتريتها، أو رغبـت في بيـع أي غـرض مـن أغراضـك بسـبب استغنائك عنـه، أو لحاجـة ماليـة طارئـة، فأنـت تتحـوّل مـن مشـتر إلى بائـع في يـسر بالـغ، مـا عليـك إلا أن تجـد مكانـاً مناسـباً لعـرض بضاعتـك، ومـن ثـمّ الـشروع في رفـع عقيرتـك مناديـاً عليهـا، ومعـدّداً محاسـنها، ولـن يمـرّ وقـت طويـل قبـل أنْ تتخلـص منهـا، فالنـاس هنـا يشـترون كلّ شيء، فـكلّ معـروض تجـد مَـن يرغب فيـه مهـما كان تافهـاً، أو غـير صالـح للبيـع في نظـرك.

بـل ممـا يثـير الدهشـة ذات مـرّة في سـوق (كـما هـو)، قـام بائـع القهـوة بإيجـار مكانـه الخـاص بتحميـص البـن في طـرف السـوق، ولمـدّة سـاعة واحـدة لرجـل مُصـاب بالرهـاب مـن دخـان البـن المحمـص، فأتـى بـه أهلـه وقامـوا بتقييـده في مقعـد الرجـل، الـذي قـام بتحميـص البـن بكميـات كبـيرة حـول الرجـل، حتـى انعقـد الدخـان حولـه، ولم

يعـد مـن المستطاع رؤيتـه، وبـدأ الرجـل في الـصراخ كأنـه ممسـوس، ثـم تحـوّل الـصراخ لعويـل تقطعـه نوبـات سـعال متقطعـة، ثـم نهنهـة يتبعهـا سـعال ضعيـف، وأخـيراً طلـب الرجـل كوبـاً مـن القهـوة، وشربـه بـين دموعـه ومخاطـه السـائل، وسـط تهنئـات المهنئـين بشـفائه، ثـم بـدأ الحديـث يـدور عـن القـوة السـحرية في دخـان البـن المحمـص، بيـد بائـع القهـوة، وأثـره في الشـفاء مـن كلّ علّـة، أو مرض، أعيـا الطب والمطببـين، فبـدأ النـاس في التوافـد للمـكان زرافـات ووحدانـا، والـكلّ يلتمـس العـلاج مـن آلام المفاصـل، ورمـد العيـون، وقرحـة المعـدة، وصرف العـارض، ونظـرة الحسـد، وقلّـة الحـظ، وتيسـير الـزواج، والعـلاج مـن العقـم، والخسـارة في السـوق، وغـدر الأصحـاب، وجـراح العاشـقين، وقوبـاء الـرأس، وحبـس البـول، ثـم تسـامع الناس بالأمـر في بـلاد السـين، فتوافـد النـاس، وعمـر المكان، واتسـع السـوق، واضطـر بائـع القهـوة لعمـل مشرفـين، ومسـاعدين عـلى العمـل، ثـم اضطـر المسـاعدون لعمـل مسـاعدين آخريـن، كـما ظهـر منافسـون لبائـع القهـوة، فنصبـت الخيـام للمقيمـين مؤقتـاً بعـد ازدحـام فنـادق العاصمـة بالمـرضى وذويهـم، وارتفـاع أسـعار الإيجـارات لأرقـام فلكيـة، بـل ويقـال إن بعـض المـرضى توافـدوا مـن بلـدان مجـاورة، بحثـاً عـن الشـفاء بدخـان البـن العجيـب، فشـوهد الأعمـى، والكسـيح، والأبـرص، والأصـم، والأبكـم، والمجنـون، ونصـف العاقـل، والموسـوس، والمهـووس، وغيرهـا مـن غرائـب الأمـراض، مثـل حـول العـين الواحـدة، وانسـداد الأذن بحلمتهـا، وبـروز ضرس بجـوار

الفـك الأسـفل، والرجـل ذو الثـلاث خـصي الضخمـة التـي أعاقتـه عـن السـير، فازدهـر المـكان حتـى تمـدّد لسـاحة الأحـكام، وتجاوزهـا لمـا يجاورهـا مـن الأحيـاء، وتحـوّل لمارسـتان ضخـم، تفـوح منـه رائحـة البـن المحمـص، حتـى أضحـت تشـمّ في جميـع أرجـاء مدينـة صـاد، وبالطبـع توافـد مراسـلو القنـوات، وصغـار المحرريـن، ثـم الصحفيون والفضوليـون، وعقـدت لقـاءات مبـاشرة مـع المـرضى، وسردت الحكايـات، وفغـرت الأفـواه مـن الدهشـة، وتصـدر دخـان البـن المحمـص العناويـن الرئيسية للصحـف، وسـاعات البـث الرئيسـية في التلفزيـون والراديـو، وذات صبـاح اسـتيقظ النـاس فلـم يجـدوا أثـراً لبائـع القهـوة، وتكاثـرت الإشـاعات عـن أسـباب اختفائـه، فمنهم من قـال إنـه صعـد للسـماء، ومـن قائـل بأنـه سـاح في الأرض ليشـفي قومـاً آخريـن، وتنـادى بعضهـم بـأنّ مـا حـدث قـدر مقـدر، لسـوء أعمالهـم، وسـواد قلوبهـم، وتكاثـر الجـدل حـول الأمـر، وتكاثـرت الأقاويـل حتـى صعـب حصرهـا، ثـم انشـغل النـاس فيـما يشـغلهم مـن شـؤون الحيـاة وهمومهـا، وخمـدت سـيرة الرجـل لعـدّة أعـوام، ثم سرت شـائعة بـأن بائـع القهـوة قـد عـاد، واشـترى قـصراً فخـماً في واحـد مـن أرقـى أحيـاء العاصمـة، ووقـف النـاس بـين مصـدق ومكـذب، وكلّ فريـق يقسـم عـلى صحـة ادعائـه، واشـتعلت المراهنـات بـين الطرفـين، وبلغـت ذروتهـا، ولكـن كـما شـاع الـكلام عـاد وخمـد، وعـاد النـاس للانشـغال بـما يشـغلهم عـادة، دون أنْ يعـرف مصـير بائـع القهـوة أو مـكان تواجـده عـلى الأقـل.

ازدحـام النـاس أمـام طـاولات اللّحـم الخشـبية القديمـة القـذرة، وملابـس القصّابـين المصبوغـة بالـدم، وأيديهـم التـي تلمـع مـن آثـار الشـحوم، لم يكـن يعلـم أنّـه بعـد سنوات مـن الآن، وفي يـوم الذبـح العظيـم، سـيبكون دمـاً في ذات المـكان، كعادتهـم سينقسـمون إلى فريقـين، ثـم ينقسـم الفريقـان إلى فـرق، وعندمـا تسـيل أنهـر الدمـاء سـيبكي بعضهـم ويـبرّر بعضهـم الآخـر، سـيتحدثون في التلفـاز عـن الخونـة، وعـن ثوابـت الثـورة، سـيوجهون اللّـوم لجهـات أجنبيـة تعمل عـلى زعزعـة الاسـتقرار، الـدم المسـفوح سـتلفظه الأرض كـما تلفـظ دم الأبقـار المذبوحـة، ويسـتحيل أديـماً يعـودون لوطئـه بالأقـدام، ثـم يعقـدون المراهنـات المجنونـة فوقـه، وتسـتمر عجلـة الحيـاة.

تباطـأ البصـير قليـلاً أمـام الطـاولات، وهـو يراقـب القصّـاب يقطـع اللحـم في براعـة ويزنـه، ويجـادل أحدهـم حـول السـعر، وضـع اللّحـم في كيـس ورقـي، ثـم أشـار إليـه بالاقـتراب، هـزّ رأسـه مبديـاً عـدم رغبتـه في الـشراء، ولكنـه واصـل إلحاحـه، ابتعـد عـن المـكان، حـاول تجنـب الازدحـام بالسـير عـلى جانـب الطريـق، وصـولاً لموقـف الحافـلات، متابعـاً عمليـات البيـع والـشراء التـي تعقـد في الهـواء الطلـق بنصـف وَعْيـه، ثـم يواصـل التسـكع مبتعـداً، قبـل أنْ يرفـع عينيـه مـن موطـئ قدميـه كان مـدركاً أنهـا هنـاك، كأنهـا كانـت تخطو في خاطـره، ثـم بـرزت إلى العـالم المحسـوس، أو كأنهـا ربّتـت عـلى لا وَعْيه بابتسـامتها، فرفـع رأسـه ناظـراً إليهـا، وكأنهـا كانت هنـا منـذ الأزل، في وسـط ازدحـام سـوق (كـما هـو) بضجيجـه وغبـاره وعشـوائيته، كانت

هناك، تسير وسط الناس، ولكن لا تنتمي إليهم، كأنها لا تتنفس ذات الهواء، تقترب منه وهي قادمة من الاتجاه المعاكس، تيبس في مكانه وهي تدنو منه، وكأنها طيف يسبح في الهواء، وقفت قبالته واتسعت ابتسامتها ثم دنت برأسها منه وقالت هامسة رغم ضجّة السوق:

– ترى ماذا سيقول الأب لو كان معك هنا؟

ردّ عليها متعجباً:

– الأب مَن؟

ازدادت ابتسامتها اتساعاً ثم أعادت سؤالها:

– ترى ماذا سيقول الأب لو كان معك هنا؟

قلبه يخفق ويبرز اسم الأب من غياهب الذاكرة ثم يخبو مثل ضوء شمعة تطفئها الرياح في يوم عاصف:

– الأب مَن؟

ابتسامتها مثل مدّ البحر يحتل الشاطئ ثم ينحسر ولكن آثاره تبقى

– لم لا تسأل نفسك؟

مثل نداء بعيد، ربّما التقينا في حلم ما، يأتي اسمه مصحوباً بإحساس يثقل القلب

– ومَن الأب؟

صوته كان واهناً ملفوفاً بالحيرة

– لا تثق في الذاكرة فهي خائنة.

كانت تبتعد كالخيال، هتف بها

- ولكن...

التفتت نحوه وقالت:

- لا زلت تولي ثقتك للذاكرة،

- كنت أود سؤالك عن اسمك،

- ألم أقل لك لا توليها ثقتك،

- وماذا عن...؟

وضعت سبابتها على شفتيها ثم أشارت للشمس وهتفت

- سيبدأ موسم الرقص بعد قليل.

ابتلعها الزحام ثم بدأت حبات العرق في الانعقاد على عنقه، برق الاسم في رأسه فالتفت نحوها، وقلبه يدوي كطبل ضخم، كانت تنظر نحوه في ذات اللحظة، أومأت برأسها وابتسامتها تتسع لتحتوي سوق (كما هو) كاملاً.

ردّد اسمها بصوتٍ هامس:

- طيف

كأن هاتفاً همس به في أذنه، أو كأنه موجود هناك في قاع ذاكرته وانزاح عنه ستار النسيان.

في ذلك اليوم، وفي قلب سوق (كما هو)، حين كان الأب محض اسم مجهول، بلا كيان يحدّده، أتت طيف على ذكره ثم اختفت، كان مثل مركب أنهكه البحر، واهتدى إلى شاطئ مهجور. فتحت طاقة الأسئلة على المجهول، على الظلام، فاهتزّ ثبات قدميه على

الأرض، ووطئت قدماه الفراغ.

شعر بالبرد والجوع والحيرة، البيت بعيد كأنه في الطرف الثاني من العالم، حبات الذرة في أعناق المارة جواسيس تقرأ أفكاره، وتسلمها لعقل جبار، حبات الذرة التي تهتزّ كلما عبر أحدهم بجواره، تحصي أنفاسه، ودقات قلبه، وترفع تقريرها لمجهول خلف إدراكه الواعي، ثم انتبه لوجه الاختلاف بين طيف والآخرين، كاد يصفع نفسه، حتى يصدق أنّ ما يحدث الآن حقيقة، تمنى أنْ يستيقظ، بل جاهد لأجل هذا، ولكنه كان أكثر يقظة من شمس مايو في رابعة النهار، حين أنقذته من مخالب الأمن الشعبي، كان كلّ شيء واضح، ولكنه عمي عنه، كيف حدث هذا، وما العلّة من حدوثه، كيف لم ينتبه منذ اللحظة الأولى، عندما ترى رجلاً أجدع الأنف، أو أعورَ، أو مبتور اليد، أو القدم فهذا أول ما ستراه فيه، بل سيغدو هذا النقص معلماً للتعريف به، وصفة تلازمه، نقص مثل هذا يميز حامله عن غيره، وطيف كان لها عنق معتدل، ومنتصب وخالي من أي شيء آخر، طيف التي يعرفها ولا يعرفها، والتي أنقذته في ذلك اليوم دون أنْ يفهم كيف ولماذا، والتي تحدثت عن الأب الذي يذكره ولا يذكره كان ينقصها حبة الذرة على عنقها.

(٣)

بـلاد السـين في نزاعهـا الأبـدي مـع بـلاد (العـين) حـول المراعـي المشـتركة، كثيراً مـا تسـببت في دق طبـول الحـرب بـين البلديـن. تقـع بـلاد (العـين) في الحـدود الجنوبيـة الشرقيـة مـن بـلاد السـين، وتجمعهـا حـدود طويلـة مـع الإقليـم الشرقـي، وجـزء لا يسـتهان بـه مـن الإقليم الجنـوبي، متخـذة قوسـاً يقـارب شـكل حـدوة الحـمار، لا توجـد حـدود طبيعيـة تفصـل بـين الدولتـين، فـلا توجـد سلسـلة جبليـة، أو نهـر أو حتـى مجـرى مائـي، أو أخـدود شـقّته إحـدى نوبـات الغضـب التـي أصابـت الأرض في أزمـان سـاحقة القـدم، يفصـل بـين بـلاد السـين والعـين سـلك شـائك، يمتـد متلويـاً في منتصـف سـهول منبسـطة شاسـعة مخضرة وجميلـة، تتناثـر فيهـا الأبقـار والأغنـام، ويسـمع فيهـا حـداء الرعـاة مـن الجانبـين طـوال العـام.

في موسـم الأمطـار تخضر المراعـي في بـلاد السـين، وتزهـو لتتحـوّل إلى مراعـي خصبـة، في حـين تصعب حركـة المواشي حينـما تتوغـل عميقاً في بـلاد العـين، بسـبب كثافـة الأمطـار، التـي تحيـل الأرض إلى مسـاحات شاسـعة مـن الطـين اللـزج، والمسـتنقعات والـبرك الآسـنة؛ فتصعـب

الحياة على الرعاة العينيين، وقطعانهم المكوّنة من مئات الأبقار، والجاموس بقرونها الطويلة المنحنية، فيفر الرعاة من هناك إلى بلاد السين، عبر خلق فتحات في السلك الشائك، دافعين بأبقارهم نحو مراعي بلاد السين المخضرة، ويحدث العكس في فصل الجفاف، فتصفر الأعشاب، ويشحّ المرعى كلما توغلت غرباً وشمالاً في بلاد السين، فيلجأ السينيون لاستخدام ذات الخروق في السلك الشائك، والرعي بأغنامهم بعيداً في المراعي الشاسعة الكثيفة في بلاد (العين)، لعشرات السنين ظلّت القبائل الحدودية بين البلدين تقوم بهذا الفعل، بل إنْ حركات الترحال المتبادل وجدت قبل وجود السلك الشائك، وبلاد السين والعين نفسهما، فلو نظرت للسيني والعيني على طول الشريط الحدودي بين البلدين، لوجدتهم يحملون نفس السحنات، ويرتدون ذات الأزياء، ولهم نفس العادات والتقاليد في الزواج والموت والولادة، وغيرها من تفاصيل الحياة، بل لو رأيت العيني بعيداً عن أبقاره، والسيني بعيداً عن أغنامه، لما استطعت التفريق بينهما، من شدّة التقارب الذي يقترب من التماثل، بعيداً عن هذه الفذلكة التاريخية، فإنّ حركة الانتقال الروتينية بين الحدود في فترتي الجفاف والخصب، لا بُدّ أنْ يتبعها احتكاك، ونزاعات وخصومات لتقاطع المصالح الفردية، وتعارضها في أحايين كثيرة، بل قد تصل إلى القتال والقتل في أوقات نادرة، حين تتسع رقعة الخلاف، ولكن ظلّت تلك الحوادث فردية، ويتم حلّها بواسطة العقلاء من الجانبين،

عن طريق دفع الغرامات لتظلّ العلاقة ودية إلى حدٍّ كبير، تشوبها أحياناً خلافات يتمّ حسمها سريعاً قبل أنْ تتفاقم.

كلُّ هذا كان جيداً حتى رأت الأم الرؤوم، أنّ دخول العيني بأبقاره إلى بلاد السين، يؤدّي إلى إنهاك المرعى، لأنّ الأبقار العينية أكثر قدرة على التهام العشب من الأغنام السينية، التي ترعى في بلاد (العين) في فصل الجفاف،كما أنّ هذا الفعل فيه انتهاك واضح لسيادة السينيين على أراضيهم، والرؤية المثلى لدى الأم الرؤوم هي تنظيم أمر دخول العينيين إلى بلاد السين، مع دفع رسوم معلومة من أجل رعاية أبقارهم، كما أنّ الأم الرؤوم ستقوم بفرض حراسة بطول الحدود مع بلاد العين، لمنع تسلل الرعاة إلى البلاد من دون دفع الرسوم المعلومة.

لم تبد الحكومة في بلاد العين حراكاً مضاداً، وهي تتابع نشر القوات السينية بطول الحدود المشتركة بين البلدين قبل موسم الأمطار، وحين حاول العينيون اختراق الحدود بأبقارهم كما اعتادوا كلّ عام، صدّتهم القوات السينية في حزم، مما أدّى لنشوب بعض المعارك الصغيرة، بين القوات السينية، والرعاة العزل إلا من السلاح الأبيض، وتمّ حسمها سريعاً بواسطة القوات السينية، فهللت الوسائط الإعلامية بطول بلاد السين بالنصر المؤزر للقوات السينية الباسلة في وجه أعداء الوطن، جاء ردّ بلاد العين سريعاً، بنشر قواتها بطول الحدود المشتركة بين البلدين، بغرض حماية الرعاة العينيين، فتوترت الأجواء بين البلدين، وإنْ

لم تحـدث اشـتباكات بـين الجيشـين، وظـلّ الجميـع في حالـة ترقـب متبـادل، عندمـا حـلّ فصـل الجفـاف، منعـت القـوات العينيـة الرعـاة السـينيين مـن الدخـول إلى أراضيهـا مـن بـاب التعامـل بالمثـل، وانقضى ذلـك العـام بنفـوق عـدد كبـير مـن الأبقـار العينيـة بسـبب الأمطـار الكثيفـة، وقلّـة المرعـى وصعوبـة الحركـة، وسـط المسـتنقعات والـبرك، كـما نفقـت الأغنـام السـينية أيضـاً، بسـبب الجفـاف وقلّـة المرعـى، تنـادى العقـلاء بـين البلديـن بغـرض دفـع الـضرر الواقـع عـلى الشـعبين مـن جـراء الخـلاف، ودعـوا إلى فتـح الحـدود بـين البلديـن، والاسـتماع لنـداء العقـل، شرعـت الحكومـة العينيـة والأم الـرؤوم في عقـد اجتماعـات وحـوارات لا تنتهـي إلا لتبـدأ مـن جديـد، وتتجـاوب الوسـائط الإعلاميـة بـين البلديـن حسـب مسـار المفاوضـات، فتميـل نحـو الدعـة والمهادنـة حـين تهـدأ وتـيرة المفاوضـات، ويلـوح قـرب الاتفـاق في الأفـق، وتعـود لترتفـع نـبرة الحديـث، وتراشـق الاتهامـات، حـين تـزداد شـقّة الخـلاف بـين البلديـن، وتفننـت الوسـائط الإعلاميـة في بـثّ السـخرية، والسـخرية المضـادة، وسـاهمت في زيـادة الشـقّة بـين بـلاد العـين وبـلاد السـين، فتكاثـرت القصـص السـاخرة التـي تسـخر مـن السـينين في بـلاد العـين، ونعتهـا بدولـة الحمـير، التـي تحكمهـا الحمـير، كـما تفشّـت النكـت التـي تسـخر مـن العينيـين في بلاد السـين، ونعتهـم بـروث الأبقـار وتهـم الخـور والجبـن، كـما أنّ الصحـف لم تكن تخلـو مـن كاريكاتـير يسـخر مـن الدولـة الأخـرى بشـكل يومـي، فاتسـعت رقعـة الخـلاف بـين البلديـن حتـى صعـب رتقهـا. المنـع

التـام للانتقـال بـين البلديـن أدّى لقطـع أواصر القربـى بـين العينيـين والسـينيين عـلى طـول الحـدود، كـما أنّ الرعـاة في البلديـن كانـوا هـم الخـاسر الأكـبر، بفقـدان عـدد كبـير مـن الماشـية بسـبب منـع الانتقـال بـين الحـدود، ممـا أدّى لخسـائر ماديـة مـن الصعـب تحمّلهـا، ربّـما كان لهـذا الـتردي المـادي، وربـما للشـحن المتواصـل مـن الوسـائط الإعلامية بـين البلديـن لـكلا الشـعبين، أو ربّـما لغيـاب صـوت العقـل الـذي كان يحكـم العلاقـة بينهـما عـلى طـول الحـدود، وربّـما لـكلّ هـذه الأسـباب مجتمعـة وقـد يكـون لسـبب آخـر، في ظـلّ الكثـير مـن التفاصيـل التـي تغيـب في ظـلّ هـذا الوضـع الحـدودي المعقّـد، فقـد تحوّلـت أواصر القربـى والمحبـة والمجـاورة لسـنوات طويلـة، إلى بغـض أسـود قاتـم السـواد، فـما عـاد السـيني راعـي الأغنـام يطيـق العينـي راعـي الأبقـار، ولا تقـترن سـيرته إلا بالسـباب والـذم، ومـا عـاد العينـي راعـي الأبقار يتذكـر للسـيني راعـي الأغنـام، إلا نزاعاتهـما القديمـة، والدمـاء التـي سـالت بينهـما سـابقاً، وتسـامحه الـذي فـسّره السـيني ضعفـاً، فحمـل كلّ شـعب للآخـر مـن الضغينـة والكـره، مـا يكفـي لإشـعال حـرب لا تطفـأ نارهـا بـين يـوم وليلـة، عندما وصـل الطرفـان إلى اتفـاق يفضي بتنظيـم دخـول الرعـاة بـين البلديـن، كانـت قـد مـرّت عـدّة سـنوات عـلى التفـاوض خلفـت وراءهـا آثـاراً ماديـة يصعـب علاجهـا، وآثـاراً نفسـية أكثـر عمقـاً، أدّى الاتفـاق لانسـحاب قـوات البلديـن، مـع بقـاء قـوات رمزيـة لتنظيـم الاتفـاق المـبرم، ولكـن كلّ دولـة قامـت بتسـليح الرعـاة الذيـن ينتمـون إليهـا بالسـلاح النـاري، ليـذودوا عـن أنفسـهم

عنـد الحاجـة.

لم يمـضِ وقـت طويـل حتـى حـدوث أول نـزاع بـين العينيـين والسـينيين عـلى الحـدود، حيـاة الرعـي بطبعهـا لا تعـترف بالقيـود، والماشـية والأغنـام لا تجيـد التعامـل بالجـوازات والتأشـيرات، ومـا يتبعهـا مـن تعقيـدات، ولكنهـا تعـرف لـون العشـب الأخـضر ومذاقه، وهكـذا فعلـت الأغنـام السـينية وهـي تحـرم مـن الحشـائش العينيـة، بسـبب البيروقراطيـة، وبـطء الإجـراءات المصاحبـة لدخـول الأغنـام عـبر المنافـذ المشروعـة، قلـق الرعـاة عـلى أغنامهـم دفعهـم لخـرق السـلك الشـائك مـرّة أخـرى ودفـع أغنامهـم للدخـول، لا أحـد يعلـم مـا حـدث عـلى وجـه الدقّـة، فالحـدث نفسـه لم يخلـف شـهوداً محايديـن لـيرووا الحادثـة، كـما هـي بـلا زيـادة ولا نقصـان، ولكـن بخلـق فرضية أقـرب للواقـع، فيمكـن تخيـل المشـهد بالرجـوع إلى أصـول الخـلاف بـين الشـعبين، والتعقيـدات التـي شـابت العلاقـة بينهـما، فـلا بُـدّ أنّ أحـد الرعـاة العينيـين كان يمـرّ صدفـة، فشـاهد الرعـاة السـينيين وهـم يحاولـون التسـلل عـبر ثغـرات السـلك الشـائك فهتـف بهـم:

- ممنوع العبور من هنا أيها الحمار السيني !

فردّ عليه أحد الرعاة السينيين سبابه قائلاً:

- وهل تستطيع منعنا أنت يا روث البقرة العجوز؟!

تحدّوه بأنّهـم سـيعبرون ولـو بالقـوّة، وواصلـوا دفـع أغنامهـم داخـل الأراضي العينيـة في تحـدٍّ صـارخ للعينـي الموتـور. ليـس مهـماً مَـن الـذي بـدأ في إطـلاق النـار، ولكـن المحصلـة كانـت مـوت عـدد مـن الأغنام،

وإصابة راعيين سينيين بإصابات متفاوتة، وموت الراعي العيني.
أدّت الحادثة لانهيار السلام الهشّ بين الدولتين، واشتعال الوضع من جديد، وحشد للجيوش على الحدود، العينيون طالبوا بتسليم الرعاة القتلة، كما أطلقوا عليهم، في حين دافع السينيون بأنّ الأمر كان دفاعاً عن النفس، وكان على الراعي العيني إبلاغ السلطات المختصة، بدلاً من إطلاق النار على الرعاة، أول إجراء اتخذه العينيون، هو غلق المنافذ الرسمية لعبور الرعاة، ثم أتبعوه بترصد المنافذ العشوائية، والتي قام الرعاة بفتحها بطول السلك وإغلاقها جيداً، كما تمّ تشديد الرقابة وزيادة عدد القوات بطول الحدود، وردّ السينيون بذات الأفعال، وعادت الوسائط الإعلامية لذات النبرة القديمة، وتبادل الاتهامات والسخرية، والسخرية المضادة، استمر الوضع على ما هو عليه لفترة طويلة، فظلّت العلاقة بين بلاد العين وبلاد السين متوترة، لا هي الحرب قاضية، ولا هي سلم يريح الناس، كما تمّ تقليل التمثيل الدبلوماسي إلى الحدّ الأدنى بين الدولتين الجارتين، وتمّت عملية استقطاب واسعة للدول المجاورة، بقصد تدعيم الموقف لكلا الجارتين اللدودتين.
ما حدث كان له أثره على بلاد السين بشكل عام، ولم يتوقف عند الحدود مع بلاد العين فقط، التغيير الأول كان في ارتفاع أسعار اللحوم الحمراء بكلّ أنواعها، بسبب نفوق الأغنام في الإقليمين الشرقي والجنوبي، لقلّة المرعى، كما أن وقف استيراد لحوم الأبقار من بلاد العين، كان له أثر قوي، حيث اضطرت الأم الرؤوم

لاستيراد لحوم الأبقار من بلدان بعيدة بتكلفة أعلى، اتّسعت موجة الغلاء بعد ذلك، لتشمل الأعلاف الجافة، بعد اضطرار الرعاة لتغذية الأغنام منها، مما تسبب لاحقاً في أزمة الأمباز الشهيرة، التي أثرت على قطاع الحمير الأكثر أهمية في بلاد السين، وبدأ أنّ الدولة في طريقها إلى أزمة اقتصادية طاحنة.

الإعلام شرع في بثّ التلميحات الخجولة، منوهاً للضرر الكبير على الإنسان من تناول اللحوم الحمراء، وتسببها المباشر في ارتفاع نسبة الدهون الضارة في الجسم، كما أنّها تسبب داء النقرس المزعج، لدورها المباشر في ارتفاع نسبة الأملاح الضارة في الدم، اتضح أنّ التوعية بمخاطر اللحوم الحمراء لم تكن مجدية بشكل كافي، فأصدرت الأم الرؤوم عدّة قرارات للحدِّ من تناول اللحوم الحمراء، فتمّ وضع ضريبة إضافية على لحوم الأبقار المستوردة، ولحوم الضأن، كما تمّ تشديد الرقابة على الذبح العشوائي، والحدّ منه، وحصر الذبح في المذابح الرسمية، والقرار الأكثر تأثيراً كان القرار بعدم مجانية علاج الأمراض المرتبطة طبياً بتناول اللحم الحمراء، مثل تصلُّب الشرايين، وارتفاع نسبة الكولسترول، وتمّ إضافة مرض ارتفاع ضغط الدم، والنقرس، والبول السكري للقائمة لاحقاً، الإعلام الرسمي كان يتشدق بمجانية العلاج في عموم بلاد السين، لذا فإن التلويح بعدم مجانية علاج الأمراض المرتبطة باللحوم الحمراء، كان له أثر كبير في قلّة الإقبال عليها، مما أدّى أخيراً إلى تدني أسعارها إلى حدٍّ معقول، ولكن اجتاح الغلاء

سـوق الدواجـن والأسـماك بسـبب شـدّة الإقبـال عليهـا.
الأثـر الثـاني عـلى السينيين، كان في فـرض الخدمـة العسـكرية في عمـوم بـلاد السـين، لـكلّ مَـن بلـغ ثمانيـة عـشر عامـاً، وذلـك بغـرض الدفـاع عـن البـلاد مـن التهديد المبـاشر لبـلاد العين، كـما أعلنـت الأم الـرؤوم، في حقيقـة الأمـر كانـت الخدمـة العسـكرية موجـودة في بـلاد السـين، ولكـن كانـت تنفـذ بشـكل مختلـف حيـث يـوزّع كلّ فـرد عـلى حسـب تخصصـه في الدراسـة الجامعيـة، فيـوزّع الطبيـب عـلى المستشـفيات العسـكرية، والمهنـدس في الإنشـاءات العسـكرية، ويـصرف القانونيـون وخريجـو الاقتصـاد وغيرهـا مـن العلـوم النظريـة، في تسـيير دولاب العمـل الإداري، في إدارات الأم الـرؤوم حسـب الحاجـة، أمـا الذيـن لم يدرسـوا الجامعـة، ينضمـون إلى الجيـش كمجنديـن لفـترة لا تزيـد عـن ثلاثـة أعـوام، ولكـن التغيـير الـذي حـدث الآن لم يعـد يـولي اهتمامـاً بالتخصـص الـذي درسـته، فـكلّ مَـن بلـغ الثمانيـة عـشر عامـاً يلتحـق بالجيـش فـوراً، وكذلـك الخريجين بغـض النظر عـن التخصص، كـما تمّ فـرض الخدمـة العسـكرية المفتوحـة، بحيـث لا تحدّد فـترة زمنيـة معينة، ولكنـك تـؤدّي التدريـب العسـكري، وتظّـل متأهبـاً لاسـتدعائك في أي لحظـة، أتـى القـرار مصحوبـاً بفـرض قانـون الطـوارئ في عمـوم البـلاد، مـع تهديـدات صارمـة بإيقـاع عقوبـات صارمـة للمتهربـين من الخدمـة العسـكرية، بـل قـد يصـل الأمـر للاتهـام بالخيانـة العظمـى، في هـذا الوقـت الحـرج الـذي تحتـاج فيـه البـلاد لبسـالة أبنائهـا كـما أعلنت الأم الـرؤوم.

سرعان ما شرعت الأم الرؤوم في إرغام الشباب على الالتحاق بمعسكرات التدريب، ثم اتسع الأمر ليشمل كلّ قادر على حمل السلاح، بغض النظر عن عمره أو قضائه للخدمة العسكرية سابقاً من عدمه، بدأت سيارات الشرطة، وسيارات الأمن الشعبي، في القبض على كلّ مَن تراه قادراً على حمل السلاح، وإرساله رأساً إلى معسكرات التدريب، فتمّ إنزال الناس من المواصلات، ومطاردتهم في الأسواق، والقبض عليهم في الطرقات، ثمّ الزجّ بهم في معسكرات التدريب التي تمّ إنشاؤها على عجل، فتمّ القبض على العمال، والموظفين، وحتى الطلاب بحقائبهم المدرسية، كما تمّ القبض على التجار من متاجرهم، والحرفيين من ورشهم، بمختلف أنواعها، وفي مدّة وجيزة انتشر الزي العسكري في الطرقات، بحيث أصبح اللّون الأخضر هو اللّون الغالب في طول البلاد وعرضها.

المجندون حديثاً تم إرسالهم إلى الحدود الجنوبية الشرقية، في دفعات متتابعة لحراسة الحدود، خشية الهجوم من قِبل العينيين على بلاد السين في أي لحظة، وتمّ تحويل البلاد إلى ثكنة عسكرية، وأضحت القنوات التلفزيونية تبث البيانات والموسيقى العسكرية الملهبة للحماس طوال اليوم، مع برامج مخصصة لتمجيد السينيين بتاريخهم المعروف في التضحية والفداء، والدفاع عن الأوطان، والتقليل من شأن العينيين واتهامهم بالخور والجبن والفرار حين يحمى الوطيس.

في ذلـك النهـار القائـظ مـن نهـارات بـلاد السـين الـذي تعلـن فيـه الشـمس انتصارهـا عـلى الحيـاة، ويرفـع كلّ نابـض رايـة الاستسـلام، ويفـر بحثـاً عـن ظـلّ يتفيـأه، كان البصـير يقطـع ذات الطريـق الـذي تنـازل فيـه عـن فتاتـه للضابـط، وفي ذات المـكان الـذي وقـف فيـه مودّعـاً فتاتـه بابتسـامة متخاذلـة وتلويـح جبـان باليـد، كانـت ترتكـز سـيارة تابعـة للأمـن الشـعبي بألوانهـا المموّهـة، تظاهـر بأنّـه لا يراهـا، وهـو يعـبر الطريـق مـن الجهـة الأخـرى، مربّتـاً عـلى ضمـيره بـأنّ مـا حـدث كان خارجـاً عـن إرادتـه، وأنّ مـا قـام بـه هـو عـين العقـل، تنهّد وهـو يبتعـد عـن المـكان بخطـوات سريعـة، تـردّد للحظـة وهـو يسـمع أحدهـم ينـادي، ولكنـه قـرّر مواصلـة السـير قبـل أنْ يتكـرّر النـداء بصـوت أعـلى ولهجـة أشـد صرامـة:

– أنت هناك

التفـت نحـوه وقلبـه ينبـض في عنـف راسـماً عـلى وجهـه ابتسـامة بريئـة وفَـرد الأمـن يشـير إليـه بالاقـتراب

– بطاقتك الشخصية

ناولـه إياهـا فطالعهـا بملامحـه الجامـدة كأنهـا قُـدت مـن صخـر، ثـمّ أرجعهـا إليـه وقـال بصـوت صـارم عـالٍ:

–هل أديت الخدمة العسكرية؟

أومأ البصير برأسه قبل أنْ يؤكّد:

– بالطبع أدّيتها؛ وإلا ما كنت موظفاً في وزارة المعارف.

– هل لديك ما يثبت تأديتك للخدمة العسكرية؟

أسقط في يد البصير وظهر على وجهه القلق:
- هل أجرؤ على الكذب أمام فَرد من الأمن الشعبي؟
- لا تجادل، هل لديك ما يثبت أداءك للخدمة العسكرية؟
كان يتحدث بصبر نافذ فلاذ البصير بالصمت
أمسك فَرد الأمن بذراعه ودفعه نحو السيارة قائلاً:
-دعنا نتحقق من هذا لاحقاً.
تفاجأ حين وجد السيارة مزدحمة بالركاب، موظفون وطلاب وعمال وغيرهم، كانت نظرات القلق والخوف تعمّ المكان، يتبادلونها فيما بينهم بحثاً عن طمأنينة مفقودة، تحركت السيارة مبتعدة عن المكان، لتتوقف بين الحين والآخر، فيدفع بأحدهم إلى جوفها، حتى خرجت من العاصمة صاد وسلكت طريقاً ترابياً، الفتى الذي لم يتجاوز خمسة عشر عاماً بدأ في العويل، نظر الجميع إليه في جمود ثم تجرأ جاره وربّت على كتفه مهدئاً، نهره فَرد الآمن الذي يقف منتصباً عند الباب، ناهياً إياه عن البكاء، كتم الفتى الخائف بكاءه، تجنب الكل النظر إليه كأنه غير موجود، وكذلك النظر إلى فَرد الأمن في مؤخرة السيارة، غاص كلّ واحد منهم في أفكاره الخاصة، تشاغل البصير بمتابعة حبات الذرة المتأرجحة في أعناقهم، كانت حبة الذرة الملتصقة بعنق الفتى الخائف تتضخم أمام عينيه، ويكبر حجمها، من الأوقات النادرة التي يتابع فيها تضخم حبة الذرة أمام عينيه، كانت الحبة تشيخ وتزداد التجاعيد على سطحها، كأنها خاصة بسبعيني هرم، وليس لمراهق صغير،

نظـر إلى وجهــه الــذي ســحبت منــه مــاء الحيــاة، واســتبدلت بالقلــق والخــوف، شــعر بالشــفقة عليــه، وودّ لــو يســتطيع مســاعدته، تخيّــل نفســه يوقــف الســيارة بالقــوّة، يــضرب أفــراد الأمــن ثــم يأمــر مــن معــه بالفــرار، ويمســك بيــد المراهــق الصغــير ويفــران معــاً، عائديــن إلى صــاد آمنــين، ابتســم مــن خيالــه وخيبتــه، شــمل البقيــة بعينيــه، تفاوتت الســحنات والأعــمار، ووحّدهــم القلــق والخــوف، كانــوا كثــر، لــو قارنهــم بفــردي الأمــن في مؤخــرة الســيارة، فإنّهــم يســتطيعون الإطاحــة بهــما في لحظــة لــو اتفقــوا عــلى ذلــك، ولكــن كلّ واحــد منهــم كان يقبــع داخــل جزيرتــه المعزولــة، ويفكــر في تبعــات الكارثــة التــي حاقــت بــه، توقفــت الســيارة فجــأة، وقفــز فــردا الأمــن منهــا، ثــم فتــح أحدهــم بــاب الســيارة، آمــراً إياهــم بالنــزول، تدافعــوا عنــد البــاب، بعــد نــزول البصــير شــمل المــكان بعينيــه، الخــلاء القفــر الشاســع، الثكنــات الصغــيرة بلونهــا المصفــر الباهــت وطرازهــا القديــم، ثــم عــدد كبــير مــن العســاكر بأزيائهــم المموهــة الشــبيهة بلــون الــتراب، ركــض مــع الجمــع وفَــرد الأمــن يأمرهــم بصــوت صــارم، اصطفــوا أمــام مكتــب ينتصــب وحيــداً، تفصلــه عــن الثكنــات ســاحة خاليــة مســتوية، تظللــه مظلّــة متهالكــة توشــك عــلى الســقوط، تمّــت عمليــة التســليم والتســلم بــين فــردي الأمــن والضابــط في سلاســة، أكّــد فــرد الأمــن أنّ عــدد المجنديــن ســتة وثلاثــون مجنــداً ثــم انــصرف هــو وزميلــه لا يلــوون عــلى شيء.

تبــادل المجنــدون الحلاقــة بأمر مــن الضابط الــذي لاذ بالمكتــب، وتركهم

تحت حراسة عدد من العساكر، لسوء حظّ البصير لم يكن حلاقه جيداً، فخلف في رأسه عدداً من الجروح، ونتفاً من الشعر، وكثيراً من الألم، وقتها كانت الشمس في طريقها للمغيب، فتمّ نقلهم إلى الساحة، وتسلميهم ملابس التدريب، وتسجيل معلوماتهم كاملة، ظنّ البصير أنّ هذا مجرد كابوس، سيستيقظ منه سريعاً، ولكن الكابوس استمر ولم ينته، ليلة طويلة قضاها في الركض بين الثكنات والساحة، يكاد رأسه ينفجر من الصداع، وعيناه خابيتان بسبب النعاس، وظهره متصلب، وكلّ خلية في جسده تئن منفردة، والعساكر يستلذون تعذيبهم بالنداءات المكرّرة، التي لم يكن أحد يفهمها، فيركض الجميع في سرعة خوفاً من مغبة التأخير، كلّ واحد من العساكر يحمل عصاً غليظة، يلهب بها ظهور المتأخرين في الاستجابة للأوامر المبهمة غير المفهومة، استمرت حمى الركض حتى الساعات الأولى من الصباح، عندما أسند البصير رأسه للجدار، داخل الثكنة لم ينتبه لنفسه وهو يذهب في النوم، ثم استيقظ على صفارة قوية مرعبة قبل شروق الشمس، شعر كأنه يحلم، والجميع يتراكضون من حوله داخل الثكنة، ثم تذكّر كل ما حدث دفعة واحدة، ركض مع الجمع وعظامه تكاد تتفتت من الوجع، اصطفوا في الساحة، وملامحهم تنبض بالتعب والقهر، أشار إليه العسكري بالتقدّم، وعندما دنا منه أمره بالذهاب إلى مكتب الضابط، ركض متعثراً نحو المكتب، انتصب واقفاً وأدّى التحية بشكل عشوائي، لم يمهله الضابط كثيراً، أشار نحو السيارة

التـي تقـف بجـوار المكتـب، أمـره أن يصعـد إلى ظهرهـا المكشـوف، قفـز إلى ظهـر السـيارة وهـو يتابعهـم يتراكضـون في السـاحة، الفتـى المراهـق كان يلتفـت بـين الفينـة والأخـرى ناظـراً نحـوه، حـاول النظـر إلى داخـل الكبينـة الأماميـة، ولكـن التظليـل المعتـم حجـب عنـه الرؤيـة، يبـدو خيـال امـرأة تجلـس هنـاك، أو رجـل بشـعر طويـل عـلى الأقـل، ازداد حـيرة، لم يفهـم مـا يحـدث ولـن يجـد مَـن يـشرح لـه، فجلـس قابعـاً في انتظـار المجهـول، بعـد فـترة قصـيرة ركـب عسـكريان بجـواره في ظهـر السـيارة المكشـوف، ثـم أتـى عسـكري آخـر يبـدو أنّـه السـائق وسرعـان مـا انطلقـت السـيارة مبتعـدة عـن معسـكر التدريب، الفضـول والخـوف كادا يقتـلان البصـير ولكنـه لم يجـرؤ عـلى السـؤال، العسـكريان الصامتـان كانـا ينظـران إلى المجهـول غـير عابئـين بـه، بدت ملامـح صـاد في الظهـور مـن بعيـد، لم يصـدق عينيـه والسـيارة تخـترق شـوارع العاصمـة، ثـم توقّفـت بالقـرب مـن سـاحة الأحـكام، وأشـار إليـه العسـكري بالنـزول، بـدت عليـه علامـات عـدم الفهـم، فانتهـره العسـكري في قـوّة، فقفـز مـن ظهـر السـيارة، ودنـا مـن الزجـاج وهـو يحيـي الراكـب المجهـول في الأمـام، انتهـره العسـكري مـرّة أخـرى وهو يأمـره بالابتعـاد، ابتعـد بخطـوات سريعـة خشـية أنْ يغيروا رأيهـم، كان متأكـداً أن الراكـب بجـوار السـائق لـه دور كبـير في إطـلاق سراحـه، رغـم الزجـاج المعتـم ولكنـه يـكاد يكـون متيقنـاً مـن أنهـا امـرأة. وأتتـه جـرأة مفاجئـة، اقـترب مـن نافـذة السـيارة، وألصـق وجهـه بزجاجهـا المعتـم، متجاهـلاً صيحـات العسـكري المحـذرة، ورآهـا، أضـاءت

ابتسامتها رغم قتامة الزجاج، فارتجف قلبه، كانت طيف، ملاكه الحارس التي اعتادت على إنقاذه كلّما وقع في مصيبة، ارتجف قلبه، وتراجع مبتعداً عن النافذة تلفه الحيرة والدهشة والخوف.

كانت ساحة الأحكام تضجّ بالجمهور المحتشد في واحد من مهرجانات قبض الهواء، المهرجون بأزيائهم المبهرجة وقبعاتهم الطويلة الملوّنة، وحميرهم القزمة كثيفة الشعر، يجوبون الساحة ويمازحون الصغار، نافخو البالونات كانوا يقفون عند أطراف الساحة، ويتفننون في إصدار صوت الطفل الباكي من أفواه البالونات، وسط دهشة الأطفال وفرحهم، المراجيح هائلة الحجم، التي نصبت على عجل، كانت تقذف راكبيها نحو الأعلى حتى يقاربوا قبة السماء، ثم يدنون من أديم الأرض، وسط صرخات الرعب والاستحسان، خارج الساحة اصطفت النساء، بائعات الفول السوداني المدمس، وبائعات الحلويات المنزلية المخطّطة باللّونين الأبيض والأحمر، وحلوى الحصان، وحلوى العروسة، والمخدة، وعلكة (١٠٤) بألوانها الزاهية، وطعمها اللّاذع، كما اصطف بجوارهم، بائعو الذرة المشوية، والمانجو الحامض بالفلفل الحار، والمثلجات ذات اللّون الوردي والطعم السيئ، تحلّق الأطفال والكبار حول البائعات، مع ضجيج مكبرات الصوت التي تنادي على مختلف الألعاب والأطعمة، ومزامير المهرجين، والجوقة الموسيقية العسكرية، التي تعزف منذ الصباح الباكر.

في وسط هذا الخضم والازدحام كان البصير يجلس وحيداً، بحث في

ذاكرتـه عـن سـبب قدومـه إلى هنـا، آخـر مـا يذكـره أنّـه كان يتصفـح في رواية مـا ثـمّ وجـدت نفسـه في وسـط المهرجـان، عندمـا التفـت يمينـاً أدرك السـبب وهـو يراهـا قادمـة نحـوه، جلسـت إلى جانبـه مـن دون مقدمـات، ابتسـامتها كانـت جميلـةً وعيناهـا مألوفتـان، كأنـه يعرفها ولا يعرفهـا، (طيـف) أشرق الاسـم في ذاكرتـه كشـمس صغـيرة، أشـارت مبتسـمة نحـو أكـواز الـذرة المشـوية ثـم أسـندت فكّهـا الرقيـق عـلى كفّهـا وهـي تحـدق في عينيـه، ارتبـك وهـو يناولهـا واحـداً، قلّبته سـاخناً بـين يديهـا، رفعـت شـعرها قليـلاً ولامسـت بـه عنقهـا ثـم شرعـت في الأكل

- أين حبة الذرة خاصتك؟

نظرت نحوه في تساؤل فأشار إلى عنقها ثم قال:

- حبة الذرة التي تلتصق بعنقك.

نظـرت نحـوه في غمـوض، انـزوت الابتسـامة مـن شـفتيها وحمـل وجههـا تعبـيراً لم يفهمـه ولكنـه أقـرب للحـزن

- لا يملك أحداً حبة ذرة على عنقه.

- أزحت شعرك لتنبهيني إلى عدم وجودها.

هـزّت كتفيهـا وانقشـعت الغمامـة القاتمـة عـن وجههـا ثـم ضحكـت قائلـة:

- لابد أنك تتخيّل أشياءً غريبة

نهضت واقفة وحيّته مبتعدة ملوّحة بكوز الذرة المشوية، هتف بها

- تمهلي قليلاً!

ردّت وهي تبتعد:

- لا تتعجل ستدرك كلّ شيء في وقته.

تابعها وهي تختفي وسط زحام المهرجين ونافخي البالونات، ثم استيقظ من نومه، كانت مروحة السقف تصدر صوتاً رتيباً، والرواية مستلقية على صدره وكأنها تشاركه الحلم. شعر بالتعجب، كان الأمر يبدو حقيقياً، لا زال يشم رائحة عطرها، ليس معتاداً على الأحلام، ولكن أحلامه على ندرتها لا تكون بهذا الوضوح، مجرد أحداث متناثرة لا رابط بينها، ولكن تتابع الحلم هنا كان منطقياً، بل وكأنه يحمل رسالة ما، هل تكون هذه رؤيا وليس حلماً، لا يدرك كيف تكون الرؤيا ولكن الأحلام لا تأتي بهذه الطريقة، يذكر جيداً أنها قالت «لا تتعجل ستدرك كلّ شيء في وقته».

طيف التي نبتت من العدم لتنقذه مرتين، ورآها صدفة في ازدحام سوق (كما هو)، بدون حبة الذرة المتأرجحة على عنقها، تتسلل الآن إلى أحلامه، وترسل إشارات تثير حيرته وخوفه، كثيراً ما سأل نفسه عن حبة الذرة ودورها في حياة الناس، وتساءل أكثر عن سبب رؤيته لها وجهل الآخرين بها، بل كثيراً ما أغرقته الحيرة بسبب تأرجح حبته، ودلالها، ومقتها للعرق، وإجباره على الرقص حين يعن لها، وثباتها في أعناق الآخرين كأنها جزء منهم، بل وإنكارهم لها، وجزمهم بعدم وجودها، ثم تأتي طيف في صدفة أقرب للتدبير، لتطرق باب الحيرة من جديد، وتفتحه على مصراعيه وتدعه نهباً للأسئلة والاحتمالات.

عندما أعلنت الأم الرؤوم عن محاولة انقلابية فاشلة، بمساعدة دولة جارة لبلاد السين، علم الكلّ أنّ الدولة المقصودة هي بلاد العين المجاورة، انتشرت قوات الأمن الشعبي في الطرقات، وتمّ حظر التجول بعد منتصف اللّيل، كما انطلقت حملة اعتقالات واسعة طالت عدداً كبيراً من السياسيين والعسكريين السابقين، ورجال الأعمال، طرقت الأبواب ليلاً، وألقي المقبوض عليهم في سيارات الأمن الشعبي ذات اللّون المموّه، ثم ابتلعهم ظلام الليل، انتشر الخوف في بلاد السين، والشائعات تختلط بالحقائق، فلا يعرف أين الخبر الصحيح من الخبر المفبرك، قال الناس إنّ هؤلاء الخونة تمّ تجنيدهم مبكراً بواسطة بلاد العين، وزرعهم وسط الناس لأجل معلوم، ولكن يقظة الأم الرؤوم استطاعت الوصول إليهم، تحدثوا عن تفجيرات تمّ التخطيط والإعداد لها، في عدّة مناطق حيوية في العاصمة صاد، من أجل بث الفوضى، تحدث آخرون عن عدم تصديقهم لما يقال، وأن المقبوض عليهم مجرد معارضون للأم الرؤوم، ولكن تم إخماد صوتهم الخافت سريعاً، بحجة أنّ المعارضة لا تعني خيانة الوطن، التخابر مع دولة عدوة لبلاد السين خيانة عظمى، تحججوا بأنّ بعض المقبوض عليهم لديهم تاريخ بطولي، ويعتبرون رموزاً لبلاد السين، ولكن الحديث لم يكن مجدياً، فقد كان الرّد جاهزاً، أولئك ممثلون بارعون خدعونا لبعض الوقت، ولكن الآن تبين للكلّ قبحهم وتدليسهم، على الأم الرؤوم يقع الدور في حماية البلاد من مثل

هـؤلاء، التقطـت الوسـائط الإعلاميـة القفـاز، وبـدأت في البحـث في تاريـخ المقبـوض عليهـم، وتقليـب دفاترهـم القديمـة فتحدثوا عـن كلّ حادثـة قـد تشـين إلى سـمعة أحدهـم، وتلصـق بـه صفـة الخيانـة، كتبت الصحـف عـن مواقفهـم السياسـية القديمـة، مـن زاويـة رؤيـة جديـدة، وتحدثـت القنـوات التلفزيونيـة، عـن التهـرب الضريبـي مـن التجـار الذيـن يدّعـون الوطنيـة، كـما أكّـدوا تخابـر العسـكريين مـع مخابـرات دولـة أخـرى، بـل اهتمـوا بنقـل معاركهـم الطفوليـة مـع أقرانهـم في أول سـني العمـر، وعـدم متابعـة أحـد السياسـيين لمهرجانـات سـباق الحمـير السـنوية، ليدللـوا عـلى قلّـة انتمائـه للوطـن.

لم يقـف الأمـر عنـد هـذا الحـدّ، انتـشرت قـوات الأمـن الشـعبي متنكرة في هيئـة سـينيين عاديـين وسـط النـاس دون أنْ ينتبهـوا، تـمّ اعتقـال كلّ مَـن يتحـدث بسـوء عـن الأم الـرؤوم، أو يتـبرم مـن قانـون الخدمـة العسـكرية الجديـد، أو يتحـدث عـن أزمـة اللحـوم الحمـراء، بـل يقـال إنّـه تـم اعتقـال مَـن تحدثـوا عـن ارتفـاع درجـة الحـرارة في الصيـف، وشُـحِّ الأمطـار في الخريـف، ومَـن تمنـوا هزيمـة المـكادي في مهرجـان السـباق السـنوي، الخـوف ألجـم ألسـنة النـاس، بعـد أنْ اسـتطاع أفـراد الأمـن الشـعبي الوصـول إلى الحـوار الـذي يـدور بـين صديقـين حميمـين، أو عشـيقين متحابـين، بـل وصـل الأمـر لمعرفـة مـا يفـضي بـه الـزوج إلى زوجتـه، والقلـق الـذي تبثـه الأم لغيـاب ولدهـا، وقـال النـاس إنّ الأمـن الشـعبي قـادر عـلى إحصـاء الأنفـاس، ومعرفـة مـا تخفـي الصـدور ومـا يـزور في الأحـلام.

تستطيع أنْ تشعر بهذا وأنت تسير في الشوارع، أو تتجول في الأسواق، وفي أماكن العمل، أصبح الكلّ يتعامل بحذر مع الآخر، قلّت الثقة بين الناس، فكلّ مَن تتحدث معه قد يكون تابعاً للأمن الشعبي، مَن تظنّه صديقاً مخلصاً، أو أخاً تربطك به صلة الدم، ربّما يكون مدسوساً لنقل حديثك إلى مكاتب الأمن الشعبي، بل ظهر متطوعون على أتمِّ الاستعداد لنقل هواجسهم وشكوكهم إلى هناك، بغرض إبراء الذمة، وتأكيد الولاء للأم الرؤوم، عاشق السين كان واحداً من هؤلاء، لا بُدّ من حضوره إلى مكاتب الأمن الشعبي كلّ يوم صباحاً؛ لتأكيد ولائه لبلاد السين وللأم الرؤوم، عاشق السين رجل في منتصف الأربعينات، وموظف مدفون في وزارة الوفرة، يعمل كملاحظ لعمال النظافة في الوزارة، ولكنه في الحقيقة يهتم بكلّ تفاصيل مدير القسم المباشر، فيقوم بتوفير الصحف صباحاً، والإشراف على الشاي الخاص به، المحلى بالمحلي المخصص لمرضى السكر، كما يقوم بنقل أخبار القسم بشفافية ودقّة كاملة إلى مدير القسم، لم يكن عاشق السين يقوم بهذا الفعل بنيّة سيئة، أو بقصد الإضرار بزملائه في القسم، أو حتى من أجل الحصول على منفعة ذاتية، أو ترقية منتظرة، أو حافز مرجو، كلّ ما في الأمر أنّ هذا ما جُبِل عليه عاشق السين منذ وَعْيه على الدنيا، يشعر بالسعادة والرضا عندما يخبر رئيسه المباشر بوجود خلل ما في منظومة العمل، يعتقد عاشق السين لو أنّه غفل لوهلة قصيرة عن رصد ما يدور حوله، فسينهار

دولاب العمل دفعة واحدة، للكم المهول من العبثية التي يمارسها الموظفون أثناء ساعات العمل، فهو عادة يمتعض من مزاحهم، وأنسهم مع بعضهم، ويمتعض من تغيبهم عن العمل بداعي المرض أو غيره، بل قد يصل به الأمر عن البحث عن العلّة الحقيقية للغياب، فيتتبع الموظف ويرصد تحركاته طوعاً، من دون طلب من أحد، ولو وجد سبباً غير المرض، أو ولادة الزوجة، أو موت مفاجئ لأحد الأقارب، أو غيرها من المبررات التي يتغيب بها الموظفون، يقوم بنقل الأمر بشكل عاجل إلى مدير القسم، يتكبد عاشق السين مشقة بالغة، بل وتثقل كاهله مادياً أيضاً، ولكنه لا يستطيع التخلص منها بل لا يرغب في ذلك على وجه الدقّة، ربّما يعود هذا إلى حياته الخالية من الزوجة، والولد والأصدقاء وحتى الأقارب، رغم وصوله لمنتصف عقده الرابع، ربّما كان لتضجر مدير القسم من كثرة ما ينقله، الأثر البالغ في قراره القاضي بنقل ما يدور داخل القسم والوزارة ككلّ إلى مكتب الأمن الشعبي المجاور للوزارة، أو ربّما بسبب أنّه كان مستاءً من عدم فعالية ما يقوم به في تغيير حال الموظفين، الذين لا زالوا يتغيبون ويتسيبون عن العمل حسبما يرى، على كلٍّ، ذات صباح عرج عاشق السين بعيداً عن مدخل الوزارة، متجهاً إلى مكتب الأمن الشعبي، ومن وقتها كان مروره بالمكتب صباحاً قبل الولوج إلى الوزارة، ثم مروره به بعد نهاية العمل روتيناً يومياً لا يحيد عنه، التغيير الذي حدث في البداية كان طفيفاً، يصمت

الـكلّ حـين يدخـل إلى مكتـب مـن مكاتـب الـوزارة، أو يتبـارون في مـدح الأم الـرؤوم أمامـه، ثـم حـدث التغيـير الكبـير بترقيـة مفاجئـة لم يكـن يتوقعهـا أو ينتظرهـا، كنائـب لمديـر القسـم متجـاوزاً عـدداً مـن الموظفـين يفوقونـه سـناً وتأهيـلاً وخـبرة، وبعدهـا بـدأ عاشـق السـين في تطبيـق كل مـا يـراه مناسـباً مـن أجـل نجـاح العمـل حسـب رؤيتـه الخاصـة، فبـدأ في تحويـل القسـم إلى سـجن صغـير، أو ثكنـة عسـكرية، بتفويـض كامـل مـن مديـر القسـم الـذي منحـه كلّ الصلاحيـات، وآثر الانـزواء بعيـداً، ونتيجـة لهـذا قـلّ الغيـاب إلى نسـبة الصفـر، بـل يقـال إنّ أحـد الموظفـين قـد أتـى إلى الـوزارة بكتـف مخلـوع بسـبب حـادث سـيارة مفاجئـة، ولكنـه أصرّ عـلى الوصـول إلى الـوزارة، ليقنـع عاشـق السـين بـضرورة غيابـه بغـرض التعـافي بعيـداً عـن التقاريـر الطبيـة، التـي يعتبرهـا عاشـق السـين محـض هـراء ليـس إلا.

كان هنـاك متطوعـون آخـرون، لإيصـال كلّ شـاردة وواردة تـدور في بـلاد السـين إلى مكاتـب الأمـن الشـعبي المنتـشرة بطـول بـلاد السـين، بدوافـع مختلفـة، مثـل الحقـد والحسـد والكـره والبغـض، وربـما لاتقـاء الـشر، واسـتباق الحـوادث، فكانـت النتيجـة ازدحـام المتطوعـين أمـام مكاتـب الأمـن الشـعبي، واصطفافهـم في صفـوف طويلـة، وأضحـى مـن المعتـاد رؤيتهـم وهـم يتشـاجرون عـلى الأسـبقية في الوصـول، وعـلى أهمّيـة المعلومـات التـي سـيدلون بهـا بالنسـبة لـلأم الـرؤوم، لا بُـدّ أنّ هـذا الكـم المهـول مـن المتطوعـين قـد أثقـل كاهـل أفـراد الأمـن الشـعبي، وأرهقهـم أيـما إرهـاق، وهـم يقضـون الأيـام والليـالي في تلقي

البلاغـات، الوشـايات والنميمـة، دون أنْ يجـدوا وقتـاً لمتابعـة البلاغات نفسـها للبـت فيهـا، سـعياً لمعالجـة هـذا القصـور تـم فتـح التوظيـف في مكاتـب الأمـن الشـعبي لمئـات الشـباب، ولكـن لم يبـد أنّ هـذا الأمـر قـد أدّى لإيجـاد حـلّ جـذري للمشـكلة، التـي بـدا أنهـا تتفاقـم وتزيـد بمـرور الأيـام، فقـد أضحـى مـن المعتـاد تلقـي بلاغـات تافهـة، ولكـن مكاتـب الأمـن مضطـرة للتعامـل معهـا، مثـل تـبرز العصافـير عـلى علـم السـين العظيـم، فيسـارع أفـراد الأمـن لإنـزال العلـم وتنظيفـه وإعـادة رفعـه خفاقـاً نظيفـاً مـرّة أخـرى، أو قضـم معـزة مجهولـة خائنـة لصـورة الرئيـس البهيـة، فيسـتجيب أفـراد الأمـن في سرعـة تثـير الإعجـاب، وينزلـون صـورة الرئيـس المقضومـة ويعلقـون أخـرى أكثر بهـاءً وجمـالاً، كـما أنّ بعـض البلاغـات كانـت غريبـة أوقعـت مكاتـب الأمـن الشـعبي في حـيرة واضطـراب، فـذات مـرة بلـغ أحدهـم بـأنّ حمـار جـاره الـذي استبعد مـن أحـد السـباقات المحليـة، قـد تحـوّل إلى معـارض لـلأم الـرؤوم، لشـعوره بالظلـم والغبـن، وأنّـه ينهـق طـوال الليـل في مـوال سـباب طويـل لا يهـدأ إلا مـع شروق الشـمس، وقـد ادّعـى الرجـل فهمـه للغـة الحمـير، وموهبتـه كسـائس لم يكتشـف بعد، اسـتدعى مكتـب الأمـن الشـعبي الحـمار وصاحبـه، ولكـن صاحـب الحـمار أنكـر كلّ مـا ادّعـاه جـاره متهـماً إيـاه بالحقـد، لم يكـن هنـاك منـاص مـن الاسـتعانة بكبـار سـائسي الحمـير في العاصمـة صـاد، لمحاولـة اسـتجلاء الحقيقـة الغائبـة، ولكـن الحـمار المتهـم أعلـن صومـاً عـن النهيـق، لا يقطـع صمتـه إلا زفـرات قصـيرة، ترجمهـا السائسـون

بحاجته للطعام، وأخرى بمعاناته من انتفاخ طارئ في الأمعاء، وفي نهاية الأمر ملّ ضابط الأمن الشعبي من البلاغ ككلّ وأمر بمصادرة الحمار وترحيله إلى إسطبلات الأم الرؤوم.

لم يكن مستغرباً صدور قرار من الأم الرؤوم يقضي بإسقاط عقوبات متفاوتة وصارمة، على كلّ مَن يثبت تقديمه لبلاغ كاذب أو تافه، أو غير مهم حسبما يقيمه أفراد الأمن الشعبي، وذلك لتلافي فيضان البلاغات الذي أغرق مكاتب الأمن بطول البلاد، أدّى هذا القرار لفضّ التزاحم في مكاتب الأمن، بعد أنْ أضحى كلّ واحد أشد حرصاً على توصيل بلاغه بعد التأكد من صحته وجدواه، فأضحى الكلّ يراقب الكلّ، ويحصي عليه أنفاسه، ودخوله وخروجه وعاداته، وكلّ ما يمكن أن يدعم ذهابه لمكاتب الأمن متطوّعاً لتأكيد ولائه للأم الرؤوم، وحدبه على مصلحتها.

تنحسر أخبار الحدود السينية العينية بشكل كبير عن القنوات الإعلامية لفترات تطول أو تقصر، ثم تعود لتصدر الأنباء بعد اشتعال عراك بين الجماعتين، يخلف عدداً كبيراً من الضحايا من الطرفين، لم يكن مستغرباً ظهور جماعات مناوئة للحرب في الإقليم الشرقي، الذي يملك أطول حدود مع بلاد العين، بدأت تدعو لتهدئة الحرب، وتنمية المنطقة بدلاً من ذلك، ردّ الأم الرؤوم كان صارماً باتهامهم بالتخاذل، وعدم الوطنية، بل وصل الأمر لاتهامهم بأنهم عينيين في الأصل، وليسوا سينيين على الإطلاق، وتمّ نشر صور قادة تلك الجماعة، والمطالبة بالقبض عليهم

ومحاكمتهم، أدّى التهديد لفرارهم إلى بلاد العين، والاستعانة بالمنابر الإعلامية العينية، لدعوة السينيين في الإقليم الشرق والجنوبي لوقف الحرب ضدّ العينيين، والانفصال عن بلاد السين بدلاً عن ذلك، من أجل التنمية الحقيقية المستدامة، ورفع التهميش المتعمّد بواسطة الأم الرؤوم، والتي التقطت القفاز، وقامت بتحريض جماعات عينية، لتبني نفس الدعوة وفتح المنابر الإعلامية لها، لتوصيل صوتها للعينيين في شريط الحدود المشترك بين البلدين، بالطبع أدّى هذا لظهور تيار معارض ومؤيد للدعوات في البلدين فانقسم السينيون والعينيون إلى تيارين متماثلين، قامت بينهما تحالفات مؤقتة بسبب وحدة الهدف وتماثل الرؤى، فأضحت المعارك تقوم بين جماعة سينية بدعم عيني، وأخرى عينية بدعم سيني، فاختلط الحابل بالنابل، وقتل الأخ أخاه، والابن أباه، والخال ابن أخته، وانتشرت الفوضى بطول الشريط الحدودي، وانفرط عقد الأمن، فظهرت جماعات السلب والنهب في الإقليمين، واحتدمت حركة النزوح نحو الأقاليم الأخرى، فأنشئت معسكرات اللجوء على عجل، لاستقبال عشرات الآلاف الفارين من جماعات السلب والنهب، وتحدث اللاجئون عن المآسي التي قابلتهم بعد انفراط عقد الأمن، فتمّ الحديث عن فقد المال والولد والبيت والماشية، وعن حوادث الاغتصاب وفقد الأطفال، وانتشار عصابات تجارة الأعضاء، وبدا أنّ الرتق اتسع على الراتق.

القنوات الإعلامية في البلدين قامت بدورها كاملاً، وهي تعكس

الجانب اللا إنساني في الأوضاع المأساوية لمعسكرات النازحين في البلدين، وتتهم كلّ واحدة الأخرى بالتسبب في الوضع المضطرب في الأقاليم الحدودية، باستمالة الخونة ودعمهم من أجل خلق زعزعة أمنية، أدّت للأوضاع المأساوية في البلدين، دعوات الانفصال المطردة في الإقليمين الشرقي والجنوبي، دفعت القنوات الإعلامية لبثّ ساعات متواصلة للتراث الشعبي الخاص بهما، مؤكدة أنّ الإقليمين جزء لا يتجزأ من بلاد السين، في دعوة مضادة لما يحدث، كما قامت بدفع وتلميع وجوه من الإقليمين، في الصف الأول للحكومة كمستشارين، ووكلاء وزارات، بل ووزراء في بعض الأحيان، ولم تتوان الأم الرؤوم في خلق نزاعات وسط الجماعات الداعية للتمرّد، باستمالة عدد من قادتها بالمال وبالسلطة، مما أدّى لتشظيها بالفعل، ولكنها كانت تتكاثر مثل الأميبيا، فلا يتمّ احتواء جماعة حتى تظهر أخرى، بمطالب جديدة تتشابه أو تختلف مع الجماعة القديمة، في دائرة مفرغة من احتمالات النجاح، والوصول إلى حلّ مُرضٍ لجميع الأطراف.

في وسط كلّ هذا كانت الحالة الاقتصادية تسوء، والأسعار ترتفع، والقبضة الأمنية تزداد ضيقاً كلّ يوم على السينين بواسطة الأمن الشعبي، وترتفع نبرة الحديث، ويؤخذ بالشبهة، والجميع مستسلم، خوفاً من فقدان الأمن وانفراطه كما حدث في الإقليم الشرقي والجنوبي، أو خوفاً من بطش الأمن الشعبي، أو على الأقلّ من باب الحرص على لقمة العيش التي أضحت عزيزة، بعد تفشي

البطالـة، وغـلاء الأسـعار الجنـوني، في وسـط هـذا الأيـام الحالكـة، ارتفعـت أصـوات تنـادي بـضرب المتمرديـن بيـد مـن حديـد، قالـوا بـأن مثـل هـذه الأصـوات الشـاذة، والدعـاوي المشـبوهة لا تنتـج إلا مـن الخونـة، ولـو أفسـح لهـا مجـال لفتتـت الوطـن، وأضاعـت وحدتـه وذهبـت بهيبتـه، مـا يثـير الحـيرة، هـو تدافـع بعضهـم نحـو التطـوّع في الدفـاع عـن وحـدة الوطـن، سـارع الإعـلام للتنويـه عنهـم وإيصـال صوتهـم إلى السـينيين، ودعوتهـم لجعلهـم قـدوة لهـم في محبـة البـلاد والدفـاع عنهـا.

(٤)

ينظر من الزاوية الأخرى للنافذة، الطريق الترابي الذي يربط بين النافذة والطريق العام، تناثرت حوله بيوت متباعدة، كلّ بيت يناجي نفسه وحيداً، أكوام الرمل والطوب الملقاة بإهمال على جانبي الطريق زادته قبحاً على قبح، لم يكن الأمر كذلك منذ البداية، عندما بدأ الأمر كان الحي جديداً، وحركة العمران تسير فيه على قدم وساق، المستقبل كان يبدو مشرقاً لهذا الحي بالذات، يربط الطريق المسفلت الجديد بينه وبين وسط المدينة، أضحى المشوار بالسيارة حتى وسط المدينة يستغرق عشر دقائق على الأكثر، نشط السماسرة ووسطاء البيع وفتحت مكاتب العقار في هذا الخلاء الأجدب، ثم دارت مكينة الإعلام الضخمة، تتغنى برقي المكان والمستقبل الذي ينتظره، توافد متوسطو الدخل، وصغار الأثرياء، وابتاعوا الأراضي وشرعوا في البناء، تسارعت حركة العمران بوتيرة سريعة، وفي غضون ستة أشهر ظهر السكان في الحي وتكاثروا، ثم ظهرت النوادي، ودكاكين البقالة، محلات غسيل السيارات، محلات الكي السريع للملابس، مكاتب شركات الاتصالات بواجهاتها الزجاجية اللامعة، مطاعم الوجبات السريعة

بلافتاتها المضيئة، كلّ شيء كان ينبئ عن حي ناشئ يصلح لسكن الطبقة المتوسطة قبل حدوث الكارثة.

بدأ الأمر بشكل معتاد، ذهب رجل إلى طبيب الأسنان يشكو من ألم حاد في أضراسه، بدأ الطبيب في الكشف عليه، وفيما كان منهمكاً في الكشف، انزلق طقم أسنان الرجل كاملاً بين يدي الطبيب، كان الأمر غريباً، المريض المسجى أمام الطبيب كان مغمض العينين، وكأنه ذهب في غفوة صغيرة، في حين أن طقم أسنانه كاملاً، كان بين يدي الطبيب يقلّبه في حيرة، حكى طبيب الأسنان القصة في لقاء مباشر على القناة الرسمية فقال:

ظننت للحظة أنّ الرجل يملك طقم أسنان صناعي، عدت للبحث داخل فمه للتأكد، فعادة ما يتمّ إعادة تشكيل اللثة، لتكون أكثر تقبلاً للطقم الصناعي وتجعله أكثر ثباتاً، يجب أنْ تكون لثة ناعمة ومستوية مثل طريق معبّد في عناية، ولكني وجدت عكس ذلك، كانت آثار الأضراس على اللثّة والفراغ الذي خلفته في لحمها باقياً كما هو، كما أن الأوردة والشرايين كانت تسبح وسط لعابه، كأنها ديدان صغيرة، ببساطة لم يكن هناك مجالاً للشكّ، أنّ طقم الأسنان الموضوع في صحن الألمونيوم على الطاولة كان طقماً حقيقياً، جاء بديلاً بشكل طبيعي للأسنان اللّبنية لهذا الرجل، ما حيرني أكثر أنّه لم تكن هناك نقطة دم واحدة في فمه، من الطبيعي أنّ انتزاع طقم الأسنان كاملاً من اللثة، سيؤدي إلى نزيف حاد لو لم يتمّ تداركه في سرعة، ربّما يفضي للوفاة، ولكن فم الرجل كان ممتلئاً

باللعـاب اللّـزج الشـفّاف فقـط، لم أقابـل حالـة كهذه مـن قبـل، وعندما فتـح الرجـل عينيـه، كانـت تبـدو عليـه سـمات الراحـة، وشـكرني عـلى براعتـي قائـلاً: إنّ الألم اختفـى كأن لم يكـن، ثـم انتبـه لطقـم الأسـنان الـذي أقلبـه بـين يـدي، مـن الواضـح أنّـه لم يتقبّـل الأمـر، ولم يقتنـع بـما قلتـه، فتقـدم بشـكوى رسـمية ضـدّي عنـد المجلـس الطبـي، ثـم وصـل الأمـر للشرطـة لاحقـاً.

كانـت هـذه حادثـة عادية رغـم غرابتهـا، عندمـا تشـاهد اللّقاء سـتجزم أنّ الطبيـب يكـذب، وأنّ مـا حـدث خـلاف مـا يرويـه، ولكـن مـا تـلا ذلـك يجبرك عـلى تصديقـه رغـم غرابتـه، بعـد أربعـة أيـام مـن الحادثـة أُتي بمريـض إلى المستشـفى، لعـدم مقدرتـه عـلى تنـاول الطعـام، قالـت زوجتـه إنهـا كانـت تهـرس لـه الطعـام مثـل الطفـل الصغـير، ولكـن منـذ الأمـس لم يعـد قـادراً عـلى البلـع، كـما أنّـه فقـد أيضـاً القـدرة عـلى الـكلام، تـمّ حجـز المريـض بالمستشـفى، وحـاول الطبيـب مـدّه بأنبوب التغذيـة، ولكـن حلقـه كان مسـدوداً بشـكل كامـل، وكأن جـدار مـن الأسـمنت قـد نبـت هنـاك، لجـأ الأطبـاء إلى محاولـة تغذيتـه بالوريـد، ولكـن بـدا أنّ أوردتـه تضمحـل وتـذوي ثـم لم يلبـث سـوى ليلتـين ومـات.

لم ينتـشر الأمـر بشـكل واسـع في بدايـة الأمـر، مُجـرد رجـل أصيـب بداء غريـب أودى بحياتـه، أمـر محـير ولكـن لا يسـتحق أنْ يتحـوّل لشـأن عـام، مـا تـلا ذلـك هـو مـا أثـار القلـق حقّـاً، بعـد أسـبوع مـن وفـاة الرجـل وعندمـا رفـع العـزاء من بيتـه الكائـن عنـد أول الطريـق في بداية

الحـي الجديـد، اسـتيقظت زوجتـه صباحـاً، فوجـدت طقـم أسـنانها يرقـد بجوارهـا كامـلاً في الوسـادة، هرولـت فزعـة إلى المستشـفى، ولكنهـا لم تصمـد سـوى ثـلاث ليـال، قبـل أنْ تسـلم الـروح، وهنـا بدأ الحديـث يـتردّد، والعجـب يتحـوّل إلى خـوف، انتـشر الحديـث الهامـس في المدينـة، مثـل انهـمار المطـر عـلى حـين غـرة، فأصبحـت العاصمـة صـاد تناقـش الخـبر مـن أقصاهـا إلى أقصاهـا، ولكـن الأمـر لم يتوقـف عنـد هـذا، محـل الحلاقـة الجديـد الـذي لم يمـرّ سـوى أسـبوعين عـلى افتتاحـه في ذات الطريـق، كان هنـاك رجـل ينتظـر دوره في الحلاقـة، رجـل في منتصـف العمـر يعـاني مـن حساسـية مزمنـة مـن العطـور، ولكنـه لم ينّبـه الحـلّاق الـذي كان يحـرص عـلى نظافـة المـكان بهـذه المشـكلة، رشّ الحـلّاق ملطـف الجـو في فضـاء المحـل بغـرض تلطيـف الجـو، ظهـر الامتعـاض عـلى وجـه الرجـل ثـم حـكّ أنفـه وعطـس في قـوّة، عندمـا رفـع رأسـه كان طقـم أسـنانه يبتسـم أمامـه في الطاولـة، مسـتلقياً فـوق كومـة مـن الصحـف، صرخ الرجـل في ذعـر، وعندمـا انتبـه الحـلّاق وزبونـه الـذي مـا زال في منتصـف الحلاقـة، أطلقـا سـاقيهما للريـح وكأنهـما رأيـا شـيطاناً في وضـح النهـار.

سرى خـبر الرجـل العاطـس مصحوبـاً بوفـاة الرجـل وزوجتـه ليحيـل الهمـس ضجيجـاً، مـا يحـدث كان شـيئاً مرعبـاً، لا يوجـد سـبب محـدّد لانتشـار مـرض غريـب كهـذا، لا يعـرف أحـد مـن أيـن أتـى، وكيفيـة انتقـال العـدوى مـن شـخص لشـخص ليتـم تفاديهـا، تـم تجاهـل الأمر والتعتيـم عليـه بشـكل كامـل، وكأن الأم الـرؤوم أصـدرت أمـراً لجميع

الوسـائط الإعلاميـة بعـدم التحـدث عـن الأمـر، فالصحـف والقنوات التلفزيونيـة لا زالـت مشـغولة بفـوز المـكادي، بمهرجـان سـباق الحمير الأخـير، كـما أنّ فضيحـة المراهنـات التـي صرّح مديـر قسـم مكافحـة المراهنـات، بـوزارة الترفيـه، عـن امتلاكـه أدلـة ملموسـة، تـدلّ عـلى وجـود مراهنـات سـوداء وغسـيل للأمـوال يتـمّ في الخفـاء، وأنّ الأمـر بـين يـدي الشرطـة الآن، لازال الحدثـان همـا الشـغل الشـاغل لجميـع الوسـائط الإعلاميـة.

ولكـن في مهرجـان الشـعر الـرديء الـذي تـمّ اختيـار العاصمـة صـاد في هـذه الـدورة لتكـون مسرحـاً لأحداثـه كان يخبـئ مفاجـأة صغـيرة للبصـير بـل للجميـع، مفاجـأة الشـاعر ذو القبعـة المضحكـة، رغـم مأسـاوية الحـدث، ومـا تبعـه مـن أحـداث جسـام في حيـاة البصـير، ولكنـه ظـلّ ذكـرى طيبـة، متجـردة مـن دلائلهـا السـوداوية، كأنهـا مسرحيـة تـمّ تقديمهـا في إتقـان، لجلـب المتعـة وليـس دليـلاً ملموسـاً عـلى مـرض سـقوط طقـم الأسـنان، الصمـت الرهيـب في المـكان بعـد انفصـال طقـم الأسـنان عـن فـم الشـاعر، وتحليقـه في فضـاء الخيمـة ثـم هبوطـه السـحري نحـو أرضيـة المـسرح، أعقبـه ارتفـاع مفاجـئ للـصراخ والعويـل، ثـم اندفـع الـكلّ للخـروج مـن الخيمـة، التـي لم تجهـز بأبـواب واسـعة ممـا أدّى لحـدوث هـرج ومـرج، وحـين انقشـعت سـحابة الازدحـام والتدافـع، خـرج البصـير مـن الخيمـة، وجـد المـكان شـبه خـال، إلا مـن عـدّة أجسـاد متداعيـة بسـبب الاختنـاق، أو لإصابـة خلفهـا التدافـع في المـكان، رغـم الخـوف الـذي ينبـض في

داخلـه مـن عـدوى المـرض التـي يتخيلهـا مثـل قاتـل يقبـع في الظـلام ممسـكاً بفأسـه، ومترصـداً لفريسـته، دون الخضـوع لقانـون، أو مبـدأ أو قاعـدة، إلا أنـه طفـق يتلفـت حولـه بحثـاً عـن الشـاعر ذي القبعـة، ولمحـه وهـو يبتعـد عـن السـاحة تحـت الأنـوار القويـة، ممسـكاً بطقـم أسـنانه المخلـوع، ركـض خلفـه لشـكره عـلى هـذه الأمسـية الجميلـة، رغـم خاتمتهـا المأسـاوية ولكنـه كان يبتعـد في سرعـة عـن المـكان، متواريـاً خلـف البنايـات الجديـدة التـي لم تكتمـل بعـد في طرقـات الحي الجديـد.

مـا حـدث أدّى لانفجـار الوضـع، تحـدث النـاس عـن لعنـة الحـي الجديـد، المـرض لم يصـب أحـداً خـارج الحـي، غـير أنّـه مـرض يبـدو أقـرب للعنـة منـه إلى علّـة يداويهـا الطـب، ثـم تفشّـى حديـث عـن أنّ هـذا الحـي محبـس مـن محابـس الجـنّ منـذ القِـدم، بـل وسرت شـائعة بوجـود لعنـة منـذ قديـم الزمـان أيقظهـا السـكان الجـدد، وزادت الأقاويـل عـن حدّهـا، وظهـر سـوق سـاخن للمراهنـات في وسـط حمـى الأقاويـل المتعارضـة، وهنـا كان لا بُـدّ لـلأم الـرؤوم مـن كـسر حاجـز الصمـت والحديـث عـن المشـكلة، ظهـر وزيـر الصحـة عـلى القنـاة الرسـمية خاليـاً مـن التوتـر وهـو يـوزّع ابتسـامات الاطمئنـان عـلى جمـوع الصحفيـين في المؤتمـر الصحفـي الـذي عقـد خصيصـاً لهـذه المشـكلة.

قال الوزير:

– بالطبـع لا يوجـد وبـاء أو شيء مـن هـذا القبيـل، والطبيـب الـذي

صرّح بهذا الأمر، تمّ التأكد من أنّه يتبع لخلية إرهابية، هدفها زعزعة الاستقرار والأمن الذي تعيشه البلد، ولكن على جماهير شعبنا الوفي الاطمئنان، بأنّ الأم الرؤوم تسهر على راحتهم وأمنهم، ولن تفسح المجال لأصحاب النفوس المريضة، من أجل تحقيق أغراضهم الدنيئة المكشوفة لكلّ مواطن شريف حادب على مصلحة الوطن.

تناول كوب الماء المثلج وتجرّع منه جرعتين ثم ابتسم مكملاً:

-أما بالنسبة لما حدث في مهرجان الشعر الرديء، فإن ما حدث أمر محزن ومؤسف، أنْ نفقد هذا العدد من المواطنين الشرفاء، بسبب شائعات مغرضة، ولعلّ هذا يكون درساً لكلّ مواطن، بعدم تسليم نفسه لكلام من مصادر غير موثوق فيها، فمن المفارقات، أنّ الشاعر الذي فقد طقم أسنانه، فرد من أفراد عائلتي، وهو ابن أختي تحديداً، وقد فقد أسنانه نتيجة لحادث اصطدام مروع،بسيارة مسرعة، وهو يقود دراجته، ولم يتعد عمره التسعة أعوام، وكان من لطف الله أنّه فقد أسنانه فقط، ومن وقتها وهو يستخدم طقم أسنان صناعي، وصادف أنّ طقمه سقط من فمه في الوقت الخطأ ليس إلا.

ثم شكر الحضور، وفتح الباب للأسئلة التي تمّ إعدادها ووزّعت على صحفيين محدّدين سلفاً، ألقيت الأسئلة، وقُدّمت إجابات مقنعة عليها، بواسطة وزير الصحة، ثمّ دُبجت العناوين العريضة للصحف في اليوم التالي، بأخبار المؤتمر الصحفي، وتمّ

نفـي الشـائعة، والتأكيـد عـلى عـدم وجـود وبـاء أو خلافـه، كـما أرفـق مانشـيت آخـر، في جميـع الصحـف، بالقبـض عـلى خليـة إرهابيـة، بقيـادة طبيـب معـروف، سـيتمّ تنفيـذ الحكـم عليهـا في سـاحة الأحكام بعـد اكتـمال التحقيقـات.

تعامـل وزيـر الصحـة بحـذق بالـغ، وحرفيـة عاليـة، مـع الأزمـة، خاصـة وأنّ تصريحاتـه توافقـت مـع حـراك مـوازٍ لقـوات الأمـن الشـعبية، التـي قامـت بتطويـق الحـي الجديـد مـع غـروب الشـمس، وفي صبـاح اليـوم التـالي كان الحـي خاليـاً مـن كلّ أثـر للحيـاة، وكأنـه كان مهجـوراً منـذ الأزل.

مـا قـام بـه وزيـر الصحـة كان عمـلاً احترافيـاً بشـكل كبـير، مـن أجـل إخمـاد الإشـاعة، لكـن وبرغـم الهـدوء الـذي سـاد بـلاد السـين بعـد المؤتمـر الصحفـي لوزيـر الصحـة، وحتـى محاصرة الحـي الجديـد، التـي تـمّ تبريرهـا بالقبـض عـلى عنـاصر تتبـع للخليـة الإرهابيـة، وهـو تبرير مقنـع إلى حـدٍّ مـا، ولكـن كانـت هنـاك ثغـرة فـات عـلى الوزيـر أنْ يغلقهـا في خضـم انشـغاله بالتبريـرات المحكمـة، كان مـرض سـقوط طقـم الأسـنان حقيقيـاً، وليـس مُجـرد شـائعة، فبعـد أسـبوع مـن المؤتمـر الصحفـي للوزيـر، كان المـرض يبـدو كذكـرى بعيـدة، قـل الحديـث عنـه وكاد أنْ ينعـدم، وفي اليـوم السـابع، وعنـد الظهـر، في سـوق كـما هـو، عندمـا تتعامـد الشـمس عـلى رؤوس المشـترين والبائعـين عـلى حـدٍّ سـواء، ويبلـغ اليـوم ذروتـه، فتشـتد عمليـات البيـع والصفقـات التجاريـة، التـي يمـلأ الغـش تفاصيلهـا، وفي وسـط عمليـة بيـع لثلاجة

مستخدمة، ولكن تبدو بحالة جيدة، وبعد احتدام النقاش بين البائع والشاري حول السعر، سعل البائع في قوّة حتى دمعت عيناه، واضعاً يده على فمه، وعندما أبعد يده، تدلى طقم أسنانه متعلقاً بعرق صغير إلى فراغ الفم، والذي سرعان ما انقطع تاركاً الطقم يتهاوى نحو الأرض، وسط صرخات الشاري وذهول البائع نفسه.

عاد وباء سقوط طقم الأسنان للتفشّي والانتشار بشكل مرعب، كأنه يمد لسانه ساخراً من تصريحات وزير الصحة في المؤتمر الصحفي، لن تدهش لو رأيت أحدهم يسير في الطريق، ثم يتوقف فجأة عن المشي، ويبصق طقم أسنانه أمامه، فيما يتراكض الناس حوله في ذعر.

في الحقيقة لو جمعنا الحالات التي ظهرت حتى الآن، فلن تتجاوز الخمسين حالة على الأكثر، وعند توزيعها على أحياء عاصمة بلاد السين، فسنجد أنّ نصيب كلّ حي لم يتجاوز الأربع أو الخمس حالات، وهذا كرقم إحصائي ليس كبيراً بالطبع، ولكن الرعب الذي خلفه المرض، كان أعظم من هذا الرقم بكثير، فلا أحد يعلم مصدر المرض، أو طريقة انتشاره، أو كيفية العلاج منه، غير أنّ صمت الأم الرؤوم المطبق تجاه الأمر، زاد من تفشّي الشائعات والرعب، بدأ البعض في الحديث عن تناول رماد محروق الطلح، ممزوجاً ببول الحمار كعلاج ناجعٍ، وعندما لم ينفع تم تجربة الثوم، والحرجل، ومنقوع العرديب، ومنقوع القضيم، ومسحوق إكليل

الجبل، والمرمية، واستنشاق دخان البن المحمص، ثم دخان الطلح، والقرض، وورق النيم المجفّف، وعصارة الحنظل، ولكن مرض سقوط طقم الأسنان كان يتمدّد، متجاهلاً كل المحاولات لدحره، ظهرت جماعة تدعي أن مرض سقوط طقم الأسنان غضب إلهي، ولا حلّ سوى العودة إلى طريق الصواب، وتم الإعلان عن يوم للتضرع والبكاء وإظهار الذل والضعف، على أنْ يتجمع الناس في الساحات، أمام الأحياء كافة، رجالاً ونساء، وفي اليوم الموعود تقاطر الناس زرافات ووحدانا، حبات الذرة كانت متضخمة مثل بطيخ مكتمل النضج، متهدلة على الأعناق، وصولاً لأول الظهر، خامدة تنتظر مصيرها في خنوع، ثم بدأ مهرجان البكاء العظيم، بلغ العويل عنان السماء، وتتدحرج البعض على الأرض، وحثا آخرون التراب على رؤوسهم، كان مشهداً مهيباً، الآلاف يجأرون في الطرقات، في حين اعتلى بعضهم قمم الأشجار، وأسقف البيوت، بصحبة مكبرات الأصوات، يحضون الناس على إظهار الندم والتوبة، ولكن من سوء الحظ ظهرت بعض حالات سقوط أطقم الأسنان في الساحات الممتلئة بالنادمين، أو ربّما هي مجرد شائعة، تمدّدت وسط الجمع، فانفض سامرهم قبل أنْ يبلغ الأمر ذروته، وعادوا إلى بيوتهم تتلبسهم الحيرة والخوف.

تغيّرت نبرة النقاش عن المرض العجيب في القنوات الإعلامية المختلفة، من الإنكار إلى الحديث عن الدولة المجاورة التي تستخدم الأسلحة البيولوجية القذرة، وتمّ استضافة العديد من

المحللين، والأطباء، والعالمين ببواطن الأمور، ولم يتوانوا عن توجيه سهام الاتهام إلى بلاد العين، والتلويح بتقديم شكوى رسمية في الأمم المتحدة، ومنظمة الصحة العالمية، على كلٍّ، بدأت عاصمة بلاد السين، في التحوّل إلى عاصمة للأشباح، خلت الشوارع من المارة، وتوقّف الطلاب عن الذهاب إلى المدارس، أغلقت المحلات التجارية في الأسواق، حتى سوق (كما هو) تحوّل لمجرد ساحة كبيرة خالية، تتطاير فيها أكياس النايلون، وتزدحم بأكوام القاذورات والكلاب الضالة. الإعلام كان مشغولاً بعيد الثورة الثالث عشر، كما أنّ حالة الاكتئاب الغريبة التي أصابت المكادي، أخذت نصيبها من الإعلام، تحدث سائسه عن عزوفه عن الطعام، وعدم اهتمامه بالنخة أثاثه الجميلة، وبالطبع كان لخبر المواد الغذائية والأدوية، التي يتمّ تجهيزها لإغاثة دولة لام نصيبه من الإعلام، عانت بلاد اللام من سيول وفيضانات غير مسبوقة، تركت الناس في العراء، فتحركت الأم الرؤوم لتقديم الدعم، وأغرقت الإعلام بدعوات التبرع لأجل دولة لام، وتم الإعلان عن أرقام الحسابات البنكية لدفع التبرعات، كما تمّ تحديد مراكز في جميع مدن بلاد السين من أجل جمع التبرعات العينية.

ظهرت بعض الكتابات على جدران المدارس والبيوت، كُتبت أول الأمر في أحياء متباعدة، ثم بدأت تنتشر في بطء، حتى غطّت معظم جدران العاصمة، حاملة الدعوة للأم الرؤوم من أجل إيجاد حلول للمشكلة، وبعضها يحمل دعوات للتحرك الشعبي

من أجل دحر المرض (يا أمنا خلي النوم نحن نموت كل يوم)، (لا رئيس ولا وزير طقم الأسنان أو التغيير)، (يا رئيس يا رئيس طقم أسنان وشعب تعيس)، (حاذر، حاذر يا مواطن طقم الأسنان في بيتك ساكن) كما ظهرت بعض الرسومات على الجدران نفسها، تحكي عن المرض بشكل هزلي، فمثلاً قام أحدهم برسم طقم من الأسنان على شكل قنبلة، وجمع من الناس يولي الأدبار، في حين قام آخر برسم الرئيس نائماً، في حين أنّ سرباً من أطقم الأسنان يحلّق فوق رأسه، انتشرت قوات الأمن الشعبي بسياراتها المموهة، عند الأسواق المغلقة، وبجوار المدارس، وعند إشارات المرور، وفي مداخل الأحياء، أينما التفت تجد سيارة من سياراتهم، يتسكع حولها أفراد الأمن الشعبي، وهم يرصدون الطرقات والمارة، كما قاموا بمسح العبارات المكتوبة على الجدران باستخدام الطلاء، وبعد عدّة أيام تمّ القبض على عدّة شباب بتهمة إثارة القلاقل، وكتابة عبارات تحض على هدم الثورة، ونشر الأكاذيب الهدامة، بغرض إثارة الفتنة، وبعد ثلاثة أيام تمّ القبض على البصير، وزجّه لأول مرّة في واحد من مراكز الأمن الشعبي في عاصمة بلاد السين.

بعد أنْ أخرجته طيف من المعتقل، ظلّ ثمانية أيام وهو داخل شقته لا يغادرها، الحياة متوقفة في الخارج، ينام على الأريكة الرمادية، يشاهد التلفاز بنصف وَعْيه، يحاول إغراق نفسه في الطبخ، وقراءة عدد من الكتب التي أجّل قراءتها كثيراً، ولكن

عقلـه كان يذهـب إلى هنـاك، السـكين لا زالـت تعبـث في أحشـائه، وعمـود النـار يلتهـم مثانتـه، عندمـا يتذكـر يهـرع إلى دورة المياه ويفـرغ مثانتـه في عجلـة مطفئـاً النـار قبـل أنْ تلتهمـه، (أبي كان شـهيد الأسـئلة وكـدت أنْ أكـون شـهيد تشـابه الأسـماء) همـس لنفسـه وهـو ينظـر مـن خلـف النافـذة إلى الطريـق الخـالي، يشـق عويـل سـيارات مراكـز الأمـن الشـعبي هـدوء الحـي الصامـت، التلفـاز يتحـدث عـن أسـعار البـترول، وحـروب العـالم، وقضيـة المراهنـات، يتحـدث عـن كلّ شيء مـا عـدا عـن العاصمـة، ومـا يحـدث فيهـا، يخفـق قلبـه وهـو يتخيّـل أحدهـم آتيـاً ليطـرق البـاب، ينـام فـيرى حبـال المشـنقة تتراقـص في سـاحة الأحـكام، والحمـير تجلـس عـلى المدرجـات تنهـق في اسـتمتاع، وهـي تتابعـه يجاهـد لالتقـاط أنفاسـه، يسـتيقظ مفزوعـاً ممسـكاً بعنقـه، يشـعل الأنـوار، يرفـع صـوت التلفـاز لأعـلى درجـة، يغنـي بصـوت عـالٍ، يبحـث عـن الطمأنينـة في قليـل مـن الأنـس، ينظـر مـن خلـف النافـذة، أحدهـم يقطـع الطريـق عـدواً، يتفقـد أسـنانه خوفـاً مـن سـقوطها، كان يخشـى أنْ يعـودوا ثانيـة، يطرقـون البـاب ثـمّ يأخذونـه إلى هنـاك، حيـث تنتهـي الحيـاة.

في اليـوم السـادس كان هنـاك عـدّة أشـخاص يقطعـون الطريـق في أوقـات متباعـدة، في اليـوم السـابع زاد عددهـم بشـكل ملحـوظ وعـادت المحـلات لتـشرع أبوابهـا، واختفـت سـيارات الأمـن الشـعبي، لم يفهـم الـذي يحـدث ولكـن الحيـاة بـدأت ترجـع إلى طبيعتهـا، في اليـوم الثامـن كان مجـبراً عـلى الخـروج لأن ثلاجتـه كانـت فارغـة مـن

الطعـام والحليـب، اشـترى أغراضـه مـن صاحـب البقالـة، ووقـف ينتظر ثرثرتـه المعتـادة ولكنـه كان صامتـاً، عندمـا لاحـظ وقوفـه سـأله هـل يرغـب في شيء آخـر، فهـم أنّـه يقصـد أغـرب عـن وجهـي، فخـرج، تنـاول فطـوره وارتـدى ملابسـه اسـتعداداً للذهـاب إلى عملـه، طالمـا عـادت الحيـاة إلى طبيعتهـا فـلا بُـدّ أنْ يكـون طبيعيـاً، عـدم ذهابـه إلى العمـل سـيثير التساؤل، وربّـما يعـود الأمـن الشـعبي لـدسِّ أنفـه في أمـوره مـرّة أخـرى، خـرج إلى الطريـق، ركـب الحافلـة، الجميـع كانـوا صامتـين، الصحيفـة بـين يـدي جـاره كانـت تتحـدث عـن عيـد الثـورة، الوجـوه جامـدة، الأكـف موضوعـة عـلى الحجـر، وأصابعهـا متشـابكة، أو سـواعد معقـودة أمـام الصـدر، كلّ واحـد ينظـر إلى الآخـر، يمتـزج الخـوف بالعـداء والحـذر، ينظـرون إلى المـارة مـن زجـاج الحافلـة كأنّهـم يترقبـون حـدوث شي مـا، في سـوق (كـما هـو) الحيـاة تبـدو عاديـة والنـاس يبيعـون ويشـترون، لكـن هنـاك شيء مختلـف، المفاوضـات في البيـع كانـت بـلا روح، مـا إنْ تبـدأ سرعـان مـا تنتهـي، كأنهـا مسرحيـة رديئـة لممثلـين بـلا موهبـة، تغمـره الحـيرة وهـو يعـبر الطريـق مـاراً بالسـاحة التـي طُوِّقـت بالأمـن الشـعبي مـن جهاتها الأربعـة، مـرّ بجـوار مركـز الأمـن الشـعبي، انتصـب في مشـيته ولم ينظر اتجاهـه وعـبره مغمـوراً بالعـرق، وصـل إلى مبنـى وزارة المعـارف، عـبر مـن البوابـة، ألقـى التحيـة عـلى الحـارس العجـوز، ولـج إلى الداخـل، لم يسـأله أحـد عـن غيابـه في الفـترة السـابقة، عـاد لمزاولـة عملـه المعتـاد، حتـى بقيـة زملائـه لم يسـتفسروا عـن سـبب غيابـه، وإنْ رأى خلـف

الشفاه المطبقة أسئلة محتجزة، النداء الصامت في العيون، كأنه يقول لك هل أنت أهل للثقة، ولكن لا ينتظر إجابة، بل يفر بصمته لروتين العمل اليومي، الخوف هو المسيطر (هل تمّ إجبارهم على العودة إلى العمل بالقوة؟ أمْ أنّ خشية فقدان العمل، ومجابهة الفقر المدقع الذي يشهر سيفه للجميع هو ما حرّكهم؟ كيف اتفقوا وهم متباعدون على العودة إلى العمل؟ ألم يعودوا يخشون من سقوط طقم الأسنان؟ هو يخاف من مراكز الأمن الشعبي أكثر من أي شيء آخر، يكاد أنْ يجنّ من هذا التواطؤ على الصمت، حتى هو انقاد إليه، يضجّ رأسه بالأفكار ولكنه لا يجرؤ على الكلام، وقع على ميثاق الخوف الجماعي والتزم به، مرّت ساعات العمل ثقيلة، وأخيراً ها هو في الطريق مرّة أخرى، لا شيء مختلف عن المعتاد، أرتال من البشر تتزاحم في الطريق، وقت الخروج من العمل، تزدحم الطرقات بالموظفين والعمال والمتسكعين والباعة المتجولين، وطلاب المدارس بأزيائهم الموحّدة، في ساحة الأحكام كان الوضع مختلفاً، عدد كبير من أفراد الأمن الشعبي يحيطون بالمكان من الخارج، وجوههم الصارمة، وأسلحتهم المشرعة جعلت الجميع يواصلون في طريقهم، قاتل الفضول لمعرفة ما يحدث، وجود هذا الكم منهم يدلّ على أمر جلل، واصل في طريقه كأنه لا يرى، احتكّ كتفه بآخر يمشي بجواره، بادره بالاعتذار ولكنه لم يرفع عينيه من الأرض وهو يهمس

– هل تظنه علاجاً ناجعاً؟

- أي علاج؟

رفع عينيه ناظراً إليه، ثم نظر إلى الأمام وأطبق شفتيه معلناً نهاية الحوار الذي لم يبدأ، وصل إلى البيت أخيراً، أغلق الباب خلفه، وعندما وصل إلى الصالة كانت طيف تجلس هناك، عند الأريكة الرمادية المواجهة لشاشة التلفاز، والطاولة أمامها يتبعثر عليها بقية إفطاره وبعض ملابسه على الأرض ولكنها كانت تبتسم مرحبة به غير عابئة بكلّ هذا.

شعر بجسده يرتجف، تتراكض الأحداث في جنون وهو يلهث خلفها ولا يكاد يلحق بها، يشتاق إلى أيام الروتين المعتادة، الذهاب إلى العمل، العودة لمشاهدة التلفاز أو قراءة كتاب ما، التسكع في سوق (كما هو) أو في الطرقات بلا هدف، متابعة مهرجانات سباق الحمير، والشعر الرديء، وقبض الهواء، وغيرها من الترهات، الليالي الهادئة المملة التي يقضيها أرقاً بلا هدف سوى انتظار نهايتها ليبدأ يوماً جديد.

- كيف دخلت إلى هنا؟

صوته كان عدائياً

ابتسامتها كانت توحي بالاطمئنان

- هل هذا بديل لعبارة مرحباً بك في بيتي؟

ظل واقفاً عند الباب، هزّه ليتأكد من أنه لم يكسر، كان على حالته التي تركه بها صباحاً

- كيف استطعت فتح الباب؟

- حمداً لله على سلامتك، كانت تجربة قاسية.
كان صوته منزعجاً متشككاً وحذراً في نفس الوقت
- عن أي تجربة تتحدثين؟
هزّت كتفيها وقالت بذات الابتسامة
- المكوث ليوم وليلة في مركز الأمن الشعبي، أعقبها يوم آخر في معسكر الخدمة الإلزامية.
تطلع نحوها في ذعر، بحث عن ريقه ولكن حلقه كان جافاً
- إذن أنتِ واحدة منهم؟!
- لا يمكنك التسليم بهذا.
- أنا لا أفهم.
- كي تفهم يجب أن تعرف، المعرفة هي ما يقود الإنسان، دعني أقرب لك الفكرة، هل تظن الإنسان قادر على الطيران مثلاً؟
ظهر عليه عدم الفهم واضحاً، ضحكتها كانت منطلقة
- أنت تسلم باستحالة ذلك لأنّ هذه هي المعرفة التي تملكها، من واقع المشاهدة، أو لنقل من واقع الحال، فالناس يمشون ويقفزون ويزحفون في بعض الحالات، ولكن لا يطيرون في حدود معرفتك التي اكتسبتها، أنا لست هنا لإقناعك بقدرة الإنسان على الطيران، فليس هذا هو الغرض من حضوري بالتأكيد.
نهضت من مكانها، تناولت المزهرية الموضوعة علي سطح الطاولة بجوار مدخل الشقة، قلّبتها في يدها ثم أعادتها إلى مكانها
- هل تظن أنك اعتقلت بسبب تشابه الأسماء؟ هل تظنّ أنّ

جهازاً بحجم الأمن الشعبي سيقع في خطأ ساذج كهذا؟ ليست الأمور كما تبدو عليه

- هل تقولين إنّ اعتقالي كان صحيحاً ومتعمّداً؟ ولكني لم أشارك في أي نشاط مضاد للنظام، لم أكتب على الجدران، لم أتحدث حول مرض طقم الأسنان، لعلمي بأنّه مجرد كذبة غير حقيقية من أجل إثارة القلاقل

صوته كان متخاذلاً، ردّت عليه بضحكة ممتدة طويلة ثم قالت:

- لا، مرض تساقط أطقم الأسنان حقيقي، كلانا يعلم ذلك.

- لا لم أعد متأكداً من شيء.

صوتها كان متضامناً وهي ترد:

- لأنه قد تمّ صهرك جيداً.

- لا أستطيع فهم ما يدور حولي، لست طبيباً كي أهتم بمرض طقم الأسنان، ولكن قبل شهرين من الآن كان الأمر حقيقياً، هناك مرض ومرضى بل وموتى، واليوم وأنا أسير في الطرقات لم يكن هناك سوى الخوف.

- ظهر المرض أولاً في الإقليم الجنوبي ولكن تم التعتيم عليه بشكل كامل، لم يتحدث عنه الإعلام بحجّة عدم إثارة الذعر والخوف، تفشّى هناك بشكل كبير أدّى لعشرات الوفيات في صمت كامل، الكلّ كان يعلم أنّ وصوله إلى هنا مجرد مسألة وقت ليس إلا، اتبعت نفس السياسة هنا، تجاهل المرض حتى يموت وحده كما أتى وحده، بالطبع تابعت قصة طبيب الأسنان الذي صرّح عن

أول حالـة سُـجلت هنـا، تـمّ تكذيبـه، واعتقالـه واتهامـه بالاشـتراك في خليـه إرهابيـة تسـعي لتقويـض الثـورة، وإثـارة القلاقـل والخيانـة العظمـى، الحـي الجديـد الـذي تفشّـت فيـه الحـالات، تـمّ التعامـل معه بنفـس الطريقـة التـي تـمّ التعامـل بهـا في الإقليـم الجنـوبي، رغـم أنّهـا لم تثبـت جدواهـا وتـمّ التخـلي عنهـا لاحقـاً، عـلى كلٍّ تـم تطويقـه ليـلاً، والقيـام بالعمـل الكبـير ودفنهـم داخـل بيوتهـم، الحديـث عـن لعنـة الجـنّ والأرواح الشريـرة كفيـل بإثـارة خيـال البسـطاء، ودعـم ذلـك بعنـوان عريـض في صحيفـة (يحـدث الآن) الأكثـر توزيعـاً، عـن تدبيـج تاريـخ كامـل للمنطقـة، جعـل الـكلّ يتجنبهـا ويتجنـب الحديـث عنهـا، مَـن الـذي يجـرؤ عـلى معارضـة أرواح هادئـة تـمّ إزعاجهـا، وكان انتشـار الأشـباح الخارجـة مـن الحـي ليـلاً بلباسـها الأبيـض، وصرخاتهـا المرعبـة، وهـي تتلـوى بجـوار الطريـق السريـع، هـي اللّمسـة الأخـيرة للوحـة تـمّ رسـمها في إتقـان، ولكـن هـذا لم يمنـع انتشـار المـرض، بطريقـة مـا شـقّ سـقوط طقـم الأسـنان طريقـه لبقيـة العاصمـة، العبـارات التـي خطـت عـلى الجـدران كانـت تحمـل مدلـولاً خطـيراً، تعامـل الأمـن الشـعبي معهـا بحسـم كامـل، تـم أخـذ الـبريء بجريـرة المذنـب، وامتـلأت مراكـز الأمـن الشـعبي بالمعتقلـين، في هـذه الأثنـاء وفي خضـم هـذا الظـلام العظيـم شـفيت أول حالـة مـن المـرض في الإقليـم الجنـوبي.

صمتـت قليـلاً وهـي تنظـر لـلأرض ممشـطة الصالـة الصغـيرة وهـو يسـتمع في انتبـاه كامـل

- واحـد مـن مجانـين الإقليـم الجنـوبي يـذرع الطرقـات ليـلاً ونهـاراً مشـهور بعـدو الظـلال، يتجنـب الظـل طـول النهـار محتفـلاً بالشـمس بطريقتـه الخاصـة، يعلـم الجميـع هنـاك أنّ أكـبر عـدو لـه هـو الليـل والغيـوم، يفـزع مـن الظـلام ويغضـب حـين تغطـي الغيـوم الشـمس، عـدو الظـلال كان مثـار تنـدر وسـخرية في كثـير مـن الأحيـان هنـاك، ولكـن حـين سـقط طقـم أسـنانه لم يعـد الأمـر كذلـك، خليـط مـن الشـفقة والحـزن والخـوف مـن عـدو الظـلال، هـو مـا أحـسّ بـه الناس حـين طـار طقـم أسـنانه، وهـو في واحـدة مـن احتفالاتـه المجنونـة بالشـمس، أمـام مبنـى رئاسـة الأم الـرؤوم في الإقليـم الجنـوبي، الطريـق المزدحـم بالنـاس الخائفـين مـن المـرض ومـن بطـش الأمـن الشـعبي تعامـى عـمّا رأى، وإنْ كان قـد أفسـح طريقـاً لـه في وسـط الزحـام كـي يـمارس عـدوه إعلانـاً بانتهـاء طقسـه المعتـاد، ظـلّ عـدو الظـلال يمشي بـين النـاس ولم يشـكُّ مـن أي عـرض آخـر، مـرّ يـوم ويومان وأسـبوع، والنـاس تنتظـر موتـه الأكيـد ولكـن عـلى العكـس مـن ذلـك، لم ينسـد حلقـه، ولم يـترك أكل بـذور دوار الشـمس التـي يعشـقها، ولم يـترك حتـى صراخـه واحتفالاتـه المجيـدة بالشـمس طـوال النهـار، وفي اليـوم العـاشر مـن سـقوط طقـم الأسـنان أبـصر الجميـع سـناً واحـدة تـبرز مـن خـلال اللثـة الداكنـة لعـدو الظـلال، وكأنهـا تمـد لسـانها سـاخرة مـن المـوت

قاطعها في دهشة:

- هـل مـا تقولينـه حقيقـي أمْ هـي أسـطورة مـن أسـاطير بـلاد السـين

التـي لا تنتهـي؟
كان وجههـا يحمـل مـن الصـدق مـا لا يـدع مجـالاً للتكذيـب فاستسـلم وهـي تواصـل حديثهـا بـذات النـبرة:
- التقطـت الأم الـرؤوم القفـاز، وربطـت بـين شـفاء عـدو الظـلال والشـمس، تـمّ جـرّ عـشرات مـن مـرضى سـقوط طقـم الأسـنان إلى السـاحات في الأحيـاء، وتقييدهـم عـراة للشـمس، في كامـل عنفوانهـا، مـع إحاطتهـم بأفـراد الأمـن الشـعبي، وسـدّ الطرقـات التـي تـؤدّي إليهـا، وبـدأت المعجـزة في الانتشـار، انحـسرت أعـراض المـرض كـما ينحـسر المـد عـن الشـاطئ، بعد يـوم واحـد بـدأ المـرضى في التـأوه، وفي اليـوم الثـاني طلبـوا المـاء، فتـمّ تقديمهـا مـع العصـير، وفي اليـوم الثالث تناولـوا الحسـاء والعصيـدة اللّينـة التـي لا تحتـاج مضغـاً، وبعـد عـشرة أيـام بـدأت أسـنانهم في الظهـور مـرّة أخـرى، تـمّ تعميـم العـلاج في جميـع أنحـاء بـلاد السـين، رغـم أنّ بعـض الأقاليـم لم تظهـر فيهـا حـالات للمـرض، ولكـن تـمّ جـرّ كلّ مـن تسـاقطت أسـنانه بفعـل حـادث مـا، أو بسـبب تقـدّم العمـر أو نقـص الكالسـيوم، أو بسـبب المـرض ذاتـه، بـل حتـى المصابـون باللثغـة في الـكلام تـمّ حجزهـم، خوفـاً مـن أنْ يكـون هـذا مقدّمـة لظهـور المـرض، لـذا فأنـت رأيـت اليـوم سـاحة الأحـكام محاطـة بقـوات الأمـن الشـعبي إحاطـة السـوار بالمعصـم، وهـي تزدحـم المـرضى وأشـباه المـرضى
قال في دهشة:
- كل هذا ولم يتحدث الإعلام عن الأمر ولو لمرّة واحدة!

- يظلّ المرض غير موجود طالما لم تعترف به الأم الرؤوم رسمياً.

ترابطت الخيوط، وتشابكت وكأن (طيف) عنكبوت ضخم يغزل بيته في مهارة، هي تعلم السبب والعلّة، الوسيلة والهدف، تدرك ما يدور في السطح، وما يختفي تحت السطح عميقاً حيث لا تبصره الأعين.

- مَن أنتِ؟

ابتسمت وردّت ببساطة:

- طيف.

- ما أنت؟

غمره السحر وهي تطلق واحدة من ضحكاتها ثم نظرت إلى بعينين باسمتين قائلة:

- طيف أيضاً.

- كيف تعلمين كل هذا؟

أطرقت برهة ثم قالت:

- لا توجد إحاطة كاملة ولا معرفة محيطة، إنما هي درجات في المعرفة بطرق متعدّدة، تترقى إليها وتنكشف عن عينيك غشاوتها رويداً رويداً، ترى ماذا سيقول الناس لو علموا أنك ترى حبات الذرة بألوانها المتباينة تتراقص فوق أعناقهم طوال اليوم يا بصير!

- أنت مَن أخرجتني من معسكر الخدمة الإلزامية؟

اكتفت بابتسامة صامتة لا تؤكد ولا تنفي، ولكن البصير كان متأكداً.

(٥)

كان البصير مستلقياً وسط ظلام مطبق، كأن الشمس لم تخلق بعد، والكون لم يعرف الضياء، الخوف المسيطر عليه يتغلغل عميقاً في الروح، يمتلكه، يحيله إلى كتلة من التوجس والترقب، وهذه الطمأنينة التي تهدهد خاطره بأنّه في أمان مطلق، أمان جنين يسبح في سائله الأمنيوني الخاص به، لا شرّ سيصيبه، يشعر بأنامله الصغيرة والسائل يتغلغل عبرها، ليس كما يغمس يديه في الماء، فما يحدث الآن ليس تغلغلاً غريب بين فراغات جسده، فلن يصيبه البلل ثم يذهب الماء في حال سبيله، هو والسائل شيء واحد، يعلم بوجوده، يحيط به، يلج من فمه ويعبر إلى معدته ورئتيه فيمتلئان به.

يغمض عينيه، سيفتحهما الآن، وسيعود كلّ شيء إلى طبيعته، بدأ يستوعب، كان مستلقياً على الأريكة الرمادية، يتابع حواراً حول أزمة الحمير والأمباز، وكوب الشاي على الطاولة ممتلئ حتى

النصف، ولا يشعر برغبة في إكمالـه، كان يشعر بالملل من الحـوار، ومن الحمير والأمباز والمتضجرين، للحظة شعر برغبة في اعتزال كلّ هذا، والغوص عميقاً داخله فأتى إلى هنا، الآن بعد هذا الترتيب المنطقي فلا بُدّ من التسليم بأنّه يحلم، غفا وهو مستلق على الأريكة دون أن ينتبه، الآن سيفتح عينيه وسيعود كلّ شيء إلى طبيعته، سيجد نفسه مستلقياً على الأريكة في الصالة القذرة، ولا زال التلفاز يثرثر أو ينهق لا فرق.

فتح عينيه، لم يرَ شيئاً، لا زال محاطاً باللاشيء، بما أنّه أدرك أنّه يحلم فيجب أنْ يستيقظ فوراً، هكذا كان يظنّ ولكن هذا لم يحدث، حاول تحديد البُعد الفيزيائي لجسده، وجوده المادي في هذا العدم، طمأنينة أنّه موجود، بحث عن يديه، لا يد، لا ساق، لا وجه ولا ملامح، لا عينين ولا جسد، العدم، الفراغ، رغب بكلّ خلية في جسده المتلاشي بالعودة إلى هناك، حيث الملل، الفزع يجتاحه مثل جيش في فلاة، بحث عن صوته ولكنه لا يملك حنجرة للصراخ.

ما يحدث كان مرعباً، هل هذا هو الموت؟ لو كان هو فيبدو أكثر مللاً وفزعاً من الحياة، تمدّد بلا جسد في ذلك الفراغ وعقله الغائب عنه مزدحم بالأفكار.

كان همساً لطيفاً، دافئاً مثل مناجاة أم لرضيعها، تلفّت يميناً، لا يمين ويساراً ولا يسار، قوي الهمس قليلاً كأنه يؤكد وجوده

- تعال.

- طيف؟

الصوت يأتي من كلّ مكان، لم تكتشف الاتجاهات بعد في هذا العدم، ولا الحيز المكاني أو الزماني، هناك هو هنا، تعال تعني أنْ ابتعد من هنا إلى هناك، ولكن كيف السبيل إلى ذلك وكلّ نقطة في هذا العدم هي ذات النقطة، وكل مكان هو ذات المكان.

- تعال.

ما زال ثابتاً في مكانه ولكن العدم يتحرك، كأنه داخل قطار يجري في نفق مظلم، ليس مدركاً لكيفية حدوث هذا، ولكنه كان ثابتاً ومتحركاً، خائفاً ومطمئناً، جاهلاً ومدركاً، كان اليقين والشكّ، الحقيقة والحلم، النور والظلام، تغيّر لون الفراغ إلى الأبيض، ليس كبحر من الحليب أو غابة من القطن ولكن أشد كثافة وبياضاً، ركض به الفراغ الأبيض ليسلمه إلى عدم آخر، يعود جسده للتشكل مرّة أخرى، يشعر بالأبيض يعبر من فتحتي أنفه إلى داخله، تعبر كلّ الألوان من حوله، تبدو أكثر تماسكاً وتحمل أبعاداً أعمق من المعتاد، الأحمر يصنع حلقة مهولة كأنها حيز لذلك العدم، يتراقص الأصفر في مجون سكير عربيد، ثم يأتي الأخضر والأزرق مترافقان وكأنهما في سمر يقطعان به الوقت، يعبر بينهما ثم تمسك يد طيف بيده، في رفق، وتسحبه نحو الأبيض مرّة أخرى، هنا لا يوجد شرط الرؤية للإبصار، هكذا فهم دون أنْ يخبره أحد، أدرك أنّ طيف بجانبه، لم يكن هذا احتمالاً راجحاً ولكن يقيناً راسخاً، ولم يعد خائفاً بعد الآن، تضيق الحلقة الحمراء، ويتحوّل لونها إلى أرجواني، يومض حول الأبيض المحيط

بهما، خالقاً ممراً أبيض بجدران أرجوانية، يجتاحه شعور بالألفة، كأنه كان هنا قبلاً، أو كأنه كان هنا منذ الأزل، يسلمهما الممر إلى بهو واسع، ليس له جدران واضحة ولكن ألوان مموّهة، متجانسة في براعة، كان يقف وطيف تقف جواره، ممسكة بيده، تتشكل في الفراغ أَسرّة معلّقة في فضاء البهو، سريران يسبحان في يسر، كأن البهو كُرة تدور في الفضاء، تتبدل الألوان المحدّدة له بإيقاع سريع، ولكنه ثابت، الطمأنينة تستقر في قلبه الآن، وينزاح ستار عن الذاكرة، نظر للسرير، كأنه يهمس له أنْ يدنو فدنا، ما أنْ فكّر في اعتلائه ارتفع جسده في يسر، كان كمهد أبيض لطفل صغير حين جلس عليه، ثم بدأ في الاتساع، نبتت من العدم وسادة تراوده كي يضع رأسه عليها، أجاب وفرد جسده بطول السرير، يعرف هذا الملمس أيضاً، يشتاق إليه كحبيب غائب، استسلم له وإحساس الراحة يغمره، ثم غفا ورأى في غفوته طيف ترقد في السرير الذي يجاوره.

قال:

- ما الذي يحدث يا طيف؟

ابتسمت وهي مستلقية تنظر نحوه

- لا شيء أنت غفوت وأتيت بي إلى حلمك

- عن أي الحلمين تتحدثين، فأنا غفوت في صالتي، وحلمت أنني في وسط العدم وأتيتني هناك، ثم غفوت ثانية، في السرير الأبيض الذي يتسع ليكون بطول قامتي، وها أنت في حلمي الثاني مستلقية

بجواري، مثل الماضي تماماً
ابتسامتها المحيرة تتسع لتزيده عجباً
- أي ماضٍ تقصد أيها البصير؟!
تتكاثف اللحظة، ويتراكم الآن، فيغطي الأمس، ويحجب الذاكرة، السماء تتناثر في قبتها نجوم باتساعها، تتراكم بينها وعينيه، غيوم فوقها غيوم فوقها غيوم، تبرق الذكرى بين الفراغات للحظة قصيرة، فتتكاثف وتستحيل سرمداً، تبرق لوهلة صغيرة، ثم تعود للانزواء خلف سحب الآن، كأننا كنا هنا، بل نحن هنا ولم نغادر منذ نشأة الكون.
- هذا الحلم حقيقي برغم غرابته، أو كأنه الحقيقة الوحيدة وما دونه مجرد أضغاث أحلام لا أكثر.
ترفع كتفيها وتقول بنبرة مبطنة:
- هو حلمك أنا مجرد ضيفة هنا، ولكن ما هي الحدود بين الحلم والصحو، بين الرؤيا وأضغاث الأحلام، بين الحقيقة والخيال، بل من أين يولد الخيال نفسه، ومن أين تولد الحقيقة التي نؤمن بها وبوجودها؟
- في تلك اللحظة لا توجد فواصل بين الحقيقة والخيال، الحلم والواقع، أنا في قمّة الحيرة، اليقين يفلت من بين أصابعي ببراعة، ثم يعود للالتصاق بها مرّة أخرى حين يلفني اليأس، مَن أنا؟
- سيكون حلماً حين ترغب في ذلك، وسيكون عين الحقيقة حين ترغب أيضاً، كلّ شيء يتخلق هناك بين تلافيف خلاياك الرمادية،

وهـي التـي تضـع الحـدود وتفـرض قوانـين الواقـع والخيـال.
- يـا للحـيرة التـي تشـملني! أنـا أعمـى، وحديثـك يكشـف الظـلام، ويمتـص بصيـص النـور مـن حـولي، مثـل ثقـب أسـود هائـل.
- كلّ شيء ممكــن، لا تحتــاج إلى الضــوء كــي تبــصر فــكلّ شيء يقبــع هنــاك حتــى الشــمس، حتــى أنــا.
- ليته لم يكن حلماً!
- أنت من تضع الحدود وليس الأمنيات.
يفتـح عينيـه، تتداخـل الألـوان في قبّـة البهـو، مثـل مـوج بحـر متلاطم، السريــر الأبيــض بجــواره خاليــاً، ولكــن أثــر الرقــاد مطبــوع عــلى الوســادة، يتلفـت حولـه، طيـف تقـف هنـاك وهـي تتأمـل تتداخـل الألـوان، يـا لظهرهـا الجميـل مثـل أغنيـة تهمـس بهـا الملائكـة في أذن الكـون، يهـم بمناداتهـا فتلتفـت نحـوه
- هل هذا حقيقي أكثر؟
تقولها وهي تنظر نحوه باسمة
تتكاثف الحيرة حوله حتى تستحيل جهلاً
- أليست للأحلام قوانين؟ أنت تكملين حواراً بدأ في حلم آخر.
تضحك وهي تميل برأسها للخلف قليلاً
- أنـت مثـل طفـل يخطـو خطوتـه الأولى، دائـماً يظنهـا الأولى رغـم أنـه يمـشي منـذ بـدء الخليقـة.
قفـز مـن السريـر واقفـاً بجوارهـا، تنسـل يدهـا لتعانـق يـده فيـزداد إحساســه بالمــكان

- أين نحن؟

أشارت نحو رأسه

- نحن هناك.

- هل رأسي مسرح لجنون الألوان وتمرّدها؟

- هكذا تراه أنت.

- وهل هناك إمكانية لرؤية مختلفة؟

تهز كتفيها دون أن ترد، يستفزه الأمر

- وكيف ترينه أنتِ؟

تجول بعينيها حول المكان وكأنها تستجمع التفاصيل ثم تقول:

- الرمال تحت قدمي بيضاء، أمامي بحر أزرق يميل إلى الخضرة، وتوجد صخرة تكسوها الطحالب في وسط الماء يقف عليها نورس واحد، يحكّ بمنقاره أسفل جناحه الأيمن.

- يا إله السموات، أين المفر من هذا الجنون؟!

أغمض عينيه ممسكاً رأسه بيديه، يشعر بالدوار، لا يقين يمسك في اليد، الأحلام رسول للواقع تحمل مدلولات الغد ولكن هل هذا حلم؟ فتح عينيه، يمتد البحر أزرقَ مائلاً إلى الخضرة حتى يلتقي بالأفق، الرمال من تحته بيضاء من غير سوء، الصخرة التي تغطيها الطحالب يقف عليها نورسٌ يحكّ بمنقاره أسفل جناحه الأيسر

- إني أراه يقف على الصخرة ولكنه يحكّ تحت جناحه الأيسر.

ابتسمت وهي تنظر نحوه

- لأنك تعتقد أنها خطوتك الأولى، قلت لك لا تثق في الذاكرة.

تلفّه الحيرة

- لم آتِ هنا قبلاً، أنا واثق من ذلك.

- أغمض عينيك الآن.

يستجيب في تردد، يصله صوت الموج وهو يقبل شفتي الشط، الريح تعبر من خلاله، تداعب خلاياه واحدة بعد أخرى، ثم تنثني مكملة مسيرتها، يتردّد صدى نعيق النورس في الفضاء.

- افتحهما الآن.

يفتح عينيه ويشمل المكان بنظره، لم يتغير المشهد، صاح في دهشة وهو يشير إلى النورس:

- إنه يحكّ تحت جناحه الأيمن الآن.

تبتسم في ثقة قائلة:

- اجتزنا الخطوة الأولى بنجاح.

- ولكن إلى أين المسير؟

- ألم يخبرك الأب؟

- ومَن الأب؟

يرتفع في الفضاء، كأن يداً خفية تجذبه بقوة هائلة فيصرخ متوسلاً:

- ومَن الأب؟

يتحوّل المكان إلى نقطة زرقاء تميل إلى الاخضرار، يحيط بها الأبيض إحاطة السوار بالمعصم، ينغمس في جنون الألوان وتمردها، تلقي به اليد في قوّة هائلة، فيبلغ مجمع الألوان حيث تصبّ كلّها

داخلـه، يجذبـه كأنـه قطـرة شـفّافة فيعـبر إلى الفـراغ، إلى الـلاشيء، بـدلاً مـن الحـيرة تشـمله طمأنينـة العـالم وهـو المكبـل بالجهـل.

- لكن مَن الأب؟

لا تعـبر الجملـة مـن شـفتيه، ولكنهـا تطـرق أبـواب الذاكـرة في لطـف، تحـرك مزاليجهـا العصيـة، مثـل بـرق خاطـف يـرى الأَسرّة، ممـدد هـو عنـد السريـر الثـاني، بجـواره طفلـة، كأنهـا ذاهبة في غفـوة طويلـة، توليه ظهرهـا الجميـل الـذي يشـبه أغنيـة تهمـس بهـا الملائكـة في أذن الكـون، يختفـي المشـهد كـما أتـى، ليـس مثـل إسـدال السـتار، ولكـن مثـل مباغتـة العمـى في منتصـف النهـار.

(٦)

النوافـذ ليسـت رسـول الأمـل ولا عـدو القبـح، في أحايـين كثـيرة لا تهديـك سـوى الإحبـاط، وتسـلمك لحنظـل الذكريـات، سـقف الغرفة المرقـع كثـوب الدرويـش، تسـاقطت طبقـة الأسـمنت مـن أجزائـه، فتـبرج الطـوب الأحمـر وكأنـه مطـلي بالرمـاد، وهـو مسـتلق عـلى ظهـره، ناظـراً إليـه لسـاعات وسـاعات، لم يكـن يبـصره، كأنـه شاشـة تعكـس ذكـرى تلـك الليلـة التـي كانـت بدايـة لـكلّ شيء، ونقطـة الانطـلاق في طريـق لا عـودة منـه، ذهبـت طيـف وكلّ يقـين محيـط بـه تحـوّل إلى شـكّ، طيـف التـي تخـترق الأبـواب، وتجلـو الصـدور وتدرك النوايـا، طيـف المتحـرّرة مـن حبـات الـذرة، تبحث عميقـاً لتخـرج سِرّه الكبـير وتنـشره في الهـواء الطلـق، تـرى لـو علـم النـاس أنّه يـري حبات الـذرة تتراقـص في أعناقهـم، هـل سيسـلم منهـم ومـن سـخريتهم؟ نعـم النـاس أعـداء مـا يجهلـون، وحتـى وإنْ علمـوا يقينـاً بصحـة مـا يـرى لأنكـروه، فهـم إنْ نجـوا مـن مغبـة الجهـل فلـن ينجـوا مـن شرك العـادة، وهـو جالـس في أصيـل ذلـك اليـوم، في أريكتـه الرماديـة، بعـد أنْ غادرتـه طيـف رأى حقيقـة مـا تغـاضى عنـه كثـيراً، لمـاذا وكيـف يرى حبـات الـذرة ملتصقـة بالأعنـاق؟ لمـاذا هـو وليـس غـيره؟ (هـل أنـا

مختل مريض؟ ربّما أنا أسطورة من أساطير بلاد السين، اخترعتني مخيلة جدّة خصبة وهي تسامر أحفادها ليلاً، قد أستيقظ صباحاً فأجدني غيمة تلتحف السماء ثم تهطل في أرض غير هذه، أنا مختلف، لست مثلهم، وربّما لست منهم، أنا من أناس يرون حبات الذرة تتراقص في الأعناق، أنتمي إلى هناك، حيث الرقص واجب، وليس هواية ولغة للتوسل والإرضاء لا للتقارب).

عندما غفا تسلل الحلم من تلافيف ذاكرته، كأنه يتذكّر حلم ما، أو يحلم بذكرى بعيدة، كانت العجوز لا زالت جالسة في مكانها، ومجاري الدمع منها مبتلة، عودها الجاف كان ينكت داخل جحر النمل، تنكت في إصرار بحثاً عن حبات الذرة المختبئة هناك، وخلفها كان يسكن اليباب والموت، موتى يحملون أموات، كان يبدو كشمس صغيرة وهو يدنو من الأرض، توقف النورس الأبيض الضخم في قبّة السماء، فَرد جناحين بسعة الأفق، فتجمع السحاب، ثم نظر لليباب من تحته فاستحال خضرة ممزوجة بسنابل الذرة الذهبية، التي اشتعل رأسها شيباً، فغطت الأفق من خلف المرآة، عندما استيقظ من الحلم الأول، رأى لأول مرّة حبة الذرة ملتصقة بعنق أحدهم، كانت صغيرة مثل نتوء جلدي شفاف، قد لا تلفت الانتباه في أول الأمر، رآها في عنق أمّه ثم في أعناق إخوته، وقف أمام المرآة فوجدها ملتصقة بعنقه في يسر، وكأنها وجدت هناك منذ الأزل، وعندما لمسها بيده انثنت في رشاقة ودلال، (لا بُدّ أنّ النورس قد وزّع حبات الذرة علينا جميعاً عندما

كنت نائماً) ركض نحو أمّه وتسلّق ظهرها محاولاً تلمس حبة الذرة خاصتها، بدا عليها الانزعاج وهي تبعده عنها، سألته عمّا يفعله، قال لها:أود أنْ ألمس حبة الذرة التي أهداك إياها النورس، ربّما اعتبرت ما يقوله هذيان طفل صغير فتجاهلته، وكذلك أخوته، شطح الخيال بالطفل حتى ظنّه حقيقة، صمت على مضض ولكنه شكر النورس في سِرّه على كريم عطائه، وتأكّد أنّ ما رآه في الحلم كان حقيقة لا جدال فيها، فهم وقتها أنّ حبة الذرة الملتصقة بالعنق مثل سنام الجمل، تحارب الجوع فتصرعه، وكلما رآها تكبر في عنق أحدهم، جزم بجلده وصبره، تلك كانت خيالات طفل ولكن الحقيقة المجردة أنّه ومنذ تلك الليلة التي لم يتجاوز فيها أربعة أعوام، أبصر حبات الذرة تتراقص في الأعناق، ولم تختف بعد ذلك، تعلّم الاحتفاظ بسِرّه الصغير بالطريقة الصعبة، الفضول الذي كان ينتابه كلما رأى واحدة بلون جديد فيمد يديه، ألحق به هذا الأمر الكثير من الأذى، فتعلّم الصمت، وغضّ الطرف، وعَلِم فضيلة الجهل فتجاهل، ومأزق البصيرة فتعامى، ومرّ العمر وصارت حبات الذرة من المعالم المميزة لكلّ شخص، مثلها ومثل العينين والأنف والفم، فلكلّ واحد حبته التي تميّزه عن غيره، كون معاييره الذاتية في جمالية حبة الذرة الخاصة بكلّ فرد، فحبات الذرة ذات الحجم المتوسط، والألوان الفاقعة، ذوات القشرة المشدودة، هي الأكثر جمالاً، وتنتشر في بداية العمر، حتى منتصف الشباب، ثمّ تبدأ في الترهل، وتبدأ قشرتها في التجعد،

ويضحي لونها داكناً أو باهتاً، بالطبع كانت هناك استثناءات، فقد تجد أحدهم في أول الشباب ولكن حبته هرمة، وآخر في منتصف العمر، ولكن حبته تتألق في عنقه مثل شمس صغيرة، ثم تفاجأ عندما وجدها لدي الكلاب أيضاً، الكلاب المنزلية الأليفة تحديداً، كانت تقبع في منتصف الرأس بين الأذنين، شفّافة اللون، تهتزّ مع الذيل بذات الإيقاع وتهمد معه، غيابها في الكلاب المتوحشة، والقطط المتمردة والدجاج، والحمير، وغيرها من الحيوانات، مع امتلاك الكلاب المنزلية لها كان محيراً، ولكن ما أدهشه حقّاً غيابها من أعناق المجانين، وكانت الدهشة العظمى عندما أتت طيف وعنقها متحرّر من أسر حبة الذرة الأبدي.

صباح ذلك اليوم انتشرت شائعة اختفاء (الأمباز)، عندما ركب الحافلة في طريقه إلى العمل، كان الجدال على أشده بين الركاب، اختفاء الأمباز يعني موت كثير من الخطط القصيرة المدى والطويلة المدى من أجل الثراء، أو على الأقل تجنب الفقر في بلاد السين، الشريحة العظمى من الفقراء يمارسون مهنة لها صِلة بالحمير، تقرب أو تبعد، يقع في قمّة هذا الهرم سائسي الحمير بالطبع، وعند هؤلاء لا بُدّ من توفر مواهب خاصة لا تجدها إلا نادراً، فهم الأقدر على فهم الحمير، ومزاجها المتقلِّب، ولهم موهبة خاصة في تهدئتها، وتحفيزها، لإخراج الطاقة الكامنة داخلها، وهؤلاء يصعد نجمهم بقدر صعود نجم الحمار الذي يسوسونه، سائس المكادي، أسقط الناس اسمه وصار يعرف بالسائس فقط، فحين تنطق

كلمة السائس معرّفة بالألف واللام فهو المقصود، وليس المهنة وكان هذا إقراراً بموهبته وعلو كعبه، السائس مشى طريقاً طويلاً مليئاً بالعثرات والمصاعب، حتى وصل لتلك المرتبة الرفيعة، فقد ظهرت موهبته في السباقات المحلية التي تُدار برهانات صغيرة، بعيداً عن أعين السلطة، كان الحمار الذي يشرف عليه هو حمار الرهان مهما ضعفت مقدراته وهمّته، بل يروى أنه ذات مرّة أشرف على حمار أعرج، في واحدة من شطحاته المجنونة كعبقري فريد، ففاز الحمار في السباق مما خلق له شهرة واسعة، أهّلته ليكون سائساً لحمار من الحمير المرشحة للمشاركة في مهرجان السباق السنوي للحمير، ممثلاً للإقليم الغربي، كان حماراً صغيراً مغموراً، ولكنه يملك مستقبلاً باهراً بحسب رأي الخبراء، وقبل السائس والحمار الرهان، وخاضا السباق معاً، لم يقف الأمر في ذلك العام على فوز الحمار فقط، ولكنه حقّق رقماً قياسياً في مهرجان الحمير، لم يسبق تحقيقه سابقاً، فطبقت شهرة السائس الآفاق، وسرت شائعة لا مجال لتأكيدها أنّه يخاطب الحمير مخاطبة البشر، ويفهم لغتها، ويدرك المعنى المقصود من طول نهيقها، وقصره، وتقطعه، وبحته، ورقته، وانقطاعه المفاجئ، ومده المتصل، وما إلى ذلك من لغة الحمير التي لا نحيط بها علماً، على كلٍّ تمّ استدعاؤه بصفة شخصية إلى القصر الجمهوري، ومنذ ذلك الوقت ظهر الثنائي الأسطوري، السائس والمكادي في مهرجان سباق الحمير السنوي، محتكرين البطولات بشكل كامل ليحقّق السائس مجداً لم يحققه من

قبلـه سـائس آخـر.

كانـت مهنـة سـائس الحمـير تقـع في قمّـة الهـرم الاجتماعـي للمهـن في بـلاد السـين، لـذا فهـم الأكثـر شـهرة، واسـتضافة في القنـوات التلفزيونيـة المختلفـة، والصحـف السيارة، كـما أنّ الإعـلام يتجـاوز ذلـك فيترصـد أخبارهـم الخاصـة، للجمهـور الشـغوف بمعرفـة كلّ تفاصيـل حياتهـم، تحـت السـائس يقـع المسـاعدون، الذيـن يهتمـون بالحـمار، ونظافتـه وأكلـه وشربـه، وتوفـير كلّ سُـبل الراحـة اللازمـة مـن أجلـه، تجـد أحدهـم يظـلّ مسـاعد سـائس لسـنوات طويلـة، في انتظـار اليـوم الـذي يـشرف فيـه عـلى السـباق ممسـكاً بسـوط رفيـع، مرتديـاً جلبابـاً يضيـق عنـد الوسـط، ويحـزم بحـزام مـن الجلـد، وآخـرون منهـم يحبـون مهنتهـم هـذه، ويخلصـون لهـا، ولا يسـتبدلونها بمهنـة السـائس، فتجدهـم يتبحـرون في الخلطـات السريـة لأكل الحـمار، ومقاديـر توفـير الأمبـاز، والـردة، ومـذاب السـكر، ودقيـق الـذرة، لخلـق المزيـج السـحري الـذي يجلـب الطاقـة للحـمار، بـل إنّ الخلطـات تتفـاوت حسـب طـول السـباق ونوعـه، وفي أي فصـل يقـع مـن فصـول السـنة، فتجـد الـرّدة اختفـت لعلّـة مـا، وزاد دقيـق الـذرة لأخـرى، وتـم سـحب مـذاب السـكر وغيرهـا مـن المتغـيرات التـي يدركـون هـم فقـط أسرارهـا، وفعاليتهـا ولكـن في وسـط كلّ هـذا يظلّ الأمبـاز هـو العلـف الأسـاسي الـذي لا يمكـن التنـازل عنـه، لأهميتـه العظيمـة في رفـع الطاقـة للحمـير، كـما تجدهـم يعتنـون عنايـة عظمـى بنظافـة الإسـطبلات وتعطيرهـا وتهويتهـا وإضاءتهـا التـي تخفـت

وتزيد بحسب الحالة المزاجية للحمار، بغض النظر عن الوقت ليلاً أو نهاراً، وغيرها من التفاصيل المتناهية في الصغر التي لن تحيط بها علماً، والتي تمنحهم هذه المكانة المميزة والدخل الوفير، ثم يأتي عمال النظافة ومجهزو الخلطات الذين يطمحون في الترقي لرتبة المساعدين في يوم ما، في حين أنّ هناك فئة أخرى تعمل على توفير المواد الغذائية الخاصة، بالحمير فتجد تجار الرّدة، وتجار الأمباز، وموردي السكر، والصابون، ومعدات النظافة الخاصة بالإسطبلات، والشامبوهات، وسوائل الاستحمام، وزيوت المساج، وهذا جيش خاص، يعمل فيه العشرات من الموردين، وكبار التجار وصغارهم، ومحاسبين، وعمال وحمّالين، وغيرها من المهن التي لا بُدّ منها، ثم تأتي طبقة الكشّافين، وهؤلاء أشبه بالجوالة، يقطعون البلاد طولاً وعرضاً، بحثاً عن الحمير التي تحمل جينات النجاح، ولهم مقاييسهم الخاصة في تقييم الجحش الصغير، والحمار البالغ ومدى نجاحه، ترتبط تلك المقاييس بكثافة ذيله، وطول أذنيه، واصطفاف أسنانه، واستدارة حافره، وغيرها مما لا يكتسبه أحدهم إلا بعد سنين من المثابرة والعمل والخبرة، وعندما يجدون ضالتهم يتنافسون بينهم، ويغالون في ثمنها ويشتطون، وقد يصل الأمر للخصام بل والاقتتال، من أجل جحش لا يتعدى عمره ستة أشهر، فيدخل وسطاء الصلح، وقد تتمّ الشراكة في الامتلاك لحلّ المشكلة، وغيرها من الحلول الأخرى، وهذه معركة تمتد بطول بلاد السين وعرضها، فيجتهد الحالمون في تربية الحمير،

وتوفير حاجاتها المتعدّدة بشقّ الأنفس، بحثاً عن قفزة الثراء التي قد تضرب مرّة في العمر، ولهذا فأنت تجد في كلّ بيت من بيوت بلاد السين، إسطبلاً يصغر حجمه أو يكبر، وله سائس خاص، أو يهتم به صاحب البيت نفسه، كلّ بحسب مقدرته وطاقته.

اختفاء الأمباز يشكل هزّة عنيفة في هذا العالم المترابط، تداعياته تشبه تدحرج كُرة الثلج العملاقة، لتطيح به في نهاية الأمر، فسيؤدي ذلك لخفض طاقة الحمير، وشهيتها بشكل كبير، مما يؤثر على مستوى المنافسة بشكل عام وبالتالي على مستوى المتابعة والمراهنات، ومن ثمّ الاهتمام الإعلامي، وبالتالي العوائد بشكل عام، مما سيؤدي لتقليص النفقات، وانخفاض مستوى الخدمة المقدّمة للحمير نفسها، وهذا سيؤثر على الجيش الجرار الذي يقتات على نشاط الحمير بشكل أساسي، من تجار وموردين وموظفين وعمال ومستكشفين، حيث إنّ العوائد المتوقّعة من بيع المواهب المكتشفة، لن تكون مجزية كما كان سابقاً، وبالتالي سيقلّ الاهتمام بالبحث عنها، مما سيخنق أحلام السينيين بطول البلاد وعرضها، الذين تلتهم إسطبلات الرعاية المعتادة في منزل كلّ واحد منهم قدراً كبيراً من دخله الشخصي، وأول تأثيرات الشائعة كانت الهجمة الشرسة على مستودعات الأمباز في أسواق العلف، في مختلف مدن السين، وتضاعف أسعاره تتالياً، حتى وصل سعر إردب الأمباز لأرقام فلكية، وبعد مضي عدّة أيام فقط لم يعد يباع الأمباز بالإردب، فسعره لم يعد مطاقاً بحسب الدخل المادي

المتواضع للسينيين بشكل عام، وبدأ واضحاً أن هناك أزمة كبرى بدأت ملامحها في التشكُّل في سماء بلاد السين الشاسعة.
بدأت القنوات التلفزيونية في عرض الأسعار اليومية للأمباز، مع عقد لقاءات مع التجار، والموردين في الأسواق المحلية، على الهواء مباشرة، ومن خلفهم تظهر المحلات ممتلئة بجوالات الأمباز، من أجل بثّ الطمأنينة بين المواطنين، ولكن في حقيقة الأمر، لم يكن الأمر كذلك، فعند ذهابك للسوق، لا تجد قطعة واحدة من الأمباز في المحلات، بدأ الجميع في التذمر، وانتشرت الشائعات بأن السبب الأساسي هو الحرب بين بلاد السين والعين، مما سبب استهلاكاً أعلى للأمباز، بديلاً لرحلة الماشية صيفاً إلى بلاد العين، كما أن فشل الموسم الزراعي للفول السوداني والسمسم في العام السابق كان له أثر كبير في تفاقم الأزمة، تحدث آخرون عن جشع التجار المعتاد، واستغلالهم للأزمة من أجل رفع أسعاره لأضعاف مضاعفة، وقامت وزارة الثروة الحيوانية بإصدار قرار تمّ تعميمه على جميع الوسائط الإعلامية، بأنّ جميع مَن يثبت تخزينه للأمباز فسيعرض نفسه للمساءلة القانونية، وسيصادر المخزون ويورّد لمخازن الدولة، ثم أعقب ذلك حملة مسعورة تكوّنت بالشراكة بين وزارة الوفرة والداخلية، للتفتيش على مخازن الأمباز بطول بلاد السين وعرضها، وأسفرت تلك الحملة عن القبض على عدّة تجار، ومصادرة المخزون، ولكن العائد لم يستطع سد العجز الكبير في الأمباز، غير الشائعة التي سرت بين الناس أن الحملة كانت

بغـرض تصفيـة الحسـاب مـع تجـار معينـين، لأغـراض بعيـدة عـن توفـير الأمبـاز، وبـدا ألا أحـد يملـك حـلاً جذريـاً للمشـكلة.
عـشرات البرنامـج الحواريـة استضافت سـائسي الحمـير، وكبـار تجـار الأمبـاز، والموردين وغيرهـم، وتـمّ تقديـم الكثـير مـن المقترحـات، والتـي كان بعضهـا مضحـكاً لحـدِّ الرثـاء، أحـد الموردين ناقـش إمكانيـة غـش الحمـير، بتجهيـز شـبيه الأمبـاز مـن الـرّدة، لحين حـلّ المشـكلة، خاصـة وأنّ الحمـير لـن تـدرك الفـرق لغبائهـا، كان الاقـتراح مسـلياً إلى حـدٍّ كبـير رغـم غبائـه، في استضافة لاقتصـادي يبدو مـدركاً جيـداً مـا يقـول، نبـه إلى أنّ الأمـر أكثـر خطـورة ممـا يظـن الكثـيرون، ولـو لم يتـمّ حـلّ المشـكلة بشـكل سريـع وحاسـم، فسـيؤدي هـذا إلى تباطـؤ دورة رأس المـال، وبالتـالي تباطـؤ عجلـة الاقتصـاد الوطنـي، ممـا سـيؤدي إلى ارتفـاع معـدّل التضخـم، ثـم قـام بعـرض رسـوم بيانيـة توضيحيـة، تمتلـئ بالخطـوط المسـتقيمة والمنحنيـة، توضـح العلاقـة بـين منشـط سـباق الحمـير ببقيـة مكوّنـات الاقتصـاد السـيني، ومـدى عمق تأثـيره وخطورتـه، وفي اليـوم التـالي دُبِجـت الصحـف بحديـث رجـل الاقتصـاد وتـمّ التسـليم بـأن قضيـة (الأمبـاز) تعتـبر قضيـة رأي عـام.
بـدأت أسـعار الحمـير في النـزول بشـكل متتابـع ومريـع، والـكلّ يـود التخلـص مـن الحمـير التـي بحوزتـه، مـع تفاقـم الأزمـة، فـزاد حجـم المعـروض مـع قلّـة الطلـب، بـدأ الأمـر عنـد محـدودي الدخـل، الذيـن أثـر ارتفـاع سـعر الأمبـاز بشـكل مبـاشر عليهـم، فآثـروا التنـازل عـن أحـلام الشـراء لعجزهـم عـن توفـير الأمبـاز، فعرضـوا حميرهـم للبيـع،

ثـم أتبعهـم متوسـطي الدخـل، ولكـن تعاظـم حجـم المعـروض مقارنة بالطلـب، فبـدأ البعـض في تسريحهـا في الشـوارع، وأضحـى مـن المعتـاد رؤيـة قطعـان الحمـير المتجمعـة في أطـراف الأحيـاء، في منظـر يحـرك الأسـى في النفـوس، وفجـأة بـدأت قطعـان الحمـير في الاختفـاء، وانتـشرت شـائعة بـأن الحمـير أضحـت تذبـح ويبـاع لحمهـا في الأسـواق، تفشّـت الشـائعة بسرعـة لم تـدع المجـال لتكذيبهـا، مـع زيادة نقصـان أعـداد الحمـير بشـكل يومـي في الشـوارع، فعـزف النـاس عـن شراء اللّحـوم، وانهـار قطـاع اللّحـوم الحمـراء بشـكل كامـل، وتدنـت أسـعاره لاحقـة بأسـعار الحمـير في معـترك الأزمة، عنـد مرورك بسـوق (كـما هـو)، تجـد طـاولات القصابـين ممتلئـة باللحـوم، وينـادي عليهـا بأصـوات منغمـة وجاذبـة، ولكـن مـا مـن مشـترين، بـل وصـل الأمـر بأحـد القصابـين، للإمسـاك باللّحـم وعضـه نيئـاً أمـام المـارة، سـعياً لإقناعهـم بأنـه لحـم بقـر خالـص، إلا أنّ المـارة اكتفـوا بالدهشـة ثـم الضحـك والسـخرية، ولم يجازف أحـد بالـشراء، بعـد أيـام قليلـة تدنت أسـعار الخـراف والماشـية، والأزمـة تتمـدّد كلّ يـوم، محققـة نبـوءة ذلـك الاقتصـادي بشـكل دقيـق، وهنـا كان لا بُـدّ مـن تدخـل الأم الـرؤوم بشـكل عاجـل.

ظهـر وزيـر الثـروة الحيوانيـة ليطمئـن الشـعب بـأن الحمـير قـد تـمّ جمعهـا في إسـطبلات ضخمـة، خاصـة بـالأم الـرؤوم، وأنّ الـكلام عـن ذبحهـا مـن أجـل بيـع لحومهـا مجـرد شـائعة مغرضـة، وعـلى النـاس شراء اللحـوم باطمئنـان كامـل، أعقـب ذلـك ظهـور وزيـر الوفـرة،

مبـشراً باسـتيراد كميـات كبـيرة مـن الأمبـاز، مـن عـدّة دول لسـدِّ النقـص في الأسـواق، وسرعـان مـا توفـر الأمبـاز المسـتورد في طـول بـلاد السـين وعرضهـا، مصحوبـاً بحملـة دعائيـة ضخمـة للـشركات المـوردة عـلى القنـوات التلفزيونيـة، وبـدأ يظهـر قطـاع جديـد مـن مـوردي الأمبـاز المسـتورد، بوجـوه جديـدة ومسـميات حديثـة مثـل شركـة (أمبـازك للتجـارة المحـدودة) أو (الأمبـاز علينـا للأعـلاف) وشـعارات مثـل (أمبـاز لـكل حمـار) و(أحـلى أمبـاز لحـمار ممتـاز) مزيحـاً الوجـوه القديمـة لتجـار الأمبـاز والموردين، الشـعور المتعاظـم بالارتيـاح مـن توفـر الأمبـاز للقلّـة التـي حافظـت عـلى حميرهـا، برغـم الأزمـة الطاحنـة، قابلـه قلـق أكـبر، وإحسـاس بالنـدم للفئـة العظمـى التـي تخلصـت منهـا، وبـدأ الحديـث عـن اسـتعادة الحمـير مـن إسـطبلات الأم الـرؤوم همسـاً، ثـم تحـوّل الهمـس إلى ضجيـجٍ عـالٍ، وصـل إلى أذن النوافـذ الإعلاميـة، فبـدأ الحديـث عـن إرجـاع الحمـير إلى أصحابهـا بعـد انجـلاء الأزمـة، ظهـر وزيـر الثـروة الحيوانيـة بشـكل متتابـع في عـدّة قنـوات، وهـو يناقـش صعوبـة تحديـد أصحـاب الحمـير، لأنّهـا مجهولـة الهُوّيـة ولا يعـرف بالضبـط مـن هـم ملاكهـا، ممـا سـيفتح بابـاً كبـيراً للاحتيـال والخصومـات، التـي يصعـب البـت فيهـا، وأنَّ عـلى المواطنـين الالتـزام بالهـدوء لحـين وصـول الأم الـرؤوم إلى حـلٍّ مـرضٍ للجميـع، تبـع حديـث وزيـر الثـروة الحيوانيـة صمـت قلـق في انتظـار مـا ستسـفر عنـه الأحـداث.

يبـدو أن غيـوم الأزمـة لم تنجـل تمامـاً، مـع الارتفـاع العـالي لأسـعار

الأمبـاز المسـتورد، وتضجـر المواطنـين، رغـم توفـر المعـروض منـه، وجـاء ردّ الأم الـرؤوم سريعـاً مـن وزارة التجـارة، بـأنّ الأمباز المسـتورد تكلفتـه أعـلى، ولكـن أسـعار بيعـه تعتـبر رغـم ذلـك أعـلى مـن المتوقع، لـترد الأمـر إلى جشـع التجـار، والبحـث عـن الثـراء السريـع، ووعدت بإنشـاء سـوق مدعومـة لبيـع الأمبـاز بأسـعار مخفضـة قريبـاً، ولم يمـض يومـان حتـى نصبـت الخيـام في سـاحة الأحـكام، وزيّنـت باللافتـات البيضـاء، المخطـوط عليهـا باللـون الأحمـر (مركـز البيـع المخفـض للأمبـاز والأعـلاف) وحقيقـة الأمـر لم يكـن السـعر منخفضـاً بشـكل كبـير، ولكنـه أقـلّ مـن السـعر السـوق عـلى الأقـلّ ولـو بفـارق بسـيط، نقلـت القنـاة الرسـمية افتتـاح السـوق، وأطنبـت في مـدح الحلـول السريعـة والمرضيـة التـي تقدّمهـا الأم الـرؤوم في تذليـل العقبـات، مـن أجـل رفاهيـة بـلاد السـين والسـينين.

عـلى كلٍّ لم يكـن الأمبـاز المسـتورد بـذات جـودة الأمبـاز المحـلي، أو قـد يكـون أكثـر جـودة، ولكـن الحمـير لم تتقبـل طعمـه لسـبب خـاص بها، وكان هـذا واضحـاً مـن قلّـة إقبالهـا عليـه، ولكـن أصحـاب الحمـير آثـروا الصـبر عـلى الوضـع، وهـم يـرون القلـق المتصاعـد مـن الفئـة العظمـى مـن المواطنـين، التـي لم تعـرف مصـير حميرهـا بعـد، مـع صمـت الأم الـرؤوم المريـب، وبـما أنّ للصـبر حـدود، فقـد عـادت الأغلبيـة الصامتـة للهمـس حـول مصـير حميرهـا، ثـم ارتفـع الهمـس إلى ضجيـج، وعـادت الصحـف والقنـوات التلفزيونيـة للحديـث حول الأمـر، ولكـن الـرّد الرسـمي كان موجـزاً لا زال الأمـر قيـد البحـث

سعياً للوصول إلى أفضل طريقة تضمن حقوق الملاك.
الحراك الإيجابي لتلك الفئة، شجّع الفئة الأخرى على التحرك، مصرحة بتدني جودة الأمباز المستورد، وظهر أنّ الفئتين تدعمان بعضهما البعض، من أجل الوصول إلى حلول أفضل للمشكلة القائمة، بدأ الأمر بظهور تجمعات صغيرة بالقرب من إسطبلات الحمير، ثم بدأت في التزايد مع صمت مريب من الأم الرؤوم، كما بدأت في الانتشار بشكل سريع في الأحياء، والأسواق، مكتفين في البداية بالرقص، والنهيق، وارتداء أقنعة مطاطية لرؤوس الحمير، ثم أعقب ذلك ظهور لافتات خجولة تطالب بعودة الحمير، وأخرى تتمنى عودة الأمباز المحلي، ثم بدأت الهتافات تتعالى، فأصبح من المعتاد سماع عبارات مثل (الحرية للحمير) (لا ولاء ولا تصفيق نحن نموت فدا النهيق) (الحمار شرف المواطن) ثم ظهر في التجمعات ضاربو الطبل، وعازفو الناي، والرقاصون، والمهرجون، ومقلدو نهيق الحمير، يقود هؤلاء طليعة المجتمع اللصيق بالحمير، من ساسة، ومساعديهم، وقدامى التجار، والموردين والكشافين، إضافة لملاك الحمير، والفضوليين، والنشالين، وبدأت كالمعتاد المراهنات في الظهور عن مصير تلك المظاهرات، ومدى استجابة الأم الرؤوم لطلباتها المتعدّدة. صدر بيان مقتضب من وزارة الثروة الحيوانية جاء فيه:
((التجمعات التي تخرج إلى الشوارع مكونة من فصيلين، أحدها يطالب بالحمير، والأخر يطالب بتغيير الأمباز، سينظر في أمر

الحمير التي بيد الأم الرؤوم، وسيوجد لها حلّ بالطبع ولكن المطالبين بتغيير الأمباز سيتمّ التعامل مع تفلتهم بحزم، رجاء من أصحاب الحمير عدم الاختلاط بجماعة الأمباز، حتى لا يؤخذ البريء بذنب المجرم، الأمباز المستورد تم إطعامه لحمير الملّاك التي بحوزة الأم الرؤوم، كما تمّ إطعامه لحمير الأم الرؤوم أيضاً، وقد التهمته برضاً كامل، وهذا دليل مباشر على الرغبة في إثارة القلاقل بواسطة هذه الجماعة لأسباب بعيدة عن إطعام الحمير، وهذه مناشدة من الوزارة لملاك الحمير التي بحوزة الأم الرؤوم، بعدم الانصياع لهذه القلة، كما نطمئنهم بأننا نعمل على حل المشكلة في أقرب وقت)).

تصله طقطقة مروحة السقف مع صوت التلفاز، ينسل العرق فاراً من جسده إلى جسد الأريكة المبتل، أطرافه مناديل ورقية تحلّق في الصالة بعيداً عنه، يرغب في الذهاب إلى الحمام، مثقلاً بالعرق ذهب إلى هناك، فتح الدش فغمرته المياه المخضرة، كأنها جلبت من بحر الرؤيا، سلّم نفسه لفيضان الماء فشهق من برودتها، رغم حرارة الجو، جرح نفسه وهو يحلق ذقنه، أعدّ كوباً من الشاي مع قطعتين من البسكويت المملح، لم يكن مستمتعاً بالمذاق ولكنه أكمله وهو يتابع برنامج (على الهواء)، اللقاءات مع جماعة الحمير وجماعة الأمباز، ومنح مساحة مقدرة لهم في الإعلام كان محيراً بالنسبة له، كأن الأم الرؤوم تنظر لما يحدث بعين الرضا، أو كأن كلّ شيء يتمّ لغرض غير مرئي بالنسبة له، ولكن الإعلام لن يمنح

تلك المساحة بدون رضا الأم الرؤوم وإذن منها، قال الرجل التابع لجماعة الحمير وهو يعقد يديه أمام صدره وينظر إلى الكاميرا في حزم:

- نحن كملّاك للحمير، نشكر الأم الرؤوم على محافظتها على ثرواتنا التي أهدرناها بسبب القلق والخوف من المستقبل، وهذا هو الدور المنوط بها، ألا وهو المحافظة على الشعب ومكتسباته، ولكن الآن يجب على الأم الرؤوم إرجاع الحمير لملّاكها، كما لا يفوتني شكرها على توفير الأمباز في السوق بوفرة وسرعة واقتدار، ومن هذا المنبر يجب عليَّ توضيح نقطة مهمة للجميع، لا علاقة بين جماعة ملّاك الحمير وجماعة الأمباز، نحن مطالبنا واضحة ولا علاقة لها بأي جماعات تخريبية، تسعى لزعزعة الاستقرار والإضرار بأمن البلد.

شكرته المذيعة، الفاصل الإعلاني كان محتشداً بأسماء الشركات المختصة بتوريد الأمباز، مع ظهور أسماء جديدة مثل (أمبازك بذات المذاق) (ونفس الطعم بشكل جديد) وغيرها من الأسماء، انتهى الفاصل الإعلاني وانتقلت الكاميرا لتنقل حواراً آخر، الرجل بعمره الذي يقارب الأربعين عاماً كان يبدو متردّداً وهو يفرّ بعينيه من الكاميرا ولكنه تحدث بصوت مضطرب قائلاً:

- نحن في جماعة الأمباز...

ثم استدرك بكلمات متعجلة ملوحاً بيديه

- ليس جماعة بالشكل الذي يخطر على بالكم، أنا أقصد ملّاك

الحمـير الذيـن حافظـوا عليهـا ولم يطلقوهـا في الشـوارع، كلّ مـا في الأمـر أنّ الأمبـاز المسـتورد لم تستسـغه الحمـير، نحـن هنـا مـن أجـل حـلّ المشـكلة وليـس لدينـا أي دوافـع أخـرى.

قاطعته المذيعة قائلة:

- ولكـن وزيـر الوفـرة أكّـد تقبُّـل حمـير المـلّاك المحتجـزة وحمـير الأم الـرؤوم للأمبـاز المسـتورد!

مسح الرجل عرقاً من جبهته بظهر كفه وقال:

- أنـا أتكلـم عـن حمـيري وكلّ واحـد مـن جماعـة الأمبـاز يتكلـم عـن حمـيره الخاصـة، وجميعهـم يؤكـدون أنّهـا لم تتقبّـل طعـم الأمبـاز الجديد!

ابتسمت المذيعة في خبث قائلة:

- ألم تنف قبل قليل وجود جماعة تحمل اسم جماعة الأمباز؟

بـدا عـلى الرجـل أنـه يتمنـى الفـرار مـن أمـام الكامـيرا وهـو ينقـل نظـره بـين الكامـيرا والمذيعـة ويمسـح العـرق مـن وجهـه...

- لا توجد جماعة بالمعنى الحرفي، هو مجرد مجاز يا سيدتي!

شكرته المذيعة ثم شكرت المشاهدين على المتابعة.

صباحـاً في طريقـه إلى العمـل، كانـت آثـار المعـارك الضاريـة التـي دارت بـين جماعـة المـلّاك وجماعـة الأمبـاز تمـلأ الشـوارع، لافتـات ممزقـة، دمـاء عنـد الأركان، كتابـات عـلى الجـدران بالطـلاء، المحـلات المغلقـة، الشـوارع شـبه الخاليـة، وعندمـا اقـترب مـن سـاحة الأحـكام وجـد تجمعـاً لجماعـة المـلّاك، ذهـل مـن العـدد الـذي يتمـدّد مـن سـوق (كـما هـو) حتـى حـدود السـاحة، تمتلـئ بهـم الشـوارع والأزقـة وسـاحات

السوق، يبدو عليهم الإنهاك من ليلة الأمس، بعضهم ذهب في النوم متدثراً بلافتته القماشية، وبعضهم لا زالوا يتجاذبون أطراف الحديث، كان يعبر بينهم محاذراً أنْ يطأ على أحدهم دون أن ينتبه، بالقرب من الساحة وقف أحدهم يخطب في جماعة التفت حوله، كان يقف على كرسي ورأسه ملفوف بقطعة من القماش، رسم عليها حمار مكبّل ويظهر الحزن على عينيه، وكان يتحدث في حماس عن المعركة التي دارت بينهم وبين جماعة الأمباز:

- هؤلاء الخونة لهم مطالب مغرقة في الترف، الناس يبحثون مشكلة الحمير التي بحوزة الأم الرؤوم، وأفضل السبل لاستردادها، في حين أنّهم يتحدثون عن المذاق السيئ للأمباز المستورد، لو كانت حميري بحوزتي لما أرقني مذاق الأمباز بأي حال من الأحوال، ولشكرت الأم الرؤوم على توفيرها للأمباز في هذه الظروف الصعبة، ولكن ما تقوم به جماعة الأمباز يعتبر إضعافاً للصف الواحد، وتشتيتاً لمطالب جماعة الملّاك، وأنا أؤيد رأي الأم الرؤوم في وقف تفلتهم، والتركيز على مشكلتنا الحقيقية وهي استعادة حميرنا في أسرع وقت.

ارتفعت الهتافات المؤيدة، بدأ التجمع في الازدياد، والمتظاهرون ينهضون من نومهم المتعب، وجلوسهم في الحلقات لينضموا لقافلة الهتاف، ابتعد عن المكان متجهاً نحو الوزارة، ساحة الأحكام كانت محتشدة بالعمال والحرفيين، الذين يعملون بجهد في تجهيز الساحة لعيد الثورة الذي تبقّى له يومٌ واحدٌ، كانوا مستغرقين في العمل تحت حراسة قوات الأمن الشعبي، رغم أن الهتافات

تصلهم في وضوح، في الجانب الآخر كانت جماعة الأمباز تتمركز بالقرب من الساحة من جهة سوق (كما هو) في جماعات صغيرة، تحيط بها قوات الأمن الشعبي، وتمنع المارين من الوصول إليها، كان يبدو أنّ المواجهة بين قوات الأمن وجماعة الأمباز مسألة وقت ليس إلا، نتيجة الصدام كانت معروفة ولا تحتاج للتخمين، عبر من خلال الجمع مبرزاً هُويته لأفراد الأمن الشعبي، وموضحاً وجهته لكلّ واحد منهم، وعند وصوله للوزارة، وجد الجميع يتحدث عن مستجدات الأحداث في مشكلة الحمير، دولاب العمل شبه متوقف، ولا حديث سوى عن الشائعات حول المشكلة، حين غادر الوزارة بعد الظهر، اضطر للرجوع إلى البيت راجلاً بسبب توقف المواصلات، وتزايد أعداد قوات الأمن الشعبي في الطرقات، عند مروره بالقرب من سوق (كما هو)، منعه أحد أفراد قوات الأمن الشعبي المحيطة بالسوق من جهة الساحة إحاطة كاملة من المرور، حاول أنْ يشرح له بأنّ هذا هو طريقه للمواصلات، لكنه كان صارماً وبدا نافذ الصبر وهو يشير إليه بالابتعاد، مشى وسط العشرات راجلاً وهو يبتعد عن المكان، كان الهمس يدور حول مذبحة كبيرة حدثت في سوق (كما هو)، طارد قوات الأمن الشعبي جماعات الأمباز إلى داخل السوق، وتمّ حصارهم هناك، يقال تم إطلاق النار في وسطهم، والضحايا بالعشرات، أحد الفارين من داخل السوق كان يبدو مرعوباً زائغ البصر، قال وهو يشير إلى الأرض:

-لقد سالت الدماء أنهاراً لقد خضت فيها بقدميَّ هاتين!

نظر إلى حذائه، كان متسخاً ومبتلاً، أكمل حديثه:

-مات العشرات، لقد نجوت بمعجزة، الرصاص لا يميز بين جماعة الأمباز الخائنة، وبيننا نحن العاملين في السوق، الرصاص كالمطر يحصد الكلّ، يحصد الكلّ!

بعد وصوله إلى البيت شرع في متابعة التلفاز، القناة الرسمية كانت تتحدث عن بيان مشترك، بين وزارة الوفرة ووزارة الثروة الحيوانية، سيبث قريباً، وتعلن عن الأمر في أوقات متقاربة، متخللاً أحداث البث المباشر التي تتابع أزمة الحمير وتصاعدها، في شكل حوارات مع مختلف الجهات التي لها علاقة بالأزمة، ظهرت المذيعة أخيراً وهي تنبّه المشاهدين للاستعداد لبثّ البيان المشترك بعد قليل، جلس مترقباً مثل الآلاف غيره، والموسيقى العسكرية تبثّ بإيقاعاتها القوية، ثم أطلّ وزيرا الثروة الحيوانية والوفرة، ومن خلفهما تظهر صورة كبيرة للمكادي كرمز لأزمة الحمير المستفحلة، ركّزت الكاميرا على وزير الثروة الحيوانية، الذي تنحنح وقلب الأوراق التي بين يديه ثم نظر إلى الكاميرا وشرع في الحديث:

-التحية لجماهير شعب السين الوفية الصابرة المؤيدة لمسار الثورة القاصدة، التحية لهم وهم يثبتون كلّ يوم تمسكهم بأهداف الثورة ووقوفهم خلفها سنداً وعضداً لكلّ ما يجابه مسيرتها من عواقب وأحن، ويسعدني في موقفي هذا أنْ أخبركم أنّ الأم الرؤوم ظلّت

في حالـة اسـتنفار واجتماعـات ومناقشـات خـلال الأيـام السـابقة سـعياً لحـلّ أزمـة الحمـير، وقـد تـمّ الاتفـاق عـلى الآتي:

أولاً: الأم الـرؤوم هـي المخولـة الوحيـدة لحـلّ هـذه المشـكلة ورؤيتهـا تُعتـبر ملزمـة لـكلّ أطـراف النـزاع مـن المـلاك.

ثانيـاً: اسـتحالة التأكيـد عـلى ملكيـة الحـمار في حالـة حـدوث نـزاع حولـه بـين المـلّاك، ممـا سـيفضي إلى كثـير مـن النزاعـات التـي تسـتغرق الزمـن والجهـد.

ثالثـاً: قامـت الأم الـرؤوم بنقـل ملكيـة جميـع الحمـير إلى الأم الـرؤوم، مـع بيعهـا بسـعر مدعـوم للمـلّاك في مـزادات علنيـة نزيهـة.

رابعـاً: اسـتخراج شـهادات ملكيـة للحمـير، تحمـل مواصفـات الحـمار كاملـة ودقيقـة واسـم المالـك، وعنوانـه مُفصّـلاً، للتأكيـد عـلى عـدم تكـرار الأزمـة مسـتقبلاً.

خامسـاً: يلتـزم المـلّاك بالتواجـد في أماكـن البيـع في الزمـن المحـدّد، والحـرص عـلى النظـام والابتعـاد عـن الفـوضى لضـمان انسـياب العمليـة البيعيـة.

انتقلت الكاميرا إلى وزير الوفرة الذي ابتدر الحديث قائلاً:

- بالنسـبة لأزمـة الأمبـاز المفتعلـة، ورغـم اقتنـاع الأم الـرؤوم بعـدم صحـة مـا تـوارد مـن شـائعات، وبعـد الضبـط الـلازم للتفلتـات الأمنيـة التـي قامـت بهـا جماعـة الأمبـاز خـلال اليومـين الماضيـين، فقـد قـررت وزارة الوفـرة الآتي:

أولا: التأكيد على توفر الأمباز المستورد في كافة أنحاء بلاد السين.

ثانياً: التأكيد على جودة الأمباز المستورد وخلوه من العيوب أو تغيُّر المذاق أو خلافه.

ثالثاً: من باب سدِّ الذرائع، رأت وزارة الوفرة توفير الأمباز المحلي بكميات مناسبة من المخزون الإستراتيجي للأمباز، وبيعه بسعر أعلى من سعر الأمباز المستورد، حتى لا يسبب ذلك خسائر لموردي الأمباز، الذين تشكر لهم الأم الرؤوم وقفتهم معها في الأزمة، وإيجاد الحلول الناجعة والسريعة.

رابعاً: بمناسبة أعياد الثورة المجيدة سيتمّ الإفراج عن المحبوسين من جماعة الأمباز، بعد توقيع التزامات بعدم إثارة الشغب، وذلك لضمان سعادة كلّ بيت في بلاد السين بأعياد الثورة المجيدة.

عاشت بلاد السين

عاشت الثورة

عاشت الأم الرؤوم.

أغلق التلفاز، هل الأمر كما يبدو عليه حقاً؟ لم يأتِ أحد على سيرة القتلى في سوق (كما هو)، الدماء التي سالت أنهاراً، الأُسر التي ستبيت اليوم بدون عائلها، اليتم الذي سيصيب الأطفال، مثله تماماً سيعريهم اليتم من الأب، والوزير يطلق سراح المحبوسين احتفالاً بالثورة، وماذا عن القتلى الذين ستوارى أجسادهم من دون أن تجد وداعاً لائقاً، شعر بالاختناق، خرج من البيت يبحث عن هواء نقي، زكمت أنفه رائحة الدماء التي يعبق بها الهواء، أرّخ عيد الثورة بيوم الذبح العظيم في ذاكرته، وهو ينطلق بعيداً عن رائحة الدم، بحثاً عن هواء بلا رائحة.

(٧)

بقايـا الزينـة المضيئـة في الشـوارع، والمعلّقـة عـلى الجـدران مثـل آثـار المسـاحيق في وجـه مومـس إثـر ليلـة سـيئة، حبـات الـذرة المتأرجحـة في الأعنـاق صغـر حجمهـا بشـكل ملحـوظ، أزمـة الحمـير والأمبـاز التـي تـمّ حلّهـا بشـكل جـذري، وإنْ خلّـف بعـض الخصومـات حـول ملكيـة الحمـير، تـمّ البـت فيهـا بالقانـون الجديـد، القـاضي بـأنّ أي ملكيـة سـابقة للحمـير تُلغـى ويعتـد بملكيـة الأم الـرؤوم، ومـن ثـمّ المالـك الجديـد، انسـياب الأمبـاز المحـلي في الأسـواق بأسـعاره الجديـدة جعـل البعـض يتـبرم، ولكـن كان هنـاك شـعور عـام بالارتيـاح لتوفـره بـدلاً مـن النـدرة التـي كانـت مهـدّداً خطـيراً للمجـال ككلّ؛ لـذا فبات مـن الملاحـظ رؤيـة الوجـوه الباسـمة، وتبـادل القفشـات والضحـكات في كلّ مـكان، كـما عـادت سـباقات الحمـير المحليـة لسـابق عهدهـا، مؤججـة المراهنـات بشـكل جنـوني، حتـى الـدم المـراق مـن شـهداء

الأمباز، في سوق (كما هو)، واراه تراب النسيان، مرض سقوط طقم الأسنان تحوّل لذكرى بعيدة، بعد معرفة علاجه، حتى الحكومة أقرّت لاحقاً بوجود المرض، وأضحت نشرات الوعي للتعامل معه تبث في أوقات متفاوتة في القنوات التلفزيونية.

يعقب أعياد الثورة التقرير السنوي لموازنة العام من الأم الرؤوم، الذي يبث طوال يومين في كلّ القنوات، ويحظى بمتابعة عالية من الجميع، وتُقدّم فيه تقارير المشاريع التنموية، ومدى التقدّم فيها عن العام السابق، والخطط التنموية للعام القادم، ومصادر تمويلها، كان من المعتاد أنْ يمر الأمر في انسياب ويسر، فوزير الطرق يتحدث عن الطرق التي عُبّدت، وسكك الحديد التي وصلت، ثم يأتي وزير العمل فيتحدث عن الوظائف، والفرص التشغيلية التي وفرت لخريجي الجامعات، وتدني نسبة البطالة إلى أدنى مستوياتها، ثم يعقبه وزير التعليم، فيتحدث عن المدارس التي أُنشئت، ونسب النجاح فيها، والبحوث المقدّمة من الجامعات، وغيرها من النجاحات، عندما أتى خطاب الموازنة في وسط هذه الغيبوبة، كان الكلّ يسمع من أجل الضحك والسخرية، كلّ حديث يأتي من مسئول كان سرعان ما يتحوّل لمادة للسخرية والهزل، الإدراك الجمعي لخلو التصريحات الرسمية من الجدية، جعلهم يتبارون في تحويلها إلى قفشات تجلب الضحكة، وتريحهم من وخز الفقر والجوع والمرض، تراهم يمارسون حياتهم في لا مبالاة من الغد، أو الخوف منه، يعيشون اللّحظة فقط، ولا يفكرون في المستقبل، فإن لم

يكـن مثـل اليـوم فهـو أسـوأ، تتابـع الأيـام يسـلم الجميـع إلى اسـتحالة تغيـير الواقـع، ولكـن يمكـن الإفـلات منـه بشـكل منفـرد، في حالـة تحقيـق حلـم الثـراء بمعجـزة مـا، وهـذا هـو مـا يدفعهـم للإغـراق في المراهنـات، وسـباقات الحمـير ورعايـة الحمـير، بحثـاً عـن ضربـة الحـظ التـي سـتأتي، وهـذا بالطبـع أحـال المجتمـع لأفـراد مغرقـين في الأنانيـة والذاتيـة، لا يبـالي أحدهـم في أنْ يطـأ عـلى عظـم الآخـر كـي يصـل إلى هدفـه، في وسـط هـذا السـعار المحمـوم، أتـى خطـاب وزيـر العمـل في موازنـة العـام كصفعـة في خـدّ الجميـع أيقظتهـم مـن سـباتهم العميـق.
عندمـا عـاد إلى بيتـه، وجـد طيـف موجـودة هنـاك، والبيـت في أعـلى حـالات ترتيبـه، في الأيـام السـابقة كان يترقـب قدومهـا في شـوق ولهفة وفضـول أيضـاً، فحـرص عـلى ترتيـب الشـقّة كلّ يـوم لتسـتقبلها في أفضـل صـورة، كـما كان مـصراً عـلى العثـور لإجابـات عـلى الأسـئلة التــي تحـيره وتتفـادى هــي الإجابـة عليهـا في براعـة، رأسـه يغـلي بالحـيرة، مكبّـل بالجهـل ومحـاط بسـتار النسـيان، يبحـث عـن اليقـين فـلا يجنـي سـوى السـراب
- لا أفهـم كلّ هـذا، مَـن أنـت ومَـن أنـا، بـل مـا نحـن ومـا الغـرض مـن اجتماعنـا ولأي هـدف نسـعى، مـاذا تريديـن منـي؟
نظر نحو طيف مكملاً:
- أنـت تشرعـين أسـئلة لا أملـك إجاباتهـا، تكلمينـي بالألغـاز وتختبئين في أحلامـي لتزيدينـي جهـلاً فـوق جهـلي، لمـاذا كل هـذا؟ مـا الغـرض مـن ورائـه؟

كانت تنظر نحوه مشفقة، جلست بالقرب منه وربتت على كتفه مواسية ثم قالت:

- أنا أنير لك الطريق، ولكن لا بُدّ من عبورك وحدك، أساندك في المسير، ولكن لا أصلح لأكون ساقيك، ألم تسأل نفسك لماذا أنت وحدك مَن يرى حبات الذرة المتراقصة في الأعناق؟

- ما يحدث الآن حقيقياً وليس حلماً.

ابتسمت وهي تنهض من مكانها قائلة:

- سيكون حلماً حين ترغب في ذلك، وسيكون عين الحقيقة حين ترغب أيضاً، كلّ شيء يتخلّق هناك بين تلافيف خلاياك الرمادية، وهي التي تضع الحدود وتفرض قوانين الواقع والخيال.

قال في صوت أقرب للهمس:

- أنتِ قلت هذا الكلام في حلم ما.

نظرت نحوه في عتاب، كأنه طفل لا يجيد التقاط الإشارات، أشرعت بوابات المعرفة في وجهه ثم أغلقت دفعة واحدة، للحظة أحاط بكلّ هذا علماً، ثم عاد إلى ظلام الجهل قبل أنْ يتيقن، إنْ كان بصيراً لأنّه يرى حبات الذرة تتراقص في الأعناق، وطيف تتنقل بين الحقيقة والأحلام، فما الحكمة من كلّ هذا؟ وما الذي يجمعهم؟ طوفان الأسئلة يجتاحه والإجابات تكمن خلف تلك الشفاه المطبقة.

- ليس صحيحاً، الإجابات مختبئة هناك.

نظر إليها في ذهول وهي تشير باسمة إلى رأسه هل هو حلم من

نـوع آخـر، أم هـي حقيقـة لم يدركهـا قبـلاً، كان متأكـداً أنّ شـفاهه لم تنطـق بكلمـة واحـدة، الأسـئلة كانـت تـضرم في عقلـه ولكنهـا أجابـت عليهـا جميعـاً بعبـارة واحـدة.

نظـر نحـو طيـف مسـتنجداً بهـا، أومـأت برأسـها في صمـت موافقـة، نهـض مـن مكانـه، كانـت الصالـة تضيـق بـه وتكتـم أنفاسـه، تلطمـه الحـيرة ويخنقـه الجهـل، يشـعر بالـدوار، البـاب بعيـد، في الشـط الآخـر بينهـما بحـر الظلـمات، طيـف قبطـان في سـفينة لا يعلـم وجهتهـا، ينظـر إليهـا فيشـعر بالاطمئنـان، وينظـر تـارة أخـرى فتشـمله الحـيرة، وثالثـة فيغـزوه الخـوف، هـذا طريـق وعـر لا يملـك القـوّة للمـشي فيـه، ولا الرغبـة أيضـاً، طالمـا ظـنّ حبـات الـذرة مُجـرد تسـلية، يضحـك عـلى تمدّدهـا وانكماشـها وتقافزهـا في جنـون عـلى الأعنـاق، تعـدّد ألوانهـا وتجعّـد جلدهـا وترهلهـا، ولكـن الحبـة تتسـع الآن لتبتلعـه، كأنـه ذرة غبـار في فـراغ حبـة الـذرة المتضخمـة بحجـم الصالـة والبيـت بمَـن فيـه.

ربّتـت طيـف بيدهـا عـلى كتفـه ثانيـة، ينـزاح مـزلاج الذاكـرة فتتسرب نتـف مـن حلـم بعيـد، النـورس كان يحلّـق في قبّـة السـماء، وجناحيـه مشرعتـين في الفضـاء، حبـات الـذرة البيضـاء التـي تحتويهـا السـنابل الذهبيـة حلّقـت بعيـداً بسـنابلها مغازلـة الهـواء، تفتقـت السـنابل مثـل شـهاب هـاوٍ، وانتـشرت حبـات الـذرة فحجبـت الشـمس، ثـم هـوت مـن قبّـة السـماء نحـو الأرض في مشـهد مهيـب، ملتصقـة بالأعنـاق في يـسر وسلاسـة وسرعـة، وخزتـه مثـل لسـعة ناموسـة متمرسـة، كانـت

سوق المراهنات قائمة على قدم وساق، والناس كأنهم ينقادون صفوفاً نحو بحر الظلمات، وحبات الذرة تلتصق بأعناقهم وهم عنها غافلون، نمت حبات الذرة وتضخمت في سرعة، وكأنها في سباق محموم مع الزمن، ولا زالت سوق المراهنات رائجة، وسباقات الحمير لا تقف إلا لتبدأ من جديد، وحين انفلتوا عائدين إلى بيوتهم كانت حبات الذرة المتضخمة تتأرجح على أعناقهم المنحنية في غيبوبتها، تشتتهم الطرقات، وتجمعهم الحبات، يتمايلون في مسيرهم كمَن أثقله السُّكر ولم يدركوا أنّ حبات الذرة كانت تفرض سطوتها، وقوانين اتزانها على أجسادهم مخضعة إياها في حزم وصرامة، كان البصير معلّقاً في قبّة السماء، يتابع حبات الذرة وهي تهطل نحو أعناقهم، ويرصدها وهي تلتصق بها، عندما نظر يميناً، كانت طيف تغفو واضعة رأسها على كتفه، ثم نظر إلى أعلى، كان يرى قبة السماء، خلف حبات الذرة، خلف النجوم، بعيداً نحو حدود الكون.

ما يزال يذكر صباح ذلك الحلم، عندما استيقظ كانت حبات الذرة سِمة معتادة في ملامح الآخرين، هطلت في حلمه، ونمت وربت في حضن الواقع دون أنْ تخلف دهشة في عقله الصغير، كان معتاداً أنْ يبدأ الحدث هناك ثم يكتمل هنا، ما فعلته طيف لم يكن معجزة من معجزات الزمان، ولكنه فعل معاد غطاه غبار النسيان، الذي ينزاح في بطء عن تلافيف الذاكرة، في تلك اللحظة أيقن أنّهم كانوا معاً دائماً، تقول طيف (إننا أخوة ولكن ما يجمعنا

أقـوى مـن دم الأخـوة) يجمعنـا شيء راسـخ وقـوي ولكنـه لا يـدرك لـه اسـماً ولا وصفـاً يحتويـه.

خطـاب وزيـر العمـل في الموازنـة العامـة كان صفعـة في خـدِّ الجميـع، أيقظهـم مـن سباتهم العميـق، وسـط الجـدال الدائـر عـن موازنـة العام القـادم بخـط التفـاؤل المعتـاد، والأرقـام المصاغـة بعنايـة، مؤيـدة لخـط الأم الـرؤوم الـذي ينـادي بالتنميـة، ويؤكـد عليهـا، جـاء وزيـر العمـل ليتحـدث عـن ارتفـاع نسـبة البطالـة في أوسـاط الشـعب السـيني، بشـكل يهـدّد عمليـة التنميـة المسـتدامة للبـلاد، جـاء الخطـاب كنشـاز في وسـط عـشرات الخطابـات التـي تتحـدث مؤكّـدة عـلى فاعليـة السياسـات المعتمـدة مـن قبـل الأم الـرؤوم في خطـط التنمية المسـتدامة، ولكـن وزيـر العمـل عندمـا تحـدث كان يتحـدث بلغـة الأرقـام، مؤكّداً أنّ الأم الـرؤوم تعمـل عـلى خلـق الفـرص في سـوق العمـل، ولكـن المعضلـة هـي عـدم وجـود كفـاءات لسـدّ الحاجـة الحقيقيـة للسـوق، ملقيـاً اللـوم عـلى عـدم التأهيـل المناسـب لخريجـي الجامعـات لمتطلبـات سـوق العمـل نفسـه، اسـتفاض الوزيـر في الحديـث، مؤكـداً أنّ وزارتـه تقـوم بدورهـا كامـلاً، ولكـن الشـعب السـيني لا يقـوم بـدوره الـلازم المنـوط بـه في خـط التنميـة الـذي تقـوده الأم الـرؤوم، معلـلاً ذلـك بالانغـماس في المراهنـات عـلى سـباقات الحمـير، وتربيتهـا وتسـويقها، مؤكّـداً عـلى أهميـة الحمـير وسـوقها الرائجـة في خطـة التنمية المسـتدامة، ولكنهـا ليسـت الطريـق الوحيـد نحـو النجـاح، وخلـص في الآخـر أنّ عـلى الشـعب السـيني الالتفـات إلى الفـرص التـي تفلـت مـن بـين

يديـه، وهـو منغمـس في البحـث عن أحـلام الثـراء الخادعـة، مؤكّـداً أنّ الأمـر بيـد الشـباب لتـولي الزمـام، وقيـادة قافلـة التنميـة نحـو الأمـام.
كان لتفـشّي البطالـة أثـر كبـير في ظهـور عـدد مـن المهـن لا تخطـر عـلى بـال أحـد، مثـل قـراءة الكـف، وكشـط ورق النيـم الجـاف، وتحويـل روث الأبقـار إلى بخـور السـكر المشـهور، وتفسـير الأحـلام، وتلـك الأخـيرة بالـذات وصـل فيهـا السـينيون إلى أغـوار عميقـة، فقـد صرّح مفـسرو الأحـلام بقدرتهـم عـلى فهـم إشـارات الأحـلام لـدى الأرامل والعجائـز، ومَـن غـاب أزواجهـن لفـترات طويلـة، فرؤيـة اليقطـين لــدى الأرملــة، زوج جديــد، ولــدى العجــوز دلالــة عــلى تحســن حالـة آلام المفاصـل، ولـدى مَـن غـاب عنهـن أزواجهـن دليـل زواجـه بأخـرى، ولـدى الأطفـال أضغـاث أحـلام ليـس إلا، فلـكلّ إشـارة في الحلـم دلالـة تختلـف مـن شـخص لآخـر، حسـب عمـره، وحالتـه النفسـية والمزاجيـة والماديـة أيضـاً، فالحليـب في الحلـم زيـادة للـمال عنـد الغنـي، ومزيـداً مـن الفقـر عنـد الفقـير وهكـذا.
عندمـا تفشّـت ظاهـرة الحلـم الجماعـي، وقـع مفـسرو الأحـلام في حـيرة عظيمـة، فبحسـب تبحرهـم في تفسـير الأحـلام، كان لكلّ شـارة دلالـة معينـة عنـد كلّ حـالم عـلى حِـدّة، ولكـن الحلـم الجماعـي الـذي اجتـاح بـلاد السـين بنفـس المشـاهد والترتيـب كان رؤيـا ذات دلالـة واحـدة بـلا شـكّ، محطمـة أسسـهم في تفسـير الأحـلام بضربـة واحدة، جعلتهـم يـدورون في نقاشـات وتفسـيرات متضاربـة؛ تفـضي إلى مزيـد مـن الحـيرة والتيـه، ولا تحـلّ المشـكلة، بـل تزيدهـا تعقيـداً، الحلـم كان

بسيطاً ومباشراً، بشكل يضيق من فرص التأويل إلى حدٍّ كبير، بل هو من المباشرة بحيث يمكن نقله من الحلم إلى مرتبة الواقع دون جهد، يرى السيني في الحلم أنّه يمسك بذيل حمار قوي، فتي، فارع، ضامر القوام، ويركض محاولاً اللحاق به، في حين أنّ الحمار يضرب الأرض بحوافره القوية في سرعة أقرب للتحليق، وكان للحلم أثره في الواقع فيستيقظ السيني مرهقاً من الركض طوال الليل على أحسن الفروض، البعض هيج عليهم الركض المتواصل أمراض الصدر، واحتقان الجيوب الأنفية، وآلام المفاصل المزمنة، وارتفاع دقات القلب، وهبوط السكر لدى مرضى البول السكري، وغيره من أمراض حول العينين، وانسداد الأذن بسبب قوّة الريح، وتهيجات القولون، وقرحة المعدة، وآلام العنق، حتى مشاكل العجز الجنسي، والتهابات البواسير الخبيئة، كلّ هذا لم ينج من آثار الركض لساعات طويلة في الحلم، وخلق هذا سوقاً رائجاً لمفسري الأحلام، فالتحق بهم النجارون، والسباكون، ونافخو البالونات، وخاسرو المراهنات، كلّ واحد يريد أنْ ينال نصيباً من الكعكة قبل نفاذها، ففسّر بعضهم أنّ الحمار في الحلم، خزانة ملابس تستخدم كمخبأ للنقود، في حين أنّ ذيله هو السعي المستحيل للتوفير، والركض دلالة على السعي غير المفيد، في حين أكد آخرون أنّ الحمار هو الرهان الأكبر، وأنّ الذيل هو ضمان الفوز، والركض إشارة إلى طول الأمل، وجاء تفسير آخر بأنّ المشهد ككلّ يدلّ على عبثية الحياة في بلاد السين، فمن يقوده الحمار لا ينال سوى

النصب والتعب، وبالطبع ظهرت المراهنات على التفسير الدقيق، ونصبت في كلّ مكان بطول السين وعرضها، وتكاثرت مثل مرض خبيث، فرئي المتراهنون في الأسواق والأحياء والأزقة والفلوات، وعند احتدام سباقات الحمير، وفي مهرجانات قبض الهواء التي لا تنقضي إلا لتبدأ من جديد، ثم هدأت ثورة الحلم كما بدأت، واندثرت بعد أنْ ملّ الحمار من الركض طوال الليل والنهار، بحسب مزاجية السينيين المتقلبة في النوم، فاعتزل الركض وصرح لأحد الحالمين بأنّه لو ركض بهذه الطريقة في مهرجانات سباقات الحمير المجيدة، لأنسى السينيين المكادي ومجده التليد.

أتى حديث وزير العمل مكذباً للخط الإعلامي الذي تسوقه الأم الرؤوم باستمرار، ولكن الصحف والقنوات التلفزيونية التقطت القفاز، وبدأ حديث خافت يدور حول الأمر، عمود صحفي يتحدث عن انكباب الشباب على سباقات الحمير، وقتالهم من أجل دخول المجال، حوار عابر يتحدث عن تضخم الاهتمام بسباقات الحمير، مما جعلها جاذبة للشباب، ومضيعة للجهد والوقت والمال، في استضافة لوزير التعليم، أكّد أنّ وزارته تعمل على توفير الفرص لتأهيل الشباب، من أجل استيفاء متطلبات سوق العمل، في دورات مكثفة ومتنوّعة، كما تمّ تعديل المناهج الجامعية في ذات الوقت، ولكن الذنب ليس ذنب وزارته تحديداً، ولا ذنب الأم الرؤوم بشكل عام، ولكنه ذنب الشباب الذين يجرون خلف سراب الثراء السريع، ولا يصعدون السلم من أوله،

ولكن يرغبون في الوصول إلى القمة منذ البداية، الانغماس في المراهنات، والمتابعة المحمومة لسباق الحمير، والسعي للدخول في دائرتها بكلّ السبل، هو الدليل الأمثل على كلامي.
في بلاد السين حيث الشوارع التي تذخر بالبشر، وبالحمير، وبالبشر الذين يهتمون بالحمير، لا شيء يثير العجب أو الدهشة، لم يعجب الناس من حديث وزير العمل ولم يدهشهم تبرير وزير الصحة، كالعادة تحوّل الأمر إلى قفشات ساخرة، يحكي السينيون أنّه بالقرب من ساحة الأحكام وقف شاب ينادي الناس من حوله للتجمع، مبيناً أنّ لديه شيئاً مهماً سيريهم إياه، لم يكن يبدو على الشاب أنّه سائس قرود، أو مهرج، أو بهلوان، ولا حتى ساحر يمتاز بخفة اليد، كان يبدو شاباً سينياً عادياً، طويل القامة، نحيلاً بملامح سينية معتادة، وشعر مرسل ولحية مهملة، توقّف الناس بدافع الفضول، ولم يمر وقتٌ طويلٌ حتى تكوّن حشدٌ حول الشاب، الذي فتح حقيبة ملقاة بجانبه، وأخرج ورقة وبدأ يطوف بها حول الحشد المتحلّق حوله، وهو يؤكّد على الجميع مشاهدتها، كانت شهادة تخرج في كلية العلوم الإدارية بتقدير جيد جداً من جامعة السين العريقة، مرّ عليها خمسة أعوام، مرّرها على الحشد كاملاً دون أنْ ينطق كلمة واحدة، ثم وضعها بجانب الحقيبة بحركة مسرحية، ثم أخرج ورقة أخرى، وأعاد الكَرة تارة أخرى وهو يطوف على الحشد، كانت لشهادة الماجستير في العلوم الإدارية قسم التسويق، بعد عام ونصف من التخرج، وضعها

بذات الطريقة بجوار الشهادة الأولى، شدّ العرض المسرحي الصامت الجميع، ورغبوا في معرفة نهايته، أخرج الشاب ورقة أخرى شهادة خبرة لموظف تحت التمرين في وزارة الوفرة لمدّة عام كامل، وعاد لعرضها على الحشد ثم أعقب ذلك بشهادات لعدّة دورات متخصصة، قام بعرضها جميعاً ثم وقف فارداً ذراعيه وهتف مخاطباً الحشد:

-قدمت للعمل في جميع مؤسسات الدولة، ولكن يتمّ رفض طلبي لأن مؤهلاتي أقلّ من الوظيفة المتوفرة، أو أعلى من الوظيفة المطلوبة، الرّد دائماً هو ذاته، لا يتغيّر، وأنا وأنتم نعلم المؤهل المطلوب لنيل الوظيفة في بلاد السين، وبما أني لا أملكه فما جدوى هذه الشهادات على أية حال؟!

وبحركة سريعة أخرج ولاعة من جيبه، وأشعل النار في كوم الشهادات الملقاة بجواره، ووقف يتأمل رقصة النار في جمود.

هتف واحد من وسط الحشد قائلاً:

-جميعكم تبحثون عن الوظائف ذات الراتب العالي، وكيف ستنهض البلد لو توظف الكلّ؟ مَن سيفلح الأرض؟ ومَن سينظف الشوارع وينتج في المصانع؟ لا بُدّ أنك معارض للأم الرؤوم وتبحث عن إثارة الفتنة!

كان الرجل مثالاً جيداً للموظف السيني، بملامحه الغليظة، وكرشه المترهل، وحبة الذرة المتجعدة صغيرة الحجم التي تقبع في وسط عنقه الضخم، يصلح أنْ يكون مديراً إدارياً في واحدة من هيئات

الأم الـرؤوم المتعـدّدة، أو رئيساً بيروقراطيـاً لقسـم في وزارة مـا، يجيـد تعذيـب الموظفـين والمتردّديـن عـلى الـوزارة يوميـاً، يؤمـن بالروتـين وجـدواه وفعاليتـه، ويـنـام كالثـور في آخـر اليـوم، مرتـاح الضمـير لإخلاصـه للعمـل ولـلأم الـرؤوم، انفـض الحشـد مـن حـول الشـاب دون أنْ يعقّـب أحـد غـير الرجـل الغليـظ عـلى كلامـه، ابتعـدوا تاركـين الشـاب لبؤسـه وإحباطـه، ولسـياط الموظـف السـيني المثـالي تسـومه العـذاب.

الحـوارات التـي تـدور في حلقـة مفرغـة في القنـاة الرسـمية كانـت تناقـش تصريـح وزيـر العمـل، الرجـل الغاضـب كان يتبـع للبرلمـان، يرتـدي نظـارة سـوداء ويتحـدث ملوّحـاً بيديـه في حمـاس قائـلاً:

-صمـت الأم الـرؤوم عـلى ضعـف إنتاجيـة السـينيين وعـدم رغبتهـم في التطـور هـو مـا أسـلمنا لهـذا الوضـع المـزري، عـلى السـيني الإدراك بأننـا لـن نطعمـه في فمـه، فلـو ظـلّ قابعـاً في البيـت يتابـع سـباقات الحمـير، والمراهنـات، ويحلـم بالثـراء، فإنـه سـيجني البطالـة لا غـير، عـلى السـينيين الخـروج مـن هـذه الدائـرة المفرغـة لتنميـة هـذا البلـد، والأم الـرؤوم أبوابهـا مشرعـة للجميـع، مـن أجـل تنميـة بـلاد السـين، ووضعهـا في مصـاف الـدول المتقدّمـة وهـو المـكان الـذي يليـق بهـا.

تنحنح المذيع ثم قال مخاطباً البرلماني بابتسامة لزجة:

-ولكـن يـا سـيدي الشـباب يـصرّ عـلى عـدم توفـر الفـرص للتوظيف، وأنّ خطـاب الأم الـرؤوم مُنـافٍ للواقـع حيـث لا تتوفـر وظائـف عـلى الإطلاق.

انتفخت أوداج البرلماني، وجحظت عينيه وهو يردّ على المذيع:
-هـذه مُجـرد أحاديـث مغرضـة مـن المعارضـة الهدامـة، التـي تسـعى لإرجاعنـا للخلـف، ولا تبحـث عن مصلحة بلاد السـين ولا السـينيين، التقاريـر التـي بحوزتنـا تؤكّـد توفـر الوظائـف في جميـع مؤسسـات الأم الـرؤوم، كـما تـمّ اسـتحداث وظائـف جديـدة في وزارتي الوفـرة، والثـروة الحيوانيـة، بعـد مشـكلة الأمبـاز الأخـيرة، ولا يوجـد مـن يشـغلها، وإعلانـات الوظائـف تمـلأ الصحـف، ثـم يتحـدث النـاس عـن البطالـة، السـينيون هـم مَـن بيدهـم التغيـير وليـس أحـد آخـر.
عـصراً، في سـوق (كـما هـو)، عنـد احتـدام حركـة البيـع، ووصولهـا إلى قمّتهـا، ومبادلـة الخـداع والحلـف الـكاذب، بـين الباعـة والمشـترين عـلى البضائـع المعروضـة تحـت الشـمس، بـرضى الطرفـين في عجيبة من عجائـب بـلاد السـين التـي لا ينضـب معينهـا، كانـت تـسري شـائعة جديـدة، يصغـي إليهـا البائـع في اهتـمام، ثـم يضيـف إليهـا قليـلاً مـن البهـار، ويضعهـا في طبـق البيـع المقـدم للشـاري، كمقبـل شـهي، يزيـد مـن احتماليـة إكـمال الصفقـة، فيلتهمهـا الشـاري، ثـم يعيـد إنتاجهـا لبائـع آخـر، والـذي بـدوره يقـوم بنقلهـا إلى مُشـترٍ آخـر، حتـى عمَّـت السـوق في وقـت وجيـز، ولغرابـة الشـائعة ذاتهـا، ومفارقتهـا المذهلـة، جعلـت السـينيين في السـوق يقفـون عـلى طـرفي النقيـض، مـا بـين مصـدق ومكـذب، ولا يحتـاج الأمـر للنباهـة وقـوّة الملاحظـة، لرؤيـة المبالـغ الماليـة تنسـاب بخفـة بـين الأيـدي، متنقلـة في سرعـة مـن يـد إلى أخـرى، بعيـداً عـن عمليـات البيـع والـشراء، والأعـين التـي تنطـق

بالحـذر، وهـي ترقـب مـا يـدور حولهـا، مرسـلة نـذر الـشر والخـوف، لإدراك احتـدام المراهنـات حـول الشـائعة، في سرعـة تـوازي سرعـة انتشـارها نفسـها، كان فحـوى الإشـاعة، أنّ الأم الـرؤوم سـتقيل وزيـر العمـل، وتـأتي ببائـع القهـوة وزيـراً في مكانـه، الأمـر المثير هـو عـودة بائـع القهـوة مـن العـدم، حاملاً عـصىً سـحرية سـتغير الواقـع المعاش، وتحسـن مـن جـودة الحيـاة، وتخلـق الوظائـف، وبالتـالي سـيحقق الرفاهيـة الغائبـة عـن حيـاة السـينيين، انقسـم النـاس إلى قسـمين اثنين، قسـم رأى أنّ عـودة بائـع القهـوة سـتحمل علاجـاً، لـكلّ الأمـراض المسـتعصية في جسـد بـلاد السـين المريـض، وراهنـوا عـلى ذلك بحماسـة كبـيرة، وقسـم آخـر كان يـرى أنّ المذنـب الأول هـو الشـعب السـيني نفسـه، وليـس الأم الـرؤوم، ولا وزيـر العمل،السـينيون المنقـادون إلى سـباقات الحمـير، وإجـراء المراهنـات، لا يسـتحقون وزيـراً أفضـل مـن هـذا، لـذا فـإن السـينيين يسـتحقون كلّ مـا يحـدث لهـم، وإنْ أتـى بائـع القهـوة سـيعجز عـن حـلّ المشـكلة، لأنّ مفاتيحهـا ليسـت بيـده، ولم يجـدوا وسـيلة للتعبـير عـن رأيهـم غـير الانخـراط في المراهنـة التـي ينتقدونهـا، مـن أجـل التأكيـد عـلى صحـة كلامهـم، فوجـدت سـوقاً رائجـاً، انخـرط الـكلّ فيهـا منقسـمين إلى جماعتـين كبيرتـين، تحدوهمـا آمـال المغامـرة، ويغزوهمـا الخـوف مـن الخسـارة غـير المحسـوبة.

لم يكـن مفاجئـاً اسـتضافة بائـع القهـوة في القنـاة الرسـمية للأم الـرؤوم، كان سـتينياً، وقـوراً، تبـدو عليـه آثـار الدعـة والراحـة، يخاطبـه المذيـع بصيغـة الجمـع، تقديـراً واحترامـاً، ناعتـاً إيـاه بالرجـل العصامـي،

ورجـل الـبر والإحسـان، وكانـت ابتسـامته متسـامحة وطيبـة، توحـي بالطمأنينـة، تحـدث الرجـل عـن إيجابيـات البطالـة قائـلاً:

- ليسـت البطالـة بالـشيء الجيـد، ولكـن هنـاك جانـب مـشرق منهـا، فالبطالـة تـؤدّي إلى قلّـة الطلـب، ممـا يـؤدّي إلى انخفـاض الأسـعار، وهـذا سـيخفف العـبء عـن كاهـل السـينيين بشـكل كبـير، انظـر معي إلى مجـال الحمـير، تدافـع السـينيين نحـو الدخـول في المجـال، رفـع مـن أسـعار الحمـير إلى مبالـغ خرافيـة، وكذلـك رفع أسـعار الأمبـاز، البطالة تـؤدي لانخفـاض في أسـعار المـواد التموينيـة، التـي تمس حياة السـينيين بشـكل مبـاشر، ليس عـلى الأم الـرؤوم خلـق وظائف حكوميـة في رأيي، ولكـن يجب تشـجيع الشـباب عـلى فلاحـة الأرض، فـالأرض هـي كنز السـينيين المنسي، لنفـترض أنّهـم قامـوا بزراعـة البـن، هـل يخلـو بيت مـن بيـوت السـينيين مـن البـن؟ بـل إنّ البـن يوفـر في زراعتـه خيـارات كثـيرة، لأنواعـه المتعـدّدة، ممـا سـيؤدي لاكتفـاء بـلاد السـين منـه، بـل وتصديـره إلى الخـارج...

يومـئ المذيـع برأسـه موافقـاً، وهـو يحـاول اسـتيعاب نظـرة بائـع القهوة العميقـة للأمـور، الـذي يكمـل حديثـه وقـد شـاب صوتـه شيءٌ مـن الحـماس:

-لا يقـف الأمـر عنـد زراعـة البـن، ولكـن توابـل القهـوة أيضـاً، تقنين زراعتهـا، وانتظـام وصولهـا للأسـواق، عندمـا كنـت أبيـع القهـوة، عانيـت كثـيراً مـن انقطـاع الزنجبيـل مـن السـوق، كنـا نضطـر إلى الاسـتعاضة عنـه بالقرفـة في أحايين كثـيرة، وكان هـذا يغضـب الزبائن،

غير القرنفل، والقرفة نفسها، وغيرها من التوابل، هذا مجال واسع يمكن العمل فيه، بدلاً من الضغط على الأم الرؤوم، من أجل خلق وظائف حكومية.

- تقصدوز تشجيع القطاع الخاص بشكل عام مما سيؤدي إلى خلق المئات من فرص العمل للسينيين؟

تنحنح بائع القهوة ثم قال:

- نعم هو ذاك الذي قلت اسمه قبل قليل، على السينيين نسيان أمر الحمير قليلاً، والالتفات إلى القهوة وتوابلها ولن يندموا.

- يرغب المشاهد في سماع قصتكم العصامية من بائع قهوة إلى رجل البر والإحسان

ابتسم بائع القهوة في تواضع وتسامح

- ليست قصّة، كل ما في الأمر أنّ الله أعطاني هبة، وهي المقدرة على علاج الناس فخدمتهم بها وسع طاقتي وقدرتي، هذه كلّ القصّة.

- ولكن لِمَ توقفت عن العلاج، هل فقدت هذه القدرة الآن؟

انتفخت أوداج بائع القهوة قائلاً:

- بالطبع لم أفقدها، ولكني عملت على ترشيدها فقط لخدمة أهداف ثورتنا العظيمة، وأهداف الأم الرؤوم، فقد شرّفني القائد الهمام بتقلد العديد من المهام، التي تخدم بلاد السين بطريقة أفضل.

- ما هي الحلول التي ستقدمها في حالة تمّ تعيينك وزيراً للعمل؟

حكّ بائع القهوة لحيته وبدت عليه علامات التفكير العميق ثم قال:

- في حال تعييني وزير للعمل، سأشجع السينيين على زراعة البن والتوابل بشكل أكثر تنظيماً، وبالفعل شركتي (قهوتكم وتوابلها) تعمل بشراكة فاعلة مع الأم الرؤوم من أجل النهوض بالمجال وتطويره.

- أود شكركم على..

قاطعه بائع القهوة قائلاً:

- كما أنني سأقوم بتطوير مجال سباقات الحمير، بحيث لا يدخل للمجال كلّ مَن هَبّ ودَبّ، ولكن أهل الاختصاص فقط، الذين يحملون شهادات تؤهلهم للعمل في المجال، وذلك حتى ينفض هذا الجمع الكبير حول الحمير، ويلتفت إلى البن وتوابله.

في اليوم التالي كانت حمى البن وتوابله قد اجتاحت بلاد السين، الكلّ يتحدث عن الذهب الأسود المنسي، في المواصلات كان النقاش بين الركاب عالياً، شاب في منتصف الثلاثينات كان يتحدث في غبن عن ضياع عمره في سباقات الحمير قائلاً:

- منذ تخرجي في الجامعة وأنا أجاهد للترقي في المجال، أكثر من عشرة أعوام ولم أصل إلى درجة مساعد سائس، لو أنني أنفقت هذا الزمن في زراعة البن، لكنت الآن من أثرياء بلاد السين.

تدخل كهل يجلس عند آخر الحافلة قائلاً:

- لو أنّ الشباب يصرف النظر قليلاً عن البحث في الوظائف،

والركض خلف الحمير، وتحميل الأم الرؤوم ما لا تطيق، فالكلّ سيثرى ويرضى، على السينيين تغيير طريقة تفكيرهم قليلاً ليحسنوا من أوضاعهم.
شاب ضئيل الحجم بنظارات كبيرة يجلس جوار الكهل عدّل من نظارته ثم أدلى بدلوه قائلاً:
-ولكني مثلاً لا أعرف شيئاً عن زراعة البن، ولا التوابل ولا تجارتها، أنا درست الهندسة، والمشاريع الهندسية في طول بلاد السين وعرضها بيد الأم الرؤوم، ليس لدي فرصة للعمل إلا من خلال الوظيفة.
تطاير اللعاب من وجه الكهل وهو يردّ عليه في غضب:
-أمثالك همّ سبب البلاء في هذه البلاد، يجلس في بيته عاطلاً عن العمل، ثم يطالب الأم الرؤوم بأنْ تجد له وظيفة، مَن هم مثلك هم سبب تأخر بلادنا عن اللحاق بركب الأمم!
ارتفعت الأصوات المؤيدة والمعارضة في الحافلة واحتدم النقاش بينهم حتى الوصول للمحطة الأخيرة، في سوق (كما هو) ضعفت حركة البيع، وتفشّت حمى المراهنات والنقاشات التي لا تنتهي إلا لتبدأ من جديد، وبالقرب من ساحة الأحكام، تناثرت تجمعات صغيرة أمام مبنى مكوّن من طابقين، كان يتبع لإدارة الساحة، عُلِقت عليه لافتة جديدة في الباب كُتِب عليها (شركة قهوتكم وتوابلها المحدودة).
تزايد الازدحام بوتيرة سريعة، وظهر منظمون للصفوف، وورقة

لكتابة الأسماء من أجل الترتيب، في الصحف كانت صورة بائع القهوة تتصدر المشهد، وتتحدث عن رجل البر والإحسان، مالك شركة قهوتكم التي ستقدّم أرضاً ودعماً لزراعة البن، مقابل مُقدّم مالي بسيط من الشباب.

بدأت الفقاعة في التضخم بشكل سريع، وبائع القهوة يظهر كمنقذ للشباب من هاوية البطالة، وسباقات الحمير والمراهنات، الآلاف قدّموا لشركة (قهوتكم وتوابلها) من أجل الحصول على الأرض المنتظرة، وفاضت الصحف والقنوات التلفزيونية في الإطناب والمدح لبائع القهوة، وسرعان ما فتحت فروع للشركة في بقية الأقاليم، والإقبال يتزايد على الشركة، التي تقبل كلّ الطلبات المرفقة بالمقدّم المالي، وظهر متحدثون، واقتصاديون، ومحللون في مختلف القنوات، يتحدثون عن الفائدة المرجوة من توجُّه البلاد لزراعة البن، والعوائد المرجوة من خلق فرص العمل، والأرباح المنتظرة، والتصدير للخارج، وظهرت دعوات من أجل تشجيع رأس المال الخاص، بالتوجُّه للمشاريع التي تخدم بلاد السين والسينيين، اقتداءً ببائع القهوة، وكان الجدال محتدماً بين السينيين أنفسهم حول أحقية بائع القهوة بمنصب وزير العمل، والحلول السحرية التي سيقدّمها من أجل خلق فرص العمل للشباب، المراهنات بلغت ذروتها، وتباينت المواقف، الأغلبية كانت تتحدث عن عدم جدوى المشروع، لأنه سيتحول لسباق حمير آخر، وأنّ المشكلة في السينيين أنفسهم، الذين ينقادون جميعاً خلف نفس

المشروع، سِمة التقليد الأعمى بحثاً عن النجاح والثروة، فلو أنّ الكلّ عمل في زراعة البن وتجارته، فمَن سيشتري البن، المشكلة الأساسية في بلاد السين هي عقلية السينيين أنفسهم، والتي يجب تغييرها بدلاً عن الركض خلف الحمير، ومن ثم البن، قسم آخر كان متحمساً للمشروع، ويرى فيه طوق النجاة من البطالة، ويرون أنّ بائع القهوة هو الأحق بتولي منصب وزير العمل، لما يملكه من حلول سحرية لا تخطر بعقلية وزير العمل المتحجرة، وهناك فئة قليلة تحدثت عن عدم جدوى كلّ ما يحدث، فبلاد السين ستظلّ على حالها لأنّ هذا قدرها أنْ تكون حمار الذيل في سباق الأمم، ووضعوا رهاناً ثالثاً على رأيهم وهم واثقون من الفوز.

أتت الطامة الكبرى لتسقط على رأس الجميع، بعد أنْ أوقفت الشرطة عمل شركة (قهوتكم وتوابلها) بتهمة الاحتيال، مبينة أنّه لا توجد شراكات بين الأم الرؤوم، وبائع القهوة، حول مشروع زراعة البن، ولم تحصل شركة قهوتكم وتوابلها على أراضٍ من أجل توزيعها على السينيين بغرض زراعة البن، والمصيبة الكبرى كانت في فرار بائع القهوة خارج البلاد، وإنْ كانت الشرطة قد وعدت بألا يغمض لها جفن قبل القبض عليه، واسترداد أموال الناس التي بحوزته.

تلاشى المشروع كما بدأ سريعاً، مخلفاً الإحباط لدى آلاف الشباب، الذين استدانوا من أجل حلم زراعة البن، وتمدّد الإحباط في بلاد السين طولاً وعرضاً، لسوء الحال والمآل، وارتفعت بعض

الأصوات شاكرة يقظة الأم الرؤوم، في سرعة كشف الاحتيال قبل أنْ يستفحل الأمر، من المفارقات المضحكة المبكية في آن واحد، هو سعادة الفائزين بالمراهنات على قلّتهم، كان الجدل على أشده في تحديد المسئول عمَّا حدث، الرأي السائد كان أنّ السينيين يستحقون ما يجري لهم وأكثر، لأنّهم ينقادون خلف كلّ مخادع، وهل بائع القهوة غريب عنهم، هو واحد من السينيين، ويمثلهم ويعكس مدى التدني في الأخلاق الذي حاق بهم، الأم الرؤوم لا تلام على ما حدث بأي حال من الأحوال، ويحمد لها كشف الأمر، ولو أنّها قصّرت في القبض على بائع القهوة، فهذا تقصير ستتم معالجته كما وعدت الشرطة، ولكن مَن سيعالج القصور في نظرة السينيين للأمور، بل أوغل آخرون في مدح الأم الرؤوم، ووزير العمل، الذي حاول علاج المشكلة الحقيقية، وأنّ على السينيين الالتفات إلى موضع القصور الحقيقي، والسعي لمعالجته، بدلاً من التباكي على اللبن المسكوب، الأصوات التي هتفت بمسؤولية الأم الرؤوم عن الأمر، وقدرتها على حسمه منذ البداية، قبل ضياع أموال السينيين بيد ذلك المحتال، لم يسمع لها أحد، وتمّ نعتهم بالمعارضة الهدّامة الحاقدة، وتمّ كبتها سريعاً وتجاهلها فيما بعد.

الأم الرؤوم كالعادة التقطت القفاز، وقامت بتكريم وزير العمل، ومنحه وسام الأم الرؤوم من الدرجة الأولى، كما كرّمت الشرطة ممثلة في مديرها، على جهودها الكبيرة في ضبط عملية الاحتيال قبل استفحالها، وفي بيان مقتضب، أعلن مدير المناشط فرض

ضريبة على منشط سباق الحمير، وعملية الاتجار بها، وإنشاء صندوق مخصص للعائد المتوقع، من أجل دعم الشباب وتأهيله لسوق العمل، بالشراكة مع وزارة العمل ووزارة التربية والتعليم.

(٨)

الظـلام كان حالـكاً، بحـث البصـير عـن مفتـاح الإنـارة بجانبـه ثـم تصلّبـت يـده في الهـواء

- أنتِ هنا.

كان متأكّـداً وليـس تخمينـاً، الظـلام حجـب عنـه رويـة العـين ولكنـه كان يراهـا، خفـق قلبـه، انتصـب جالسـاً ويـداه تجـولان في الفـراغ حتى اصطدمتـا بهـا.

- طيف.

كان جسـدها دافئـاً ينبـض بالحيـاة، كانـا مثـل نجمتـين في قبـة السـماء، أحبهـا قبـل أنْ تهبـط حبـات الـذرة عـلى الأعنـاق، كان الحـب مختبئـاً في الذاكـرة التـي طمرهـا النسـيان، ثـم انحـسر الآن مثـل ثوب عـروس في ليلــة زفافها.

- ليتك لم تتذكر.

صوتها كان حزيناً مثل أم أنهكها الثكل

- وكيف ذلك وأنت من تطرقين على باب الذاكرة ليلاً ونهاراً؟

- أستجير من رمضاء النسيان بنار الذاكرة، كثيراً ما نفعل خلاف ما نرغب.
- ولِمَ كلّ هذا، هل حبنا مأساة؟
- لا زلت عند الشط ولم تعبر البحر بعد أيها البصير.
- هل سأكون سعيداً لو عبرته؟
- ترى في حياتنا هل نبحث عن السعادة أم عن المعرفة.
- لست شغوفاً بالمعرفة، أنا أنشد السعادة وأنشدك.
- لسنا نحوز ما نرغب فيه دوماً.
- ولكنك هنا معي.
- ولست هنا يا بصير.
- كيف ذلك ولو مددت يدي لاحتويتك.
- ستحتوي طيفاً وليس طيف.
- أغرقتني في الظلام فلا أبصر شيئاً.
- أنتَ في طريقك إلى النور ولكنه سيحرق قلبك.
- أشعر بالخوف.
- الخوف هو سلاحنا يا بصير.
- ولكنه يحتل صدري الآن.
- لذا هو سلاحك، لو فقدته لهلكت.
- كلامك ألغاز لا أستطيع سبر غورها.
- الذاكرة والأب سينيران طريقك.
- مَن الأب؟

- ومَن طيف؟

- أنتِ؟

- ألم أقلّ لك أنك لا زلت على الشط.

- خذي بيدي.

- طريقنا واحد ولكنه طريقان.

- كوني معي.

- أنا معك ولست معك.

يأتي صوت نحيبها خافتاً وعندما مدّ يديه احتضن الفراغ والصمت والظلام الحالك.

قال الأب:

- الحارسات صمام أمان المستعمرة، لا أمان لها من دونهن، نجتمع هنا لنشحذ أسلحتكم، ونعدها لتقوموا بدوركم على الوجه الأكمل، ما تقومون به هو الأعظم والأهم على الإطلاق، هذا ليس مدحاً وتشجيعاً لكم من أجل المثابرة، ولكن لا مستقبل لمستعمرتنا إنْ لم نعدكم على الوجه الأمثل.

عندما نظر البصير خلفه كان الفضاء ممتلئاً بالأَسرّة البيضاء الصغيرة حتى ضاق بها، عشرات الأطفال الممدين عليها، بعضهم نائم، والبعض الآخر ينظر نحو الأعلى، وبعضهم يمص إبهامه، ويبدو لاهياً عمَّا يدور، ولكن الآن بعدما دار الزمان دورته، يدرك بأنّهم كانوا يصغون جميعاً حتى وإنْ لم يصغوا، الصوت كان يسري إلى عقولهم، ويصدر منها، تسرّب داخل خلاياهم الرمادية،

واستكان هناك قبل أنْ يغطيه دثار النسيان المؤقت وإنْ طال.
قال الأب:
- هل تعجبون من اختيارنا لكم، يبدو الأمر مثيراً للعجب والزهو للبشر العاديين، ولكنكم لستم كذلك، أنتم النمل الحارس ولستم بشراً، لا يملك النمل رفاهية الإحساس بالزهو والعجب، ولكنه يؤمن بقيمة العمل ويحتقر ما سواها.
برزت قرون الاستشعار الرقيقة من الرؤوس الصغير المستلقية على الأَسرّة، غطّت الأيدي والسيقان بالزغب الأسود اللامع، تقعر الفم، واستطالت الأنف، ثم برزت العينان إلى الخارج، عندما نظر إلى طيف الغافية بجواره، كانت تشبه نملة صغيرة لطيفة يحبها كثيراً، وحين نظر إلى يديها، كانتا تبدوان أطول وأرق، بنهاية حادة خالية من الأصابع، مغطيتين بالزغب الناعم الأسود، نظر جهة النورس الذي يجلس على الصخرة وحيداً، كان عنقه منكساً مثل سارية علم مكسورة، ويختبئ منقاره أسفل جناحه، والموج يضرب حواف الصخرة ثم ينحسر بعيداً.
قال الأب:
- أنتم عشرات ولكنكم كيان واحد، يشد بعضكم بعضاً، يكمل كلّ واحد نقص الآخر، تماماً كالنمل ساعة الفيضان، يلتحم الآلاف منه في جسد واحد، عظيم قوي مهاب، تخشاه كائنات البر والبحر، يتكسر موج الفيضان عنده، ويعود خائباً خاسراً، أنتم أقوياء لأنكم معاً، ضعفاء من دون ذلك، أنتم جدار المستعمرة

الـذي يمنـع عنهـا غوائـل الأعـداء وغدرهـم...
صمت الأب برهة وكأنه يستجمع أنفاسه ثم قال بصوت قوي:
- مَن أنتم؟
ردّدت عـشرات الحناجـر الصغـيرة جمـلاً متفاوتـة بصـوت يشـبه غثـاء معـزات في المرعـى:
- نحـن النمـل الحـارس، نحـن الحارسـات، نحـن صـمام الأمـان، نحن الجدار!
وإنْ غلبت الجملة الأولى على البقية.
أعاد الأب سؤاله بصوت قوي:
- مَن أنتم؟
ردّدت الحناجـر بصـوت قـوي كاد يـرجّ المـكان، حتـى النورس اسـتيقظ مـن غفوتـه ونظـر نحونا.
- نحن النمل الحارس.
- مَن أنتم؟
هدرت الحناجر في قوّة:
- نحن النمل الحارس!
تباعـدت الأَسرّة، كأنهـا تلاشـت في الفضـاء، اختفـى الزغـب الناعـم الأسـود مـن الأيـدي والسـيقان، واختفـى بـروز الأعـين، وتقعّـر الفم، واسـتطالت الأنـف، طيـف هـي ذاتهـا، طفلـة وديعـة جميلـة، ذاهبـة في غفوتهـا الطويلـة ونظـره متعلّـق بالفضـاء.
ينظـر الآن إلى مسـتعمرتهم فيعجـب، يفكـر في جدليـة النظريـة

والتطبيق، هل هذه المستعمرة التي كان يحلم بها الأب؟ ويشركهم الحلم بها ليلاً ونهاراً؟ لم تكن مستعمرة النمل، تلك مستعمرة مملوكة للحمير وساستها وعاشقيها، لا إعلاء لقيمة العمل، ولكن يمجد الجهل واللّهو واللّغو والفساد والمحسوبية والواسطة، يعلي من قيمة المجرم، ويحط ما سواه، هل الأب راض عن كلّ هذا؟ حينما ينزاح دثار الذاكرة عمَّا علّمه له يزداد عجباً، لطالما آمن بما يؤمن به الأب، هو المرشد والدليل لغايتهم العظيمة، مستعمرة النمل التي يحكمها النظام، ويعلي فيها من قيمة العمل، التي تفقس بيوضها فتخرج للحياة، مدركة لدورها وقيمته، ينظر الآن إلى شوارع بلاد السين الكئيبة الغارقة في البؤس والقذارة، يفكّر في حياة الإنسان المهدرة وأحلامه الموءُودة فيعجب، حبات الذرة التي تمتص الحياة من على قفا الجميع، لا يزداد حجمها ويكبر إلا بانحناء ظهورهم نحو الأرض، بسحق حياتهم تحت وطأة ثقلها، وحين ينظرون حولهم، لا يبصرون سوى أذيال الحمير فيتشبثون بها، ظنّاً بأنّها طوق النجاة ولا نجاة.

قالت طيف:

- نحن مُجرد نملات حارسات لا يحقّ لنا التفكير.
- ولكننا نملك عقولاً يحق لها أنْ تتساءل وتبحث عن إجابات.
- لا أملك رفاهية التفكير، أنا طيف، مُجرد نملة حارسة لا أكثر.
- وهل يحقّ للحارسات أنْ يحببن؟

تطرق بعينيها إلى الأرض ثم تنظر نحوه في عطف

- الأسئلة تفضي إلى الهلاك، المعرفة بقدر الحاجة يا بصير.
- هذا كلام الأب.
- هذا هو واقع الحال.

ينظـر إلى وجـه طيـف وهـو يبـث الطمأنينـة في داخلـه، مثـل مصبـاح ينـير مبـدّداً ظـلام نفسـه وحيرتهـا، ولكـن هـل هـذا كاف ليضع أسـئلته بـين يديهـا؟ هـل هـو كافٍ ليضـع ثقتـه فيها ويسـند حيرتـه عـلى كتفها؟

- نحن نفعل ما نجيده.
- وما الذي نفعله؟ ما قيمة ما نراه للمستعمرة؟
- دع كل شيء لوقته، أنت على الطريق ومَن سلك الطريق وصل.
- طريق حف بالأسئلة، أرغب في مقابلة الأب.
- لكلّ شيء ميقات لا تتعجل يا بصير.
- أنت بجانبي دائماً.
- أنا بجانبك ما استطعت.
- هل هذا إنذار؟
- أنا عاجزة.
- وكيف ذلك وأنت تتنقلين بين الحلم والحقيقة.
- هـذا هـو العجـز، لـو كانـت الحارسـات تملـك الحـق في الاختيـار لتمنيـت خـلاف ذلـك.
- لا حياة من غير حلم.
- نحن نعيش الواقع ولا نجني من الأحلام سوى الحسرة.
- إذن أنت حسرتي.

- دع عنك هذا الكلام فهو يفضي إلى الألم.
- أنت تحذرينني منك.
- كل حدث مربوط بعلّة، هل تظنّ أنّ اعتقالك في مكاتب الأمن الشعبي محض صدفة؟
- إذن فكنت مقصوداً لذاتي، رغم أني لم أشارك في كتابة منشورات حول مرض سقوط الأسنان.
- كان ذاك مبرراً لاعتقالك فقط.
- وما الحكمة إذن؟
- لتدرك عاقبة الحياد عن الطريق، إنذارك قبل إعدادك لدورك القادم.
- تشعريني بالخوف مما هو قادم.
- لو لم يدلك الإيمان فيكفي الخوف دليلاً.
- وهل أنت مؤمنة؟

الصمت يبسط رداءه، وعيناها تضجان بالكلام، يشعر أنه أُلقي به في وسط هذا الخضم فجأة، قبل شهر من الآن لم تكن هناك طيف، ولا الأب، العالم كان بحدوده المعروفة التي اعتاد عليه منذ وعى على الدنيا، الآن يكتشف وجود حياة أخرى داخل حياته، ذكريات تنساب كقطرات الماء، تحدّد له طريقه في قادم الأيام، ثم تأتي طيف لتحوز على مكانها الشاغر في القلب سنين عدداً، هل نستطيع أن ننسى الحب ثم نعود لنتذكره، بكامل عنفوانه وقوّته، يبدو كلّ هذا غير منطقي وعبثي، ولكنه حقيقي بحيث لا يغادره

ليل نهار.
كان البهو خالياً إلا منه، ومن النورس القابع عند الصخرة مثل تمثال من الرخام، تنبض الألوان التي تحدّ البهو في هدوء كتنفس النائم، تسبح الأسرة في فضاء البهو كنجوم بيضاء صغيرة، دنا السرير منه مثل كلب أليف، صعد عليه فتمدّد ليناسب طوله، يزداد نبض الألوان، وكأنها تغادر غفوتها أو ربّما تحلم، نعق النورس ثم عاد لجموده الأزلي، ارتفع سريره في بطء، وجسده يصبح أكثر خفّة، خلف ستار الأزرق الشفاف، يبدو خيال سرير صغير غطى الأزرق أبيضه الناصع، الجسد الممدد الصغير لم يكن واضح الملامح، والأزرق الشفاف يدثره بالغموض، هل هذه يقظة أمْ حلم؟ الحدّ الفاصل بينهما أضحى واهياً حتى لا يكاد يدركه، هل واقع خارج حدود الواقع، أمْ حلم يرتدي ثوب اليقظة؟ تلفّه الحيرة والأسئلة، والجسد المتدثر بالأزرق يتمطى في ملل، ثم يعود لجموده، والنورس لا يعيره انتباهاً كأنه ليس هنا، أتى الصوت مختلفاً، وكأنه ليس هو، قال:
- الآن أضحيت جاهزاً يا بصير لمهمتك التي تمّ إعدادك لها قبل أكثر من عقدين من الزمان.
قلبه يخفق في عنف، والعرق ينساب أسفل عنقه، رغم برودة المكان، حبة الذرة خاصته تتمدد في فضول
أكمل الصوت:
- حان وقت التخلص من حبة الذرة خاصتك فقد أدّت ووظيفتها

علـى الشـكل الأكمل.
سـبح السريـر في فضـاء المـكان ثـم اختفـى تـاركاً جسـده يسـقط عنـد صخـرة النـورس، ينظـر إلى العينـين اللتـان تدعوانـه للغـوص، سرعـان مـا يسـقط في هاويـة يحفّهـا الأحمـر الوهـاج، شـعر بالذعـر ولكـن سرعتـه تباطـأت حتـى كاد أنْ يسـكن في منتصـف الهاويـة، انفتـح ممـر جانبـي، ذكّـره بأزقـة مسـتعمرة النمـل، ينسـاب جسـده كنسـمة داخـل المـكان، البهـو الـذي يفـضي إليـه الممـر كان ينبـض بالأخـضر الهـادئ، يندفـع جسـده نحـو قمـع ضخـم مـن الزجـاج يلفّـه الأخـضر كالوشـاح، تجمّـد جسـده فجـأة وكأن هنـاك يـداً خفيـة أمسـكت بـه، قلّبتـه ذات اليـد عـلى بطنـه، ثـم أمسـكت بحبـة الـذرة في قـوّة ونزعتهـا في قسـوة، نـدت منـه صرخـة صغـيرة لم تغـادر شـفتيه، شـعر بجسـده الخفيـف يـزداد خفّـة، وهـو في رحلـة العـودة، هـل ذهبـت بالفعـل، لم يعـد لهـا وجـود؟ تسـللت يـده في حـذر ولامسـت العنـق، كانـت عنقـاً عاديـة، خاليـة مـن حبـة الـذرة، ناعمـة ومسـتقيمة، كأنهـا لم تعرفهـا يومـاً، وصـل إلى البهـو واسـتلقى عـلى السريـر تكسـوه الدهشـة وعـدم التصديـق والخـوف ممـا هـو قـادم.
قال الصوت:
– سـتقوم بـالإشراف عـلى خليتـك الأولى مـن الحارسـات بعـد أنْ أثبت كفاءتـك كحـارس طـوال الأعوام السـابقة.
– ولكني لم أعمل كحارس من قبل.
أصدر الصوت شيئاً شبيها بالضحكة ثم قال:

- بـل تعمـل كحـارس منـذ وقـت طويـل، حبـات الـذرة كانـت تتراقـص أمـام عينيـك، ونسـتقي نحـن مدلولاتهـا بطرقنـا الخاصـة.
- هل أنتم موجودون هناك؟

أعتـم المـكان فجـأة، ثـم بـرز مـن وسـط الظـلام بـاب دلـف منـه سـابحاً في الفـراغ، أغرقـه الضـوء حتـى غـشي عينيـه، فأغمضهـما ثـم أعـاد فتحهـما في بـطء، البهـو الواسـع بجدرانـه المغطـاة بالأرفـف التـي ازدحمـت بالكتـب كان غريبـاً، ولكنـه كان يعـرف وجهتـه، وكأنـه أتـى إلى هنـا عـشرات المـرّات، لامسـت قدمـاه الأرض المكسـوّة بالخشـب، فتوجّـه نحـو اليسـار ثـم انحـرف يمينـاً داخـل ممـر صغـير كتـب في أعـلاه البصـير، عـشرات المجلـدات كانـت موضوعـة في نظـام، وقـد خـطّ عليهـا اسـمه واضحـاً، تنـاول إحداهـا وقلّبـه بـين يديـه، ثـم توقّـف عنـد صفحـة منـه اختارهـا عشـوائياً وشرع في القـراءة

«الرجـل الواقـف عنـد الناصيـة الشرقيـة مـن سـاحة الأحـكام، في مهرجـان قبـض الهـواء، كان يبـدو لاهيـاً عـن مظاهـر الفـرح والابتهاج التـي تجتـاح الجميـع مـن حولـه، كانـت عينـاه جاحظتـان، سـاهمتان، وملامـح وجهـه جامـدة، وكأنهـا قُـدت مـن الصخـر، حبـة الـذرة خاصتـه تضخّمـت حتـى غطّـت العنـق وتدلّـت بطـول الكتفـين حتـى منتصـف الظهـر، كانـت داكنـة اللـون حتـى قاربـت للسـواد، تـكاد تنفجـر مـن شـدّة امتلائهـا وتأرجحهـا»

أغلـق المُجلّـد وهـو يلهـث، عندمـا رأى هـذا الرجـل لم يكـن قـد تجـاوز السادسـة مـن العمـر، شـعر بالخـوف منـه، كان شروده مخيفـاً، وحبـة

الـذرة خاصتـه أكثـر بشـاعة مـن أي حبـة ذرة رآهـا مـن قبـل، تنـاول مُجلّـداً آخـر، قلّبـه وخفقـات قلبـه تـزداد، تجـوّل في ذكرياتـه، وتذكّـر مـا غـاب عـن ذهنـه، كلّ شيء مكتـوب بدقّـة بالغـة، لا يـدري كـم مـرّ من الوقـت، ولكـن حـين توقّـف كان يشـعر بالضيـاع، انتابـه إحسـاس من وجـد نفسـه عاريـاً في طريـق عـام، متـى كان يحـدث كلّ هـذا؟ وكيف؟ ومـا الغـرض منـه؟ ومَـن المسـتفيد مـن ورائـه؟ نظـر إلى المُجلّـدات ثـم قفـل راجعـاً مـن حيـث أتـى، حـين اسـتلقى عـلى سريـري خاطبـه الصـوت وكانـت تفـوح منه نـبرة الظفـر، رغـم احتفاظـه بنبرتـه المعتادة

- الآن قد علمت.

- بل قل جهلت وازددت جهلاً.

- المعرفة بقدر الحاجة، أنت الآن جاهز لقيادة خليتك الأولى.

- وما الدور الذي سأقوم به؟

- ليـس أمـراً صعبـاً عليـك تنسـيق المعلومـات التي تـردك مـن البصراء، وتزويـد الأطيـاف بهـا عنـد الحاجة مـن مكتبـة العقـل الأعظم.

ازداد نبـض الجـدار مـن حولـه، والأَسرة تتبعثـر في فضـاء البهـو، ثـم تقاربـت فـرأى طيـف، نعـق النـورس بصـوت قـوي ثـم هـدر المـوج فتشـبث بيـد طيـف المسـتلقية بجـواره وابتلـع ريقـه في صعوبـة.

(٩)

تتابـع اللّقطـات في ذاكرتـه بشـكل عشـوائي مما يجعلهـا مبعثـرة وغـير مترابطـة فيـما بينهـا، ولكـن حقيقـة الأمـر أنّ النظـام يختبئ بين عشـوائية الأحـداث وتبعاتهـا، كلّ حادثـة كانـت تحـدث لغـرض معـين، ومـن أجـل تحقيـق هـدف قـد يغيـب عـن أذهاننـا، وقـد يحضر فننكـره، ليس للقـدر دور كبـير كـما ندّعـي في خلـق واقـع معيـش، تزكـم أنفنـا عفونته ونتقلّـب في جحيمـه ليـل نهـار، ولكـن الـدور الكبـير للفعـل الإنسـاني نفسـه، اليـد التـي تمتـد في الخبـاء لتعبـث بالأحـداث، وتوجههـا نحـو مصالحهـا الذاتيـة في أنانيـة مطلقـة، تـتردّد في وسـط هـذا العبـث كلمات رنانـة عظيمـة الأثـر، الوطـن، الشـعب، العـزة، الكرامـة، التقـدّم، الرقـي، الحضـارة، التضحيـة، إنـكار الـذات، الشـهادة، الفـداء، الـدم والـروح، ولكنهـا مُجـرد كلـمات جوفـاء، تحمـل في عسـلها المخـدر الذي يُغيـب وعـي الشـعوب، فتنقـاد طائعـة إلى مـا يـراد بهـا، في بـلاد السـين حيـث يسـير الجميـع معصـوبي الأعـين عـن حقيقـة مـا يـدور حولهـم، الغارقـون في المراهنـات، وسـباق الحمـير، وجلـد الـذات، الذيـن

يقتاتـون الهـواء والخـواء والعبـث، وينتظـرون الفـرج مـن السـماء، في بـلاد السـين لا شيء جديـد، والسـينيون لا ينهضـون مـن عثـرة، إلا ليتعثـروا بأخـرى، هـذا نتـاج لفعـل مسـتمر ومنظـم ومـدروس، مـا يبـدو عشـوائياً مـن الخـارج، ليـس كذلـك في حقيقـة الأمـر، هنـاك في العمـق، يوجـد تخطيـط منظّـم للوصـول إلى هـذه المرحلـة، والتـي تليهـا والتـي تليهـا، حبـات الـذرة المتراقصـة في أعناقهـم وهـم عنهـا غافلـون، كانـت تنبـئ عـن حالهـم، حبـات الـذرة التـي يـزداد حجمهـا كلّ صبـاح، وتسـحب السـعادة مـن حياتهـم بـلا هـوادة وتخلـف البـؤس والخـوف والـذل والخنـوع، كان يراهـا تسـحق بعضهـم تحـت وطأتهـا، كـبر حجمهـا وضخامتـه يظهـر في نظراتهـم الزائغـة، وشـفاهم المتشـققة، وأيديهـم المرتجفـة، السـؤال الـذي لا يحمـل إجابـة في وَعْيهـم، لمـاذا يحـدث كلّ هـذا ومَـن المسـتفيد مـن ورائـه؟ العجـز عـن توفـير لقمـة العيـش الكريمـة، والتعليـم الجيـد، والوظائـف للأبنـاء، الخـوف مـن الكائـن الخـرافي العمـلاق، الـذي يفـرد جناحيـه حاجبـاً عـن أعينهـم الشـمس والحيـاة، ومنقـاره المسـلّط عـلى رؤوسـهم، في كامـل الاسـتعداد لنقرهـا في أي لحظـة، مخلفـاً ثقوبـاً غـير مرئيـة، تتسـرّب منها الحيـاة دون أنْ يشـعروا، تندلـق لتمتـزج بأديـم الأرض وتسـتحيل تراباً، وهـم يحسـنون الظـنّ بمخابـئ حياتهـم، تحـت ركام الخـوف والحـذر، ولكـن المنقـار يحفـر عميقـاً، ويمتـص رحيـق الحيـاة مخلِّفـاً البـؤس والدمـار واليـأس.

أحيـاء العاصمـة (ص) التسـعة تتزاحـم وتتداخـل وتتشـابه حتـى لا

تكاد تفرق بينها، أزقة ضيقة متسخة وعارية، تفتح أبواب المنازل بألوانها الباهتة في تلك الأزقة مباشرة، وتجري في أوردتها المتعرجة، مياه المجاري والفئران والصراصير، وروث الحمير، وبول الأطفال الصغار، وبراز الدواجن، تلك الأزقة التي تبدأ من مؤخرة بيت ما، وتنتهي في بيت آخر، هي مجالس الأنس، وطريق المشاة، وأسواق صغيرة لبيع الخضر والفواكه التالفة، وتجمعات لعمل المراهنات الصغيرة، ومراكز لبث الشائعات واستقبالها، وإعادة تدويرها مرّة أخرى، في وسط هذه الأزقة، يدور شقي الرحى لحياة معظم السينيين، سباقات الحمير، والمراهنات على سباق الحمير، انسحب رونق الحياة من وجوههم مخلِّفاً بؤساً مقيماً، وعيوناً خابية، وابتسامات ذابلة، رغم التفاوت الاقتصادي بين سكان الأحياء التسعة ولكن يجمع بينهم الفقر، وإنْ تفاوتت حِدّته وطُرق معالجته، من أُسرة لأخرى، كما يجمعهم إدمانهم لمتابعة سباقات الحمير والمراهنة عليها، ومعرفة دقائق حياتها، وشراء الصحف التي تتناول أخبارها، وأخبار سائسيها، وما يتعلق بخصوصيات حياتهم، مثل الزواج والطلاق، وشراء منزل جديد، أو التعاقد من أجل تدريب حمار ينبئ بمستقبل واعد، وغيرها من التفاصيل التي لا تنتهي، السواد الأعظم منهم مرتبط بالحمير ونشاطها ارتباطاً وثيقاً لا فكاك منه، فمعظمهم إما عمال في إسطبلات الحمير ذاتها، مسؤولين عن نظافتها وتعطيرها وتهويتها، وتجهيز الوجبات المختلفة المعقّدة المخصّصة لها، تحت إشراف مساعدي الساسة،

وبعضهم يعمل حمّالاً في شركات الأمباز، أو عامل يومية، وكثير منهم مراهنون فاشلون، يئسوا من حلم الفوز بمراهنة مستحيلة، وقنعوا بالعمل كمستشارين في المراهنات، بمقابل مادي ضعيف لا يسد الرمق، أو محصلين للمبالغ التي تدفع في تلك المراهنات، فتمرّ النقود من بين أصابعهم في زيارات خاطفة، قبل أنْ تبتلعها جيوب كبار المراهنين، ثم لا ترى النور مرّة أخرى، وآخرون يعملون كمساعدين للأطباء البيطريين، وغيرهم كمحرّرين صغار في الصحف المتخصصة في نشاطات الحمير، هذا الحبل المتين، الذي يجمعهم ويشدّهم إلى بعضهم البعض في قوّة، يجعل من حياتهم تدور في فلك واحد، لا تكاد تفلت منه إلا لتعود إليه في سرعة، اعتادوا على نمط حياتهم لدرجة أنهم لا يملكون الشجاعة على التفكير في تغييره، ينظرون إلى الحي الاخضر العاشر الذي يقع في طرف المدينة، كما ينظرون إلى السماء، حلم لا يطال، والتفكير فيه يقود إلى الجنون، غير خوفهم من افتقاد الحياة هنا، حين تأخذ أحدهم تصاريف الحياة بعيداً، أول ما يفعله وقت عودته، هو تنشق الهواء العبق برائحة روث الحمير، والغبار ورائحة البول، مُعبِّراً عن شدّة اشتياقه وعظم ولائه للمكان، تلك العلاقة الماشوسية التي تجمع بين السينيين وبلاد السين التي تجيد تعذيبهم حتى النخاع، ورغم ذلك يتدلهون في حبها، والتعلق بها.

الساحة الفاصلة بين الحي الأخضر، وبقية أحياء العاصمة صاد، ليست كبيرة بقياس المسافة ولكن اجتيازها صعباً إلا لقلّة، لعب

القـدر وحسـن الحـظّ، وعبثيـة الحيـاة دوراً كبـيراً ليقفـزوا إلى هنـاك، وأولئـك يختصـون بمواهـب عظيمـة في سياسـة الحمـير، ظهـرت مواهبهـم منـذ الصغـر، وتنبـأ لهـم الجميـع بمسـتقبل باهـر، وهـم يلحظـون علاقاتهـم الدافئـة بالحمـير، وهمسـهم في آذانهـم، ونهيق الحمير الـذي يفسّره العالمـون ببواطـن الأمـور بالـسرور البائـن، أولئـك عبروا السـاحة ولكنهـم لم يتوغلـوا داخـل الحـي الأخـضر، فقطنـوا في أطراف الحـي، بالقـرب مـن السـاحة، بحيـث يسـتطيعون متابعـة نسـق الحيـاة في الأزقـة التـي شـهدت بداياتهـم، يجاورهـم مقدمـو برامـج سـباقات الحمـير، وكبـار المراهنـين، ومـلاك القنـوات، ومـوردو الأمبـاز والـرّدة والأعـلاف، وغيرهـا مـن المسـتلزمات الحميريـة التـي لا غنـى عنهـا، حيـث يشـكِّلون مجتمـع الحمـير الصفـوي، الـذي يقطـف ثمار سـباقات الحمـير ورهاناتهـا، ويسـتمتع بالشـهرة والحـب والاحـترام والتقديـر أينـما حـلّ، يـلي هـذا المجتمـع، مجموعـة رجـال الأعـمال والأُسر العريقة في بـلاد السـين، يجاورهـم مجتمـع الأغنيـاء العاطلـون عـن العمـل، الغارقـون في المـال ببشرتهـم الناعمـة، وكلامهـم المنمـق، ولبسـهم الأنيـق، ونمطهـم الراقـي، ولكـن لا أحـد يعلـم لـه عمـلاً معينـاً، يـدر عليهـم ثرواتهـم التـي لا تنقطـع، يفصـل بـين هـؤلاء والمبـاني الحكومية، شـارع الأم الـرؤوم الضخـم، المظلـل بالأشـجار، حيـث تمتـدّ قصـور الـوزراء، ووكلاء الـوزارات، وكبـار الضبـاط، وغيرهـم مـن منسـوبي الأم الـرؤوم، في بيـوت تتقـارب مـن حيـث الفخامـة والرهبـة والهدوء، في وسـط الحـي العـاشر بجمالـه البـاذخ.

الجامعات في بلاد السين، مثل الجامعات في كل مكان، بها طلاب وطالبات، ومبانٍ، وبعض الأشجار، والمقاعد الأسمنتية المتناثرة في كلّ مكان، ثم لا شيء آخر يجمعها ببقية الجامعات في أنحاء العالم، يعتمد التحصيل الأكاديمي في الجامعات على السماع أكثر من القراءة أو البحث، فلا مراجع ولا كتب ولا أبحاث، ولا معامل مجهزة لتطبيق التجارب العلمية عليها، في بلاد السين كانت توجد جامعتان إحداهما في العاصمة صاد، والثانية في عاصمة الإقليم الجنوبي، ولكن مع الحملة التعبوية للنهضة التعليمة قبل عقد من الزمن، تم فتح ما يزيد عن خمسَ عشرة جامعة في غضون عامين لا أكثر، يوجد في العاصمة صاد أكثر من نصفها، تمتاز الجامعتان العريقتان بتأريخ جيد، ومبانٍ أثرية راقية، ولا زال الطلاب الذين ينتمون إليها يشعرون بالتميُّز عن أقرانهم في بقية الجامعات، استناداً على تأريخها العريق، ولكن على مستوى التحصيل الأكاديمي، لا يوجد فرق ملحوظ بينهما وبين الجامعات الحديثة، المكتبات الموجودة في الجامعات، مكتبات صغيرة تحتوي على مراجع قليلة، كما أنها كتبت في فترات زمنية متفاوتة، أحدثها مرّت عليه من السنوات ما يجعله كتاباً تاريخياً أكثر من كونه مرجعاً علمياً حديثاً، ومع هذا فإن الاطلاع على هذه المراجع بعِلاتها، يعدّ عملية معقّدة ومرهقة للطالب، تستدعي رهن بطاقته الجامعية، وكتابة تعهد بالمحافظة عليها أثناء فترة الاطلاع داخل المكتبة، غير عهدة مالية ثابتة يجب دفعها لحظة الاستلام، وإرجاعها بعد

الفـراغ مـن الاطـلاع عـلى المرجـع، كـما أنّ إعادتهـا لأمـين المكتبـة يتبعـه تفتيـش دقيـق لحالـة المرجـع، والتأكـد مـن سـلامته مـع دفـع غرامـة فوريـة في حالـة أقـلّ تلـف حسـبما يـرى أمـين المكتبـة، وغالبـاً مـا تدفـع في حالــة وجــود أي تلــف في المرجــع، حتــى وإنْ كان تخيليــاً وليــس حقيقيـاً، ويتـمّ تقييـم التلـف بشـكل فـوري بواسـطة أمـين المكتبـة، وخصمـه مـن العهـدة المدفوعـة قبـل الاسـتلام، هـذه الإجـراءات المعّقـدة مـع احتماليـة الدفـع، بعـد الفـراغ مـن الاطـلاع، والتـي تصـل لدرجـة الحتميـة، دفعـت الطـلاب للاسـتغناء عـن المراجـع قليلـة الفائـدة، عاليـة التكلفـة، والاكتفـاء بالإنصـات إلى المحـاضر في المحـاضرة، والنقـاط التـي يتـمّ تلخيصهـا في كراسـات صغـيرة، ثـم يتبـادل الطـلاب المعلومـات بعـد انتهـاء المحـاضرة، سـعياً للوصـول إلى صيغـة مرضيـة للمعلومـات التـي ينشرهـا المحـاضرون عـادة في عجلـة وامتعـاض وترفـع.

كليـة الحمـير الحيويـة (BIO-DONKEY) كانـت فرعـاً مـن كليـة الإنتـاج الحيـواني، تختـص بحيـاة الحمـير، وسُـبُل تغذيتهـا وتكاثرهـا، ودورة حياتهـا وسـلالاتها وأنواعهـا، الاهتـمام الـذي حظيـت بـه الحمـير في العقديـن الأخيريـن، خلـق زخمـاً حـول كليـة الإنتـاج الحيـواني، بقصـد إيجـاد فرصـة عمـل في تلـك السـوق الواعـدة، ثـم قامـت إدارة الكليـة نفسـها، باسـتحداث قسـم الحمـير الحيويـة، ومـع تنامـي الاهتـمام بالحمـير، تـمّ فصـل القسـم ككليـة منفصلـة بذاتهـا، يتـمّ التقديـم والقبـول لهـا بشـكل منفصـل، التنافـس العـالي عـلى الدخـول إليهـا

جعلها من كليات الصفوة في بلاد السين، متفوّقة على الكليات التقليدية التي تتصدر اهتمام الطلاب عادة، الرغبة المتزايدة في الدخول إلى الكلية، جعل منها مطلباً صعباً، لا يناله إلا المتفوقون من الطلاب، وهذا بالطبع كان محصوراً على طلاب الحي الأخضر بشكل شبه كامل، فدخول طالب من مدارس الأحياء التسعة الأخرى، إلى كلية الحمير الحيوية، كان حدثاً يستدعي الدهشة والتعجب، التفوق الأكاديمي الذي يميز طلاب الحي الأخضر، جعل من الكلية مجتمعاً مخملياً، يضم أبناء الطبقة الراقية، فتحوّلت ردهات الكلية إلى امتداد للحي الأخضر داخل الجامعة واستحالت جزيرة معزولة لا يقربها طلاب الكليات الأخرى إلا عند الضرورة القصوى.

ظهرت عدّة أقسام في الكلية لمختلف التخصصات، مثل التغذية الحميرية، الإنتاج الحميري، الجينو حميرية، خريجو الكلية كانت تتلقفهم سوق العمل في لهفة، كمستشارين لسائسي الحمير، أو كمساعدين في أسوأ الحالات، خاصة خريجي قسم التغذية، كما كان يتم توظيفهم كمستشارين في تحديد جودة سلالات الحمير، والعمل على تكاثر الجيد منها، والتدخل الجيني من أجل إنتاج سلالات بصفات أفضل، أملاً في حيازة قصب السبق في مهرجانات الحمير بجوائزها المجزية، على العكس من بقية الكليات في الجامعة، كان المساق الأكاديمي في كلية الحمير الحيوية مساراً منضبطاً إلى الحدّ البعيد، كانت المعامل مكتملة لإجراء التجارب، والحظائر التابعة

للكليـة تحتشـد بمختلـف سـلالات الحمـير المهيـأة لإجـراء الأبحـاث والتجـارب عليهـا، ولا يقـف الأمـر عنـد هـذا، بـل يتـمّ اسـتضافة كبـار السائسـين في الأسـابيع الحميريـة الخاصـة بالكليـة، مهـما ارتفعـت تكلفتهـم، خاصـة وأنهـم يعـدون مـن صفـوة المجتمـع السـيني ويتابـع السـينيون أخبارهـم ودقائـق المتغـيرات في حياتهـم في تشـوّق عظيـم. واحـدة مـن عجائـب الكليـة كان دكتـور مختـص في علـم الجينـو حميرية، والـذي صرّح في القنـاة الرسـمية أنّـه نجـح في إنتـاج الحـمار الخـارق معمليـاً، بعـد التعديـل الجينـي، مكتسـباً أفضـل الصفـات الحميريـة المسـتخلصة مـن أنقـى سـلالات الحمـير، والتـي تنحـصر في السرعـة والجَلـد والصـبر والجـمال، كـما سـيكون حمـاراً غـير متطلـبٍ غذائـي، ويحتـاج إلى نصـف الكميـة مـن الأمبـاز التـي يحتاجهـا الحـمار العـادي، وانتـشر الخـبر كالنـار في الهشـيم في أوسـاط السـينيين، وبـدأ البعـض يتحـدث عـن الصفـات التـي سـيتمتع بهـا الحـمار الخـارق، فتحدثـوا عـن جمالـه، وأعينـه الكحيلـة الواسـعة، وخـصره الضامـر، وسـاقيه الطويلتـين النحيلتـين، كـما تحـدث بعضهـم عـن سرعتـه الخارقـة، التـي سيكسـب بهـا أي سـباق قبـل أنْ تصـل بقيـة الحمـير إلى نصـف الحلبـة، وتحـدث النـاس عن قلّـة الغـذاء الـذي سـيتناوله، وقلّـة تكلفتـه بالتالي، بـل ذهـب بعضهـم إلى أن قبضـة مـن الأمبـاز سـتكفيه يومـين كاملـين، وظـلّ النـاس يترقبـون الإشـهار الرسـمي للحـمار الخـارق، في مهرجـان الحمـير السـنوي ممثـلاً عن كليـة الجينـو حميريـة، كحالـة اسـتثنائية أولى، فالحمـير المشـاركة في المهرجـان، لا بُـدّ أن تكـون تابعـة لواحـد مـن

الأقاليم السينية الخمسة المعروفة.

شهد السباق حضوراً جماهيرياً كثيفاً في ساحة الأحكام، حتى ضاق بهم المكان، واحتشد الجمهور بطول الطرق المؤدية إلى الساحة، وتمدّدوا غرباً حتى سوق كما هو، الشاشات العملاقة كانت تبث الحدث مباشرة للجماهير المحتشدة في الشوارع، تنقل جميع لفتات الحمار الخارق، منتزعة آهات الإعجاب والحسرة من أفواه الجماهير، بقامته المديدة وأصالته العريقة، التي جعلت من الحمير التي ستشاركه السباق، تبدو كحمير قزمة تصلح لمهرجانات قبض الهواء، وليس لمهرجان سباق الحمير السنوي.

وحين بدأ السباق، انطلق الحمار الخارق كالسهم، مخترقاً الحلبة، ولكن قبل الوصول إلى المنتصف، بدأت سرعته في التباطؤ، وبدأت الحمير الأخرى في مزاحمته على المركز الأول، وعندما نهاية السباق حلّ الحمار الخارق رابعاً، وسط صمت خيّم على الجمهور داخل وخارج ساحة الأحكام، في حقيقة الأمر، أنّ المركز الرابع يُعد مركزاً جيداً لمشاركة أولى لأي حمار آخر، ولكن ليس الحمار الخارق، الذي أثير حوله زخم كبير، وتمّ تصديره للسينيين على أنه سيكون ظاهرة في مهرجانات الحمير، وعقدت حوله مراهنات ضخمة، خلفت خسائر كبيرة على المتراهنين، أعقب المهرجان انفجار إعلامي، يتحدث عن جدوى وجود كلية الجينو حميرية، إذا كان هذا هو ما تقدّمه للبلاد، كما ظهر عدد من الرسوم الكاريكاتيرية التي تسخر من الحمار الخارق، حيث صوّره بعضهم

وهـو يحـاول الطـيران وقدمـاه مغروسـتان في الأرض، في حـين تحلـق الحمـير مـن حولـه، كـما صـوّره كاريكاتـير آخـر وهـو يـأتي للسـباق عـلى كـرسي متحـرك، أجـبرت موجـة السـخرية الدكتـور الجينـو حميري للظهـور في الإعـلام مـرّة أخـرى، وبـرّر سـبب هزيمـة الحـمار الخـارق بعـدم اعتيـاده عـلى الجماهـير، مما أثـر عـلى أدائـه، ولكـن حديثـه أخـذ عـلى محمـل السـخرية أيضـاً، وتربّـص بـه كبـار المراهنـون، الذيـن لم يعتـادوا عـلى الخسـارة، حتـى تـمّ اتهامـه بالاحتيـال، وصـدر قـرار مـن الأم الـرؤوم بوقـف التجـارب الجينيـة عـلى الحمـير، وذلـك لإضفـاء النزاهـة، وعدالـة المنافسـة بـين الحمـير في مهرجانهـا السـنوي، وحـصر دور الكليـة البيـو حميريـة في بقيـة العلـوم المختصـة بالحمـير، تـمّ تحويـل قسـم الجينـو حميريـة، إلى قسـم سـلالات الحمـير، ولكـن لا زالـت تـدرس بـه نفـس العلـوم السـابقة، وتجـرى ذات التجـارب المعمليـة، برضـا الحكومـة نفسـها، ولكـن شريطـة أنْ لا يتعـدى الأمـر الحمـير الحكوميـة، وهنـاك شـائعة غـير مؤكـدة بـأنّ المـكادي واحـد مـن التجـارب المعمليـة السِّرّيـة لقسـم السـلالات الكائـن في كليـة البيـو حميريـة بجامعـة السـين العريقـة.

(١٠)

مـرّ عامـان كامـلان، ينظـر البصـير إلى الخلـف، فيبـصر أزمانـاً طويلـة بعيـدة سـاحقة القِـدم، أسـلمته إلى تلـك اللّحظـة، يتلمـس حبـة الـذرة، أو مـكان حبـة الـذرة فيجـد عنقـه أملسـاً ناعـماً مسـتوياً، لم يعتـد عـلى الأمـر بعـد، لا يـزال جسـده ينقبـض حـين يلامس العـرق عنقـه، يندفع موشـكاً عـلى الرقـص، ثـم ينتبـه إلى أنهـا لم تعـد موجـودة فيمسـك.

في العامـين السـابقين انفصـل البصـير عـن عالمـه الـذي يعرفـه، تكشّـفت في وجهـه عـوالم لم يحـط بهـا علـماً، ولم يتخيّـل وجودهـا في يـوم مـا، بعـد مـرور عامـين مـن اجتماعـه الأول بخليتـه الصغـيرة، بحضـور النـورس الصامـت في تأملـه الأبـدي، بـدأت مرحلـة جديـدة مـن حياتـه، حيـاة تَجُـبُّ مـا قبلهـا، أضحـى ينظـر لبـلاد السـين بغـير العـين التـي اعتادهـا، قبـل ذلـك كان واحـداً مـن غـمار النـاس، يخشـى الفصـل مـن الوظيفـة، ويخـاف رجـال الأمـن الشـعبي، عندمـا كانـت

تسيطر عليه حبة الذرة، وتفرض قوانينها الخاصة عليه، فيرقص ليبدّد مللها ويكسب رضاها، كلّ هذا أضحى الآن مُجرد ذكرى بعيدة، كأنها حلم زاره ذات ليلة وغادر غير مأسوف عليه، القوّة التي توفرت بين يديه عكست الآية، لم يعد يخشى ولكن يُخشى منه، حتى أفراد الأمن الشعبي، بل حتى ضباطهم وقادتهم، رؤساء الأقسام في وزارة المعارف، والوكلاء والوزير بمقعده الوثير، كل هؤلاء يسيرون عراة من دون ثياب أمام ناظريه، تتساقط ثيابهم الفخمة، وملامحهم الوقورة، وسيرهم المنمقة، وتأريخهم الناصع، فيظهر ما كانوا يخفونه، تظهر كروشهم المترهلة، ونظراتهم الخابية، نهمهم للحياة، وقتالهم عليها، وحرصهم على قطف وردتها، يكفيه فقط أنْ يتحرك من مكتبه الكائن في الركن القصي من مكتبة العقل الأعظم، حتى الوصول للقسم الخاص بالقارئ، فيقلّب صفحات من يشاء منهم، هنا توجد ملفات الوزراء، ومساعديهم ووكلائهم، وزوجاتهم، وعشيقاتهم، وتاريخهم الأسود الذي يناضلون في إخفائه، توجد طموحاتهم، وأطماعهم التي لا تحدّها حدود، ببساطة توجد حقيقتهم التي يخفونها خلف ابتساماتهم الرحيمة، ونظراتهم المتسامحة، في الفترة الأولى كان يقرأ مندهشاً، ما بين مصدق ومكذب، ولكن لا يوجد مجال للتكذيب، فكلّ ما خُطّ هنا سُكب من عقولهم إلى عقول القراء، ومنه إلى القسم الخاص به، في عقل الأب الأعظم، ثم انتقل إلى مرحلة التأمل في حالهم، ومآلهم، وأخيراً رسا على رصيف السخرية من كلّ هذا،

ومدى عبثيته وانحطاطه وانعدام جدواه.

يقوم عمله ببساطة على التبويب، تم تقسيم السينيين إلى خمسة أقسام رئيسية في المكتبة، والأقسام ذاتها تتفرع إلى أقسام أصغر لتشمل الخريطة الجيوسياسية السينية بشكل مفصّل.

سينيون طائعون منقادون، يوالون الأم الرؤوم من باب الحب ولا شيء سواه، يرون أنّ أمن وسلامة بلاد السين مرتبطة بوجود الأم الرؤوم، وإدارتها لشأن البلد، عادة ما يتواجد هؤلاء في احتفالات الثورة، يحملون الرايات الخفاقة منذ الصباح الباكر، لا يهمهم الجوع أو العطش، أو الشمس أو المطر، يشجعون المكادي في إخلاص لا تشوبه شائبة، حبات الذرة خاصتهم تكون عادة صغيرة الحجم، وقشرتها مشدودة، ولونها يانع الاخضرار، يوضع هؤلاء في القسم الأخضر من المكتبة، يُبوِّب البصير من تحتهم معلومات القراء في يسر، ولاء، تضحية، اعتقاد، انقياد، لا تعقيد ولا نقاشات أو فلسفات تفضي إلى الخلاف، التوصية الدائمة، يظلّ الوضع على ما هو عليه، لا يُشرد من عمله لا يُعتقل لا يَترقى لا يَفقر لا يَغنى.

يقابلهم في الجانب المقابل القسم الأحمر، معارضون على الدوام، ورافضون لكلّ سياسات الأم الرؤوم، تتفاوت ردود أفعالهم تجاه هذا الأمر تفاوتاً كبيراً، ما بين التلميح إلى التصريح، ولكن المُسلّم به هو الرفض التام والمعارضة الخالصة للأم الرؤوم، تتفاوت دوافعهم في ذلك من المرارات الذاتية، لجراحات خاصة، ينسبونها

إلى الأم الـرؤوم وسياسـاتها، وأولئـك بشـكل خـاص ينتسـبون إلى الإقليـم الشرقـي، والإقليـم الجنـوبي، المكتوون بنـيران الحـرب، يجزمون أنّ النـار التهمتهـم وحدهـم، يؤمنـون بخيانـة السـينيين لهـم، يشـعرون بالخـذلان، فينظـرون إلى بقيـة بـلاد السـين، وإلى الأم الـرؤوم كحبيـب غـادر، تخـلّى عنهـم في أشـدِّ أوقـات الحاجـة، تتفـاوت ردود أفعالهـم، مـا بـين التصريـح بالمقـت، والانضـمام للجماعـات الداعيـة للانفصـال، التـي تتكاثـر إلى مـا لا نهايـة، أو الانتسـاب لعصابـات النهـب وتجـارة الأعضـاء. كـما يضـم ذات القسـم لـواء أصحـاب المـرارات الذاتيـة قسـماً كبـيراً مـن السـينيين الموتوريـن بسـبب ضربـات الأمـن الشـعبي التـي أصابـت حبيبـاً قريبـاً، زوجـاً أو أبـاً أو ابنـاً، وقوفهـم عاجزيـن عـن تقديـم يـد المسـاعدة إليهـم، خلّـف مـرارة في الفـم لا يزيلهـا مرور السـنوات، يظـلّ الإحسـاس بالغبـن والظلـم والعجـز ملازمـاً لهـم على المـدى الطويـل، ثـم يسـتحيل الأمـر إلى معارضـة صارمـة تجـاه الأم الـرؤوم، لا يبدلهـا تغيـير المواقـف أو الأشـخاص أو الأفعـال، تتضـاءل حبـات الـذرة لديهـم، حتـى تـكاد أنْ تتلاشـى مـن صغـر حجمهـا، ولكنهـا تتميـز بلونهـا الأحمـر الداكـن، وقشرتهـا المتجعّـدة، كأنهـا قـزم عجـوز يفيـض غضبـاً ومقتـاً، التوصيـة الدائمـة، عـزل، تكذيـب، تخويـن، تجريـم، إزالـة عنـد الـضرورة.

يسـتثنى منهـم الأطفـال دون الخامسـة، والذيـن يطلـق عليهـم أبنـاء الخونـة، البصـير وخليتـه الصغـيرة، التـي تقـع تحـت إدارتهـا عـشرات الخلايـا المنتـشرة بطـول بـلاد السـين، لجمـع المعلومـات بشـكل

روتيني، لتصبّ مُبوّبة ومُرتّبة في أقسامها المختلفة، يتشكل عمادها من أبناء الخونة، حبات الذرة خاصتهم حجمها ضخم يفوق حجم بطيخة متوسطة الحجم، بيضاوية داكنة اللون ومتجعّدة القشرة مثل عجوز جاوزت المئة، التوصية الدائمة، إعادة تأهيل، تدريب، استفادة قصوى.

القسم الأصفر، وهؤلاء محايدون مؤيدون، يميلون إلى الأم الرؤوم كخيار جيد لإدارة شؤون البلاد، مع بعض التحفظ على الطريقة نفسها ويرون أنّ في الإمكان أفضل مما كان، يتمّ التعامل مع هذا الفرع من أجل تجميل وجه الأم الرؤوم فعادة ما تملك تلك الفئة قاعدة شعبية جيدة، يتمّ دفعهم إلى المناصب في الصف الثاني، وتلميعهم إعلامياً بشكل جيد، يتمّ التعامل مع التنصيب بحذر بالغ، وتسلسل بطيء، وعلى عدّة مراحل، ومن ثَمَّ يتم التفريغ تحت التبويب الأصفر، وتحديد الخطوة القادمة بناء على المعلومات المبوبة، ينتهي الأمر عادة بوضعهم مثل مطبّات الطريق، ليحجموا طريق المعارضة في القسمين، البرتقالي، والأحمر استناداً على سمعتهم الجيدة وتأريخهم الناصع، حبات الذرة خاصتهم بحجمها المتوسط، الذي يعادل برتقالة بالغة، بقشرة مشدودة ولون فاتح جميل، يبوّب البصير من تحتهم معلومات القراء بشكل أكثر تفصيلاً، يتمّ تقسيمهم إلى فرعين صغيرين، فرع مؤيد محايد إيجابي، يبوّب من تحته ولاء، اعتقاد، وسيط، حوار، تجريب، وفرع مؤيد محايد سلبي يبوّب تحته، ولاء، اعتقاد، تحفيز، وسيط،

تحفيـز، تجريـب.

يقابلـه مـن الجهـة الأخـرى القسـم البرتقـالي، معـارض محايـد، وهـم يعتـبرون معارضـون لسياسـة الأم الـرؤوم مـن موقـف مبدئـي، بعيـداً عـن المـرارات الذاتيـة، وينقسـمون أيضـاً إلى قسـمين، معـارض محايـد إيجـابي، وهـو القسـم الخـلّاق المبـدع الـذي يمتلـك تأثـيراً كبـيراً عـلى الآخـر، يتـمّ التعامـل معـه بحـذر، مـن أجـل نقلـه إلى القسـم الثـاني الأصفـر، في عمليـة دقيقـة وطويلـة وخطـيرة، حبـات الـذرة خاصتهـم حجمهـا يعـادل حجـم حبـة الشـمام الناضجـة، وبشرتهـا مجعّـدة ولونهـا داكـن، التوصيـة الخاصـة بـه، مراقبـة، حـوار، تجريـب، القسـم الثـاني للبرتقـالي وهـو معـارض محايـد سـلبي، وهـو القسـم الصامـت، المنـزوي عـلى نفسـه، مفضّـلاً الاحتفـاظ برؤيتـه الخاصـة اتجـاه الأم الـرؤوم بدافعـين مختلفـين، الأول مـن منطلـق عـدم جـدوى المعارضـة وفعاليتهـا، (يتـمّ العمـل عـل نقلـه للقسـم الثـاني الأصفـر السـلبي في قفـزة كبـيرة مـروراً بسلسـلة طويلـة مـن العمليـات المرهقـة للخليـة) الثـاني مـن بـاب الخـوف، وعـدم الرغبـة في المجابهـة تهيبـاً للتبعـات (يتـم العمـل عـلى تحييـده بشـكل كامـل بالنقـل إلى القسـم الأبيـض)، حبـات الـذرة هنـا هـي الأضخـم، حتـى تـكاد تسـحق أعناقهـم، وبشرتهـا مجعـدة ولونهـا داكـن، ولكـن ليـس بقتامـة القسـم الأحمـر، التوصيـة الخاصـة بـه، ترهيـب، حـوار، وسـيط، حـوار، تجريـب.

يتبقّـى القسـم الأبيـض هـو القسـم المحايـد، ينتسـب للقسـم الأبيـض عـدد كبـير مـن السـينيين، الذيـن لا تقـع سياسـات الأم الـرؤوم ضمـن

اهتمامهم، يدورون في فلك لقمة العيش، والرهانات وسباقات الحمير، وأسعار الأمباز، ومهرجانات قبض الهواء، والشعر الرديء، حبات الذرة هنا يتفاوت حجمها ولونها، ولكنها تتفق في أنها ملساء وناعمة، ومترهلة على الجانبين، التوصية الخاصة بهم، تجاهل، حوار عند الضرورة.

التعامل مع القسمين الأصفر والبرتقالي هو المهمة الأكثر صعوبة وتأثيراً وتأثراً، فكثيراً ما يتم نقل الملفات من القسم الأصفر إلى الأخضر، أو الأبيض، وأحياناً إلى البرتقالي ونادراً إلى الأحمر، وعادة ما يحدث هذا عقب الكوارث والأزمات.

الإنجاز الأكبر لمهمة الخلية، هي نقل البرتقالي إلى الأصفر، فالمبوبين تحت هذين القسمين هما الأكثر ميلاً للتحليل والتفكير، والسعي لاتخاذ مواقف تتوافق مع قناعاتهم، وهذه هي الفئة التي تجتهد الأم الرؤوم في الاستفادة منها لأقصى درجة، عبر الترقي في المناصب على المستوى الثاني وأحياناً إلى المستوى الأول، ليكونوا وزراء أو حكام أقاليم، في حالة الاطمئنان لولائهم وحدبهم على مصلحة الأم الرؤوم، عادة ما يتمّ التعامل مع الأحمر والأبيض والأخضر من باب المحافظة على الوضع الراهن، من دون جهود حقيقية لتغيير المواقف، مع نزوع لجرِّ الأبيض نحو الأصفر، ومحاولة تجنيبه للبرتقالي قدر الإمكان.

سأل الأب لعلّ حيرته تنجلي:

– ومَن طيف أيها الأب؟

- طيف مجرد طيف.
- نعم أدرك أنها تتنقل بين عالم الواقع والأحلام في يسر.
- انظر إلى الأزرق الشفاف.
اقترب البصير من الأزرق الشفاف وغاص فيه، أحاطه اللّون بنبض خافت مضيء، تكشف لعينيه بهو واسع داخل البهو، يحتشد بالأَسرّة الصغيرة المتجاورة، عشرات الأَسرّة المتراصة بلونها الأبيض، الغارق في الضوء النابض، يحفّ البهو الصمت الرتيب، من بين هذا الجمع كان يدرك وجهته جيداً، تعدى عدداً من الأَسرّة ثم وقف عند أحدها، كانت طيف ذاهبة في غفوتها الطويلة، تماماً كما يذكرها في سنينهم الأولى، تبدو وديعة وجميلة محاطة بهالة من الجلال، خفق قلب البصير وهو يشمل المكان بعينيه، داهمه حزن قوي وعنيف والحقيقة تتكشف أمام عينيه بغتة، أتى صوته ضعيفاً متقطعاً مغموساً في الألم:
- طيف مجرد طفلة في الثالثة.
وضعت يدها على وجهها ثم أعادتها إلى مكانها، مطّت شفتيها وكأنها في خضم حلم ما، ثم عادت ملامحها إلى وداعتها المعتادة.
- هذا نسميه وضع الثبات، الطيف لا يغادر بعد عمر الخامسة، لذا تمّ وضعهم في بهو الأطياف للإبطاء من هرم الخلايا.
ما تفوّه به الأب كان حكماً بالإعدام على حبه لطيف، مصادرة للنقطة المضيئة الوحيدة في حياته.
- ولكنك حكمت عليها بالبقاء طفلة إلى الأبد!

- الأطياف حارسات ملزمات بالطاعة، وعدم الاعتراض وأنت الآن ترتقي من مرتبة الحارسات إلى مرتبة أعلى حاذر من الجدال غير المفيد.

نبرة الأب المبطنة بالتحذير لم تفت على البصير فصمت، طيف ليست نملة، طيف إنسان صودر عمره، وحقّه في الحياة والحب والنجاح والفشل، صودر حقّه في السؤال والاختيار، كما صودرت حياتهم أيضاً، تدافعت الكلمات إلى حلقه حتى شعر بالاختناق فكحّ ولم يتفوّه ببنت شفة.

- هل يخنقك حبك البشري البدائي؟ هل يخفق قلبك الآن كعصفور ذبيح، تشعر بأن العالم يتداعى من حولك ويستحيل ركاماً، مُجرد هراء، كلّ هذا مُجرد هراء، جوهر هذا الأمر هو التناسل، البيوض، الحارسات والعاملات والملكات، ما يؤلمك الآن مُجرد نبضة كهربائية تتقافز في رأسك لا قيمة لها ولا معنى، تظن أنّها العالم لكن العالم كان قبلها قائماً، وسيظلّ من بعدها قائماً أيضاً يا بصير.

في الاجتماع الأول أدركت أنّه يعلم، ربّما كان حزنه ناطقاً أو ربّما رأت قلبه يتخبط كعصفور ذبيح كما قال الأب، ظلّت صامتة طوال الاجتماع، تناجيه بنظرات طويلة فتكاد روحه تزهق، وليلتها ظلّ مسهداً حتى ساعات الفجر الأولى وعندما تسلل الكرى إلى جفونه أتته على عجلة تتلفت وكأنها تخشى الرقيب.

- لا أستطيع المكوث طويلاً يجب أنْ أغادر سريعاً.

جذبها نحوه في قوّة كي يضمّها فانسلت من بين ذراعيه كأنها خيال ماثل.

- الطيف لا يصلح للضمّ.

- ليس في الأمر فرق أنت طيف التي أعرف والتي أحب.

- أنا طيف مقيّد يا بصير، لقد رأيت قيدي اليوم وأدركت.

- رأيت طيف الصغيرة التي أعرفها منذ الأزل.

- ذلك قيدي الذي لا أستطيع منه فراراً.

- وكيف ذلك؟

- لا أستطيع الطواف إلا بالتزوّد منه، لو فارقته فارقتك.

- ولكني أحبك.

- الحب مُجرد هراء، هكذا يقول الأب، نحن الحارسات يا بصير.

- نحن بشر وليس نمل!

- ربّما تقصد نفسك ولكني لست كذلك.

- وما أنتِ إذن؟

أتى صوتها مغموساً في المرارة والقنوط.

- طيف مجرد طيف يا بصير.

قال الأب بصوت يبدو منزعجاً:

- لن تراها مرّة أخرى سأبعدها عن الخلية.

- ولكن لماذا؟

- طيف أضحى عمرها ثلاثة أعوام ويومين، هل تدرك معنى هذا؟ إنها تكبر.

- هل يعني أنها لم تعد تصلح كي تكون طيفاً جائلاً؟
- لا، ولكن عمرها لن يتقدّم إلا إذا فقدت الرغبة في الحياة، هذا بسبب الهراء الذي تؤمنون به.
- ولكن الحب يهب الحياة ولا ينتزعها.
- الحياة ليست هبة يا بصير، نحن نعمل من أجل الحياة ونقاتل لإيجادها، الحب مُجرد خرافة وكيمياء فاسدة.

لم يكن هناك جدوى من الحوار، تلاشت طيف كأنها لم تكن، تلاشت مثل أبطال القصص التي تروى قبل النوم فتبددها شمس الصباح، غرق في عمله الجديد متعمّداً النسيان، ترك القدر والروتين يأخذان حياته حسب رغبتهما، لم يكن لديه رغبة في الجدال والنقاش، ذهبت طيف وذهب معها كلّ ما له قيمة أو معنى، الأب الذي لا يرى سوى النمل والبيوض حكم عليها بالتلاشي، وظنّ بذلك أنّ حارساته في تمام الانتباه، لم يدرك أنّ طيف تقطن في منعرجات الروح وأزقتها، آثر الانزواء في مكتبه الصغير بألوانه الخمسة، غارقاً في الأخضر والأحمر وما بينهما، حتى أتت مرّة أخرى، لم يعلمه الأب بالأمر، كانت حاضرة في الاجتماع الروتيني، ولم تشارك إلا بمصافحتها الرسمية للبصير، ولا شيء آخر سوى صمتها المكين.

قال الأب:

- لست مطالباً بالتوضيح، ولكن ينبغي لكلّ هذا أن ينتهي يا بصير، نحتاج لطيف في الخلية الأم، معدّل العمر عندها الآن ثلاثة

أعـوام ونصـف، لقـد أُرهقنـا حتـى اسـتطعنا إيقـاف هـرم الخلايـا.
- أليس من الأسهل تعيين واحدة أخرى من الأطياف؟
- طيـف أعـلى منهـم جميعـاً وأكثـر خـبرة وفائـدة لنـا، ثـم أنّ هـذا ليـس الـذي اسـتدعيتك مـن أجلـه، هنـاك أمـر أهـم مـن الأوهـام التـي تؤرقـك، البرتقـالي والأحمـر الآن أكثـر ثقـلاً وعـدداً مـن أي وقـت مـضى، سـنعد لانقـلاب كبـير يعيـد ترتيـب الأقسـام الخمسـة بتـوازن مُـرضٍ لنـا، يجـب تغيـير زاويـة الرؤيـة عنـد السـينيين اتجـاه الأحـداث.
كان الجـوُّ العـام في بـلاد السـين أقـرب للانفجـار، تكاثـرت الضربـات المتتاليــة للجماعــات الانفصاليــة في الإقليمــين الجنــوبي والشرقــي، وحقّقـت انتصـارات خلّفـت دويـاً قويـاً، تذبـذب الأسـعار وارتفاعهـا المطـرد، تمـدّد الشـعور بعـدم الأمـان مـن الإقليمـين إلى المـدن المتاخمة لهما في الأقاليـم الأخـرى، تملمـل السـينيين أنفسـهم مـن كلّ هـذا، وارتفـاع صـوت المعارضـة، رغـم يـد الأمـن الشـعبي الباطشـة، عندمـا يسـير البصـير في وسـطهم، كان يـرى حبـات الـذرة تـكاد تسـحق أعناقهـم بملامحهـم العابسـة، ونظراتهـم الشـاردة، كثـيراً مـا شـعر بـأنّ شـيئاً مـا يمـور تحـت القـشرة السـاكنة، سـيعقبه انفجـار عظيـم.
قال الأب:
- لـو لم نقـم بتفريـغ مـا يمـور داخلهـم سـينفجر في وجهنـا، عـشرات الخلايـا عـلى أهبـة الاسـتعداد.
يتابـع البصـير انحـدار الملفـات مـن الأصفـر جهـة اليمـين في اطـراد مقلـق، الأبيـض يميـل نحـو البرتقـالي حثيثـاً، والبرتقـالي السـلبي

يضحـي أكثـر جـراءة وأقـلّ جبنـاً، عملـوا مـا يجـب فعلـه لوقـف كلّ هـذا ولكـن الأمـر يبـدو أكثـر تعقيـداً مـن دورهـم المحـدود رغـم أهمّيتــه.

قال الأب:

- الشـعوب لا تفكّـر ولكنهـا تسـلّم قيادتهـا للعواطـف، تذكّـر هـذا جيـداً وأعمـل عليـه.

وضعـت الخليـة الأم تصوّرهـا الكامـل لمـا ينبغـي فعلـه في الفـترة القادمـة، في عمـل تكامـلي بـين الخلايـا جميعهـا، والوسـائط الإعلاميـة، وتأثـير الشـائعة في خطّـة يقـوم عمادهـا الأول عـلى الخـوف، عـشرات البـصراء كانـوا يقومـون بـآلاف الترجمـات يوميـاً، والأطيـاف يقمـن بزراعـة عـشرات الأفـكار، يحـاورن الرغبـات والمخـاوف بـين النـوم والصحـو، تحدثـت القنـوات الإعلاميـة، عـن رغبـة الجماعـات الانفصاليـة في تفتيـت البـلاد، وتحقيـق مصالحهـا الذاتيـة، بعيـداً عـن مصلحـة السـينيين، تحدثـوا عـن أنّ الأم الـرؤوم، هـي درع الأمـان الذي يحميهـم مـن حمـام الـدم، الـذي تعـد لـه تلـك الجماعـات، وتقـف مـن خلفهـا بـلاد العـين، سرت شـائعة لا يعلـم أحـد مصدرهـا عن اسـتقالة الرئيـس، وتخليـه عـن حكـم بـلاد السـين، البلبلـة والاضطـراب سـادا البـلاد مـن أقصاهـا إلى أقصاهـا، اشـتعلت القنـوات الرسـمية بالحدث، تحـدث عـشرات الخـبراء في المنابـر الإعلاميـة المختلفـة عـن الآثـار المتوقعـة لاسـتقالة الرئيـس، أكـد خـبراء الاقتصـاد التدهـور المريـع الـذي سـيصيب بـلاد السـين في حالـة قـدّم الرئيـس اسـتقالته، وتحـدث

خبراء الأمن أنّ وجود الرئيس هو صمام الأمان، الذي يمنع غرق البلاد في حمام الدم الذي تعد له الجماعات الانفصالية، ثم تفشّى السؤال الذي أثار أرق الكلّ، ولم تكن لدى أحد إجابة محدّدة، السؤال المكوّن من كلمتين فقط كان ينهي نقاشات استعر أوارها حتى بلغ عنان السماء، أفحم المحاورون رغم براعتهم، وسبب الأرق والقلق للسينيين، وجعل جنوبهم تتجافى عن المضاجع، السؤال الذي جعل مدمني المراهنة يلتفتون عن أذناب الحمير لوهلة، بحثاً عن الإجابة، السؤال الذي سحب ألق الأضواء عن مهرجانات سباق الحمير السنوية، ومهرجانات قبض الهواء، والشعر الرديء، ردّده الناس في الطرقات، وفي جلسات الأنس، وفي تجمعات المراهنات، فقلّ الإحساس بالخسارة، وتحوّلت النقود إلى حفنة من التراب بين أيدي الرابحين، السؤال المكوّن من كلمتين، كانت إجابته مرعبة لدي السينيين، وليس لهم قدرة على احتمال تبعاتها ومخاطرها، عندما أطلقه محاور في إحدى القنوات، لم يكن مُجرد سؤال ولكن كان مصباحاً أحمر أضاء في عقل السينيين، فشملهم الخوف والرعب من الإجابة، قال المحاور في خضم الحوار، الذي يضمّ المذيع وضيفين آخرين (مَن البديل؟) تلعثم الضيوف والمذيع، والمحاور يردّد السؤال وكأنه يجلدهم به، ويصليهم سياطاً لا سبيل لردها (مَن البديل؟) خرج السؤال من شاشة التلفاز إلى أفواه السينيين، وانطلق من أقصى نقطة في الحدود الجنوبية الشرقية، وحتى الحدود الشمالية الغربية، بحثاً عن الإجابة

(مَـن البديـل؟) ردّدت القنـوات أنشـودتها القديمـة، عـن الجماعـات الانفصاليـة المتربصـة بالسـينيين، وعـن المعارضـة التـي باعـت ذمتهـا للأعـداء، تحدثـوا عـن المسـتقبل المظلـم الـذي ينتظـر بـلاد السـين لـو اسـتقال الحامـي والمرشـد، تباكـى النـاس أمـام الكامـيرات، وفي الشـوارع، وفي الأنديـة، عـن المصـير المظلـم الـذي ينتظرهـم لو اسـتقال القائـد، وسرعـان مـا خرجـت المظاهـرات العفويـة التـي تدعـو الرئيس إلى البقـاء، (لا بديـل سـوى الرئيـس) (نمـوت نمـوت ويحيـا الحامـي) (بـلاد السـين فـداء المرشـد).

حـين أعلنـت القنـاة الرسـمية عـن خطـاب مهـم للسـيد الرئيـس، عـمَّ القلـق والترقـب بـلاد السـين مـن الخطـاب، حتـى حمـى المراهنـات المعتـادة في مثـل هـذه الظـروف، ركعـت أمـام القلـق والخـوف الـذي عـمَّ الجميـع، فانفـرط عقدهـا قبـل تمـام انعقـاده، وعنـد تمـام التاسـعة صباحـاً، وقـت خطـاب الرئيـس، خلـت الشـوارع مـن المـارة، وأغلقت المحـلات التجاريـة، وتـمّ منـح الطـلاب إجـازة لمتابعـة الخطـاب المصـيري المهـم، بـدا أنّ الحيـاة توقّفـت في عمـوم بـلاد السـين، حتـى المناوشـات التـي تـدور عنـد الحـدود هـدأت في صبـاح ذلـك اليـوم، وجلـس الجميـع أمـام شاشـات التلفـاز لمتابعـة الخطـاب، قامـت جميـع القنـوات بعمـل بـثّ مشـترك مـن القنـاة الرسـمية، تقـدّم الخطـاب رتل مـن الموسـيقى والأغـاني الوطنيـة، وصـوراً قديمـة للرئيـس في وسـط تجمعـات جماهيريـة، صـوراً لـه وهـو يضحـك، وهـو يخطـب في الناس، وهـو في زيـارة لمدرسـة ابتدائيـة، محاطـاً بأطفـال سـينيين يبتسـمون

للكاميرا، وهو في وسط الحقول مع فلاحين بملابس رثة، وهو يفتتح مستشفى السين العظيم، عشرات الصور المصحوبة بالأناشيد الوطنية، كانت تبث منذ الصباح الباكر، وأخيراً ظهر مذيع بملامح جادة وصارمة وهو يشير إلى الانتقال في بثٍّ مباشر، لنقل خطاب الرئيس إلى الأمة السينية المجيدة، ظهر الرئيس أنيقاً وواثقاً، وهو ينظر إلى الكاميرا، ويحمل وجهه ابتسامة أبوية حانية، أزاح بعض الأوراق في مكتبة ثم شرع في الكلام:

- أيتها الأمة السينية العظيمة، لا يفوت عليكم ما يُحاك في الخفاء لهذا البلد من الدسائس والمؤامرات، من أعداء الأمّة والوطن، الأعداء الذين يتظاهرون بحب هذه البلاد، وهو يضمرون لها الكراهية، ويذرفون الدموع ولكنها دموع التماسيح، هذه البلاد الماضية في طريق المجد والسؤدد، رغم المحن والإحن، ستبلغ عنان السماء بسواعد أبنائها الحادبين على مصلحتها، المخلصين لترابها، الأوفياء على عهودها، في طريقنا هذا، سيعاني الشعب، ونعاني نحن في الأم الرؤوم من قبله، الغلاء والحروب والشُّح في بعض المتطلبات الحياتية، ولكننا أقوياء رغم كلّ هذا وسنمضي بهذه البلاد حتى تبلغ عنان السماء، لن نتراجع أو نتنازل أو نحيد عن الطريق.

في الفترة الماضية فكّرت في الاستقالة من منصبي، وأنا أرى عظم المعاناة التي يعانيها المواطن السيني، بسبب المكائد والمؤامرات التي تحاك ضدّه، لا أخفيكم سِرّاً وأنتم أخوتي وشعبي وأهلي، لقد

جافاني النوم، وأنا أفكر في معاناتكم، للحظة ظننت أنّ استقالتي ستزيح عن كاهلكم العناء، ولكني كنت مخطئاً، لست جباناً كي أتهرب من الاعتراف بخطئي، كنت مخطئاً لأني لم أحسب حساب حبكم لهذه الأرض، ووعيكم بأعداء الوطن، ومعرفتكم للحادبين عليه، لقد طوّقني حبكم بطوق لا مهرب منه، سأظلّ وفياً لكم ولهذه الأرض وترابها، ونقف معاً صفاً واحداً لدحر الأعداء والمتربصين والتنكيل بهم.

عاش الشعب السيني العظيم

عاشت بلاد السين حُرّة أبيّة

المجد لنا والخزي والعار لأعدائنا.

خرجت مظاهرات عارمة بطول بلاد السين بعد الخطاب مباشرة، وهي تهتف بحياة الرئيس، وبالأم الرؤوم، خرج الطلاب والمعلمون والساسة بحميرهم ومساعديهم، خرج العمال والصحفيون والسابلة والمزارعون والرعاة، حتى العاطلون عن العمل لم يتخلفوا عن المظاهرات المؤيدة لبقاء الرئيس.

البصير في وسط كلّ هذا كان يقوم بمجهود جبار، من أجل إعادة التبويب مرّة أخرى، بعد انحراف كبير للبرتقالي بشقيه، والأبيض نحو الأصفر بشقيه والأخضر، الأحمر الذي ظلّ على حاله بدا وحيداً، والبرتقالي الذي يقبع إلى جواره تحوّل إلى خط رقيق متقطع وباهت، والأبيض يتبعه في ذات المسار في رحلة عظيمة نحو اليمين، حبات الذرة المتأرجحة على الأعناق تضاءل حجمها، وبهت لونها،

وتجـدّد شـباب قشرتهـا، في خضـم الاحتفـالات، وبـدا أنّ الجميع سـعيد ومبتهـج وراضٍ عـن بقـاء الرئيـس والأم الـرؤوم، وتضاءل السـؤال ذو الكلمتـين حتـى بهـت وتلاشـى، دون أن يبحـث أحـد عـن إجابـة لـه.

قالت طيف:

- لم أكن أرغب أيضاً في التواجد هنا ولكنه الأب.

- لقد صادروا منا حقّ الحلم يا طيف!

- ليس هذا مهماً ما يجمعنا الآن هو العمل.

- والحب؟

- الحب مُجرد هراء، نحن نوجد هنا بدافع الإيمان أو الخوف.

- هل أنتِ مؤمنة؟

- من لم يقده الإيمان فحاديه الخوف.

- هل تخشين الموت؟

- بل أطلبه.

- تطلبين الموت وتخافينه؟

تنبض ابتسامتها رغم مرارتها بالسخرية.

- وهل الميت يخشى الموت يا بصير ؟

- مم تخافين؟

- الأب لا يحتـار في كيفيـة لي يدنـا، وكسرهـا لـو اسـتدعى الأمـر، حـين نطلـب المـوت يهبنـا حيـاة خـير منهـا المـوت.

- نحن تعساء مسلوبو الإرادة، محرومون من حقّ الحب والحياة.

- نحـن مُجـرد نمـل يـا بصـير، نزحـف عـلى الأرض وتسـحقنا أقـدام

عملاقة جبارة.

- نحن بشر يا طيف بشر.

- لا تجمعني معك فنحن لا يجمعنا سوى الفراق.

- لم كلّ هذا اليأس؟

- حياتك بعيدة عني لو دنوت منك لأحرقتك.

- وكيف ذلك؟

- ولو لم أكن هنا أحرقتك أيضاً.

- تتكلمين بالألغاز.

- هذا قدرنا يا بصير، قرب في بعد، ودنو في نأي، وحياة في موت.

- لا أفهمك!

- ربّما تفهم في يوم ما وتجد لي العذر، رجاء لا تحادثني بعيداً عن العمل.

انفرط عقد الأيام، فتتابع انهارها من دون نظام، حتى اختلطت في ذاكرة البصير، وهو يسقط في هاوية القنوط واليأس، وعدم جدوى ما يفعله، وربما عدم جدوى الحياة برمتها، كان يرى طيف كل يوم ولكنها لا تراه، تصرّ على تجاهله وكأنه غير موجود، حين يشدّه الحنين يفر إلى البهو الأزرق، ويجلس هناك لساعات طويلة، يناجي الطفلة ذات الثلاثة أعوام ونصف، يبثها حبه واشتياقه، وعظم افتقاده، ولكنها كانت تكتفي بارتعاش طفيف في العين، ثم لا شيء آخر، يظلّ اليوم الذي وقف فيه وسط مكتبه صباحاً، ونظر لتدرج الألوان في إمعان، ثم فجأة انتبه للقوّة التي يمتلكها،

ازدادت دقات قلبه وهو يداعب القسم الأخضر بيده، ثم انتزع منه ملفاً، ووضعه في التبويب الأحمر ويده ترتجف، ألقى نظرة على الأخضر ثم أخرى على الأحمر كان كلّ شيء يبدو طبيعياً، وفي مكانه الصحيح، وقع في فخِّ الترقب والقلق لما يزيد عن الأسبوع ولكن لم يحدث شيء، لم يتغير شيءٌ على الإطلاق، لا زالت طيف تتلاشى في قمّة حضورها، والأب هو الأب لم يتغير فيه شيء، وإنْ كان النورس يبدو أكثر هرماً وإعياءً من المعتاد، وعندها بدأت الخيوط تتلاقى وتتشابك في عقله، لتخلق طريقاً مُعقّداً قد يفضي به إلى النجاة لو أجاد صنعه، أتى صباحاً وأخذ عدّة ملفات من الأبيض ووزّعها بين الأصفر والبرتقالي وبدأ يترقب مرّة أخرى وإنْ كان بتوتر أقلّ وأمان أعلى.

(١١)

سارت الأمور في هدوء، من دون أن ينتبه أحد، أو يلاحظ شيئاً، البصير يدرك جيداً أنّ أهمّ قسمين هما الأصفر السلبي، والبرتقالي السلبي، يليهما الأصفر الإيجابي، والبرتقالي الإيجابي، هذه الأقسام هي التي تنتج القيادة الثانية للأم الرؤوم، كما تنتج قيادات المعارضة الأكثر تأثيراً، الفوضى المنتظمة مع الحذر، ستؤدي إلى تغيير كامل في الصف الثاني للأم الرؤوم، والذي بدوره يغذي الصف الأول، الخطة رغم بساطتها ولكنها كانت فتاكة، مثل زرع خلية سرطانية واحدة وتركها لتقوم بعملها، في حذر بالغ كان البصير يقوم بنقل البرتقالي الإيجابي والسلبي إلى الأصفر الإيجابي والسلبي على الترتيب، ويقوم بالعكس أيضاً، العملية كانت مرهقة، وتحتاج تركيزاً عالياً من البصير لاختيار العناصر المناسبة للنقل، فعملية النقل العشوائي قد تؤدي لانهيار كلّ ما بناه، عندما يتبنّى أحدهم موقفاً قوياً مناوئاً لقسمه، ساعده في ذلك خفوت

أصوات المعارضة، بعد التأييد العارم الذي حظي به الرئيس في الفترة السابقة، منسوبو الأمن الشعبي كانوا ينفذون الأوامر حرفياً، ولا يحيدون عنها في عمليات الدهم والقبض والتحقيق، بسبب هذا تمّ الزج بعدد كبير من القسم الأصفر على أساس أنه برتقالي، كان البصير يتابع الخلية السرطانية وهي تنقسم وتتكاثر، وتنتشر في جسد الأم الرؤوم، المعتقلون في مراكز الأمن الشعبي، أقروا بتآمرهم على إسقاط الرئيس وتعطيل الثورة، والانقلاب على المبادئ، وخيانة بلاد السين والسينيين، كان التعذيب فعالاً، والنتائج مبهرة، والملفات التي تمّ نقلها من الأصفر إلى البرتقالي اكتسبت صفتها البرتقالية الرسمية بلا رجعة نحو الأصفر، ما يؤرق البصير على وجه الدقّة، هو الترقية المنتظرة من الأصفر السلبي إلى الصف الثاني للدولة، لم يكن واثقاً من ردِّ الفعل لدى المعارضين المعتدلين، من الترقيات المتوقعة، وهو موقف أقرب إلى الرفض منه إلى القبول، العملية برمتها أقرب إلى أنْ تؤول إلى الفوضى، وبالتالي انكشاف أمره، ولكن القطار كان قد وضع على السكة، وبدت عجلاته في التحرك، ولا سبيل لإيقافه، وأفضل طريقة هي تلافي الأضرار المتوقعة لو خرج من السكة وهذا ما كان يعمل عليه البصير.

في زيارته المتكررة إلى الأب، والحوارات التي تدور بينهما، لفت انتباهه الإعياء الواضح على النورس، وتساقط ريشه، وتهدل عنقه، ونعيقه الضعيف المتقطع

قال الأب:

- تلك صيرورة المستعمرة يا بصير، يذهب جيل ليأتي جيل جديد، يمسك بزمام الأمور، هل ترى النورس وما أصابه، هل لاحظت تساقط ريشه، وانقطاع نعيقه، حان وقت مغادرته ليحل نورس أكثر شباباً، أقوى نعيقاً وأكثر ريشاً.

- ولكن النورس هو أنت وأنت هو النورس، كيف السبيل إلى التغيير أيها الأب؟

- الأب مثل المبوّب، أنت بصير قبل أنْ تكون مبوّباً، كذلك أنا كنت بصيراً في يوم ما.

- ولكن لن تقوم للمستعمرة قائمة من غيرك أيها الأب.

- لذلك أنتم هنا، أنت وطيف، وعشرات الحارسات والمقاتلات، اللاتي تمّ تدريبهن على أعلى مستوى، لضمان استمرار المستعمرة، اقترب وقت رحيلي ولكن المستعمرة تملك القدرة على الديمومة من دوني، طالما أنّ الحارسات موجودات وعلى أهبة الاستعداد.

ألقى البصير نظرة على النورس الهَرِم فوق الصخرة التي غطّتها الطحالب، كانت الريح قوية تدفع الموج للارتطام بالصخرة في قوّة وعنفوان، لا يدرك الأب أنّ فعل الديمومة في طريقه للانقطاع، آن للأم الرؤوم أنْ تغادر غير مأسوف عليها، وآن للحارسات أنْ يتحررن ويضحين بشراً، من حقّه أنْ يحب ويعشق ويسأل، ويختار ما يراه مناسباً له ولحياته.

قالت طيف:

- ليس المهم أنْ تحب أو تكره ولكن عندما تقع في المحظور فكن مستعداً لدفع الثمن كاملاً.
لم يستطع البصير التسليم بهذا المبدأ، نحن نحب كي نسعد لا لنشقى، نحيا بالأمل لا بالخوف، مثل هذا الحديث يحول الحياة إلى مرابٍ جشع، يسلفك مباهج الحياة وتدفع ثمنها قلقاً وخوفاً وحزناً، لا سعادة مع الحزن ولا أمل مع الخوف.
تصعيد قيادات الصف الثاني إلى الصف الأول كان مسألة وقت ليس إلا، كان على البصير تجهيز مرشحين من البرتقالي السلبي، الذي تمّ إضافته إلى الأصفر السلبي من أجل تقديمهم للصف الثاني، عملية الترشيح نفسها كانت عملية معقّدة ودقيقة، اضطر البصير معها للبقاء داخل مكتبه الكائن في العقل الأعظم لساعات طويلة، من أجل وضع قائمة دقيقة، تقلّ فيها نسبة الفشل إلى أضيق الاحتمالات، أهمّ صفة يجب أنْ يحملها المرشح هي أنْ يكون برتقالياً، ليضمن معارضته لـلأم الرؤوم، وسلبياً لأنّ الخوف يعلم الصمت، الثرثارون يجلبون الفشل، الفوضى الصامتة أعمق أثراً، عمليات الترجمة وزراعة الأفكار كانت تقوم على قدم وساق، لإعداد القائمة المرشحة بواسطة الأطياف، التي نشطت في زياراتها الليلية، وكلّ هذا كان يصبّ في مكتب التبويب، وتتمّ إعادة تبويبه، حسب ما يراه البصير مناسباً، وحانت الساعة المرتقبة، وتمّ الإعلان عن التشكيل الوزاري الجديد، تمّ الدفع بقائمة الصف الثاني إلى المناصب الشاغرة بعد تصعيد الوزراء، فتمّ تعيينهم في

مكانهـم وكلاء وزارات، ومـدراء مكاتـب، ونـواب حـكام في الأقاليـم المختلفـة في بـلاد السـين، الترقـب والخـوف اللـذان تابـع بهـما البصـير عمليـات التعيـين بتعقيداتهـا المختلفة،جعلتـه متوتـراً طـوال اليـوم مـن انكشـاف الأمـر، جافـاه النـوم وفسـدت شـهيته للطعـام، حتـى طيـف تـوارت قليـلاً مفسـحة المجـال لتوتـره كـي يكتسـح كلّ شيء.

ظـلّ يراجـع جميـع الخطـوات التـي قـام بهـا مـن أجـل عمليـة التعيـين، جميعهـا كانـت دقيقـة ويصعـب اكتشـاف وجـود أي خلـل فيهـا، عـاد لمراقبـة القائمـة التـي تـمّ تعيينهـا، وجـد أنّهـم جميعـاً يقومـون بأعمالهـم عـلى أكمـل وجـه، لا يوجـد ما يخشـاه، ولكنـه في وسـط كلّ هذا يشـعر، بـأنّ هنـاك شـيئاً منسـياً، شـيئاً يعـبر مـن تحـت أنفـه، في الليل أتتـه طيف في النـوم، وكأنهـا أضغـاث أحـلام وليسـت زائـرة، مقلتاهـا منتفختـان مـن البـكاء، وآثـار الدمـوع عـلى خديهـا، وكانـت تلتفـت يمنـة ويسـرة، كأن أحـداً يطاردهـا، أمسـكت بكتـف البصـير وهزّتـه، تصاعـد البخـار القـادم مـن تحـت أقدامهـا، فحلّقـت مبتعـدة ويداهـا تضربـان الهـواء، كانـت تهتـف بـه ولكـن صوتهـا مخنـوق، سـاحة الأحـكام محتشـدة بالنـاس، يخيـم الصمت عـلى الحاضريـن، كان البصـير مقيّداً إلى سلسـلة طويلـة، في صـف متعـرج مـن السـجناء، وقف القـاضي وتـلا حكمه في عجلـة، ارتفـع صـوت العويـل مـن عـدّة أماكـن في السـاحة الضخمـة، عـلا هتـاف الحاضريـن ولغطهـم، رفـع عينيـه لينظـر إلى هنـاك، كانـت أمّـه تقـف في وسـطهم، يـرى وجههـا واضحـاً، ينبـض شـباباً وحزنـاً، الطفـل الصغـير الـذي يقـف بجوارهـا ويمسـك بثوبهـا كأنـه هـو، وهو

يقف في وسط ساحة الأحكام كأنه أبوه، عشرات الأطياف تهبط من سقف السماء، تحيط به وهو لم يتجاوز الخامسة من العمر، ذهب الطفل في غفوة صغيرة، يخفق رأسه بالنوم، ولا زال يمسك بثوب أمّه اللاهية عن كلّ هذا بالزوج، يرتفع صليل السلاسل والصف يقترب من المشانق المعلّقة، يزعق أحد الحراس بصوت عالٍ ولكنه لا يستطيع تمييز ما يقوله، يدفعه أحدهم ليصعد على المنصة الخشبية، ينظر إلى الطفل ذي الثلاثة أعوام، وهو يحلِّق بعيداً في ذات اللحظة التي يضع أحد العساكر الغطاء على عينيه، تصله شهقة أمّه الجزعة رغم ضجيج المئات في المكان ثم عمَّ الظلام.

استيقظ فزعاً يشعر بالاختناق، ما الذي يعنيه كل هذا، لم أتت طيف؟ هناك رسالة كانت ترغب في إيصالها له ولكنها لم تستطع، اللعنة، ثم يأتي هذا الحلم الغريب، قال الأب إنّ طيف هي الأكثر خبرة بينهن، هل كانت معهن حين اصطحبنه لأول مرّة؟ هل رأت أباه وهو يُقتل؟ كان يشعر بالخوف والحزن وهو يقف على المنصة وينظر إلى أمّه، لا زال يشعر بالاختناق، الغرفة قبر ضخم يكتم أنفاسه، انطلق خارجاً فتلقفه هواء الليل ببرودته، ترى هل يكون الحلم إنذارا له، أم نبوءة لما ينتظره؟ يكاد يشعر بالجنون، لو أنّه يستطيع الفرار الآن لفر من كلّ هذا بعيداً من غير رجعة، سيقتلونه لا محالة، يرى مصيره يلوح في نهاية الطريق، مشنقة، ومنصة، وضجيج يحيط به، ويثقب عقله بلا هوادة، صباحاً كان يبدو منهكاً وهو يقف في وجه طيف، تنفسه أقرب للهاث وعيناه

تستجديانها في صمت ولكنها لا ترى.

- ما الذي كنتِ تريدين أن تقوليه بالأمس في النوم؟

- لم أزرك في النوم يا بصير فأنا ممنوعة من الاقتراب منك.

- ولكنك زرتني وحاولتِ التحدث إليّ!

- مجرد أضغاث أحلام، لم أقم بزيارتك ولم أفكر حتى في ذلك.

- ما الذي يحدث أشعر بشيء يدنو مني، يخنقني، هل هناك شيء يُدبّر في الخفاء؟

- لا أعلم شيئاً، ولا أريد أنْ أعلم.

- طيف أنا أحبك، أحتاجك!

- لا أملك من أمر نفسي شيئاً، فكيف أساعدك؟

كان صوتها حزيناً، ينبض باليأس والقنوط والخوف، ابتعد عنها البصير ولاذ بمكتبه وهو ينظر إلى تداخل الأصفر والأبيض والبرتقالي، صار الآن أكثر قناعة من أنّ النهاية قد دنت حتى يكاد يقبضها بين يديه.

قال الأب:

- هل ترى النورسين؟

نظر البصير، كان هناك نورسان يجثمان على الصخرة، النورس الهَرِم بريشه المتساقط، ونورس آخر بجانبه يلمع ريشه تحت ضوء الشمس، وينعق بصوت قوي يملأ الفضاء، يجيبه الموج بدوي يتطاير منه الرزاز، فيرتعش الأول ويبتل ريش الثاني، فيفرد جناحيه وينفضهما ثم ينعق ناظراً إلى السماء.

قال الأب:

- هل تظن أنك ستكون دائماً على صواب؟ لا أيها البصير، لا زلت مبوّباً وليس نورساً، ترى بقدر ما يتاح لك، وتقرر وأنت مقيّد إلى بشريتك الفوضوية الداعية للانطلاق، لكنك ستتعلم بالطريقة الصعبة الطريق إلى النجاة وتسلكه.

يناديه النورس الشاب فيلتفت، يتسع بؤبؤ العين الصغير فيحجب عنه المشهد كاملاً، ثم يبتلعه في يسر، يبدو الفضاء من الداخل شاسعاً مغموراً بالضوء، يلطم الهواء جسده فيلقيه يمنة ويسرى، في قبّة السماء تتلألأ شمس بيضاء يغشى ضوْءُها عينيه، فلا يكاد يبصر شيئاً، يدنو منه النورس بأجنحة خفاقة، يقف على بعد شعرة منه ويبدأ في الانسلال إلى داخله مخلِّفاً ألماً عظيماً، يشعر به يمور بداخله كالمرجل، يخفق الجناحان في قلق وتجوس العنق يمنة ويسرى في تجويف قفصه الصدري، يغمض البصير عينيه ويسكن النورس، ثمّ تنفتح بوابة عظيمة تقوده لمكتبة العقل الأعظم، يجوس في ممراتها، كأنها هي ولكنها ليست هي، تتسع الدائرة فتبتلع مكتبة العقل الأعظم، وتحيلها لنقطة صغيرة في فضاء المكان، بعيدة كأنها نجم في مجرة أخرى، ينادي النورس من داخله على المكتبة فتدنو، ثم فجأة يعود للتجوال داخلها، ولكن هذه المرّة داخل عقله، كأنه احتوى مكتبة العقل الأعظم داخله، يغمض عينيه وآلاف الملفات تفرج عن مكنونها، وتسكب في عقله حتى يشعر بأنّه أوشك على الانفجار.

فتح عينيه بصعوبة بالغة، كان يرتجف وجبهته تنبض بالعرق، نظر إلى النورس فرأى البصير عينيه تطلان من وجه النورس الصغير.
قال الأب:
- أنتما الآن الرجل النورس، ارتبطت حياتك به إلى الأبد، لن يفرقكما سوى الموت، المعرفة جمرة في يدك يا بصير، إما أنْ تشعل بها حريقاً، أو تهب بها دفئاً، يجب أنْ تدرك أنّ لكلّ حادثة قراراً، عندما يتطلّب الأمر إشعال حريقٍ، يجب أن تشعله بلا تردّد.
نعق النورس الهَرِم، ودمعت عيناه، وهو يخفق بجناحيه الضعيفين بريشهما المتناثر، تساقطت ريشتان منه فابتلعتهما الأمواج في نهم.
قال الأب:
- كنت مبوّباً جيداً، القيادة الثانية للأم الرؤوم سلمت قائمتها من الأخطاء، أحياناً نخطئ متعمدين ولكن خطأً مضاداً يفضي إلى الصحيح في صدفة غريبة.
خفق قلب البصير في قوّة:
- ما الذي تعنيه أيها الأب؟
- لم يعد هناك مجال للتراجع، اختارك النورس من وسط آلاف النملات الحارسات، لقد تمّ إعدادك منذ البداية لتكون هنا، هذا قدرك وقدر العقل الأعظم، لست مطالباً بحب ما تعمل فالحب وهم، أنت مطالب بإتقانه وأدائه على أكمل وجه.
هل علم الأب بما حدث؟ تساءل البصير وخفقان قلبه يزداد، هل انكشف سِرّه الكبير؟ لو كان الأب يعلم فلم الصمت؟ وما الهدف

مـن الحـوار الـذي يـدور الآن؟

قال الأب:

- بعـد مـضي زمـن طويـل قـد تـدرك لِمَ حـدث كلّ هـذا، ولمـاذا صمـت ولم أتحـدث، قـد تـدرك وقـد لا تـدرك، ليـس هـذا هـو لُـبُّ الأمـر وحقيقتـه، مـا يهـم فعـلاً هـو أنّ كلّ شيء سـار كـما خُطـط لـه، الفعـل الفـردي لا يُـؤدي لانهيـار منظومـة كاملـة، نعـم قـد يُعطلهـا قليـلاً ولكـن تدميرهـا يسـتدعي أكثـر مـن ذلـك.

رآه لأول مـرّة يقـف بشـعره الأشـيب، وظهـره المنحنـي إلى الأمـام قليـلاً، كان يوليـه ظهـره، خفـق جناحـا النـورس الهَـرِم وكأنـه يناديـه، احتـواه الأب مثـل طفـل صغـير، خـرج طيـف لنـورس أبيـض مـن صـدر الأب وغـاص في جسـد النـورس الهَـرِم، وهدهـده الأب حتـى سـكن في حضنـه خانعـاً.

قال الأب:

- الآن بـدأت دورتـك أنـت، أنـت معـزول عـن العـالم، ومحيـط بـه، يجهلـك الجميـع وتدركهـم، يخشـاك الـكلّ وأنـت تخـاف الغـد، لا تنس أن طيـف مجـرد طيـف أيهـا النـورس، فـلا تطلبـه ولا تدعـه يطلبـك.

سـار خطـوات في الرمـل الأبيـض وتلاشـى مثـل نسـمة عابـرة كأنـه لم يكـن.

جلـس البصـير وحيـداً، تلاشـت الألـوان مـن حولـه، يتجـول في مكتبة العقـل الأعظـم فـيرى طيـف تتحـدث إلى أحـد البصراء.

- ليس الأمر صعباً، سأعكس الترجمة فيختل النظام.

ردّت طيف في قلق.
- ما تنوي القيام به خطير أيها البصير!
- لا تخش شيئاً، الأب يعلم بكلّ هذا، بل هو مَن أشار عليَّ وعلى بقية الأطياف به.
- هل يتم كلّ هذا بمباركة الأب؟
أومأ القارئ في صمت.
- ولكن البصير؟
- لا نملك من أمره شيئاً!
- سأحذره.
- ستهلكين!
- وإنْ يكن، أنا هالكة منذ الأزل، الميت لا يهدّد بالموت.
رأى البصير نفسه داخل المكتب، يعيد تبويب الملفات بناءً على ترجمات البصراء المعكوسة، تكشّفت الحقيقة في عينيه مثل ضوء الشمس، لهذا قال الأب إنّ الخطأ يمكن أنْ يعالج بخطأ مضاد، يعطيه البصراء ترجمة خاطئة، وعندما يقوم بعكس التبويب يعود كلّ ملف إلى قسمه الصحيح، كان الأب يعلم والبصراء يخطئون عمداً، وهو الخائن الوحيد، ترى لِمَ فعل الأب كلّ هذا؟ قال الأب:
-اختارك النورس من وسط آلاف النملات الحارسات. هل دارى خطأه لأنّه قد يتأذى منه، فالخيانة هنا تدلّ على سوء اختيار الأب، ولكنه كان يحب عمله، طالما كان الأب مؤمناً بما يمليه عليهم ولكنه قال قبل قليل، ليس مهماً أنْ تحب ما تفعله فالحب وهم،

أنـت مطالـب بإتقانـه وأدائـه عـلى أكمـل وجـه.
لقـد خُـدع بإتقـان كامـل، شـعر بأنـه تلميـذ صغـير في مدرسـة الأب، لم يُحـط بعـد بـكلّ شيء علـماً ولا زال ينتظـره الكثـير.
كان البصـير الآن يجلـس قبالـة النافـذة العاريـة مـن الخشـب والزجـاج والألمونيـوم والحديـد، النافـذة العاريـة مـن كلّ شيء، مشرعـة فاهـاً كأنهـا في عيـادة طبيـب الأسـنان، النافـذة المطلـة عـلى الفـراغ الشاسـع مـن زاويـة رؤيتـه الحـادة، كانـت تريـه الجانـب الفـارغ منهـا، الجانـب الخـاوي مـن محفـزات الرؤيـة في دكتاتوريـة مطلقـة، ذات الجانـب الذي يدفعـه لإغـماض عينيـه دون تـردّد، بحثـاً عـن مشـهد مـن ذاكرتـه المتعبـة، يزيـح الملـل القاتـل الـذي يجتاحـه، أي مشـهد قـد يخطـر في مخيلتـه، سـيكون أفضـل مـن نافـذة تطـلّ مـن زاويـة رؤيتـه عـلى الـلاشيء، كـما اعتـاد، تنثـال الأحـداث في ذاكرتـه في ومضـات سريعـة خاطفـة، تتابـع في غـير انتظـام، العزلـة التـي عاشـها لسـنوات طويلـة، ظـنّ الجميـع أنّـه ذهـب إلى غـير رجعـة، ولكنـه كان موجـوداً دائـماً، لم يكـن يملـك رفاهيـة الإفـلات مـن مصـيره المحتـوم، عـاد عـداد العمـر للتقـدّم مـرّة أخـرى في جسـد طيـف الغافية عنـد البهـو الأزرق، قاتـل مـن أجـل أنْ يتجـاوز كلّ هـذا، ولكـن قلبـه لم يطاوعـه، أخذهـا حـين بلغـت الخامسـة وأتـى بهـا إلى هنـا، بعيـداً عـن العقـل الأعظـم وتعقيداتـه، تطـلّ نافـذة ذكرياتـه عـلى يومـه الأول في بهـو الألـوان، قال الأب:
- لنفـترض صفـاً طويـلاً مـن النمـل، يسـير بمحـاذاة الجـدار الطينـي

المتآكل، النملة الأولى تحمل ضعفي وزنها حبة ذرة بيضاء تجتاح سوادها اللامع، ثم يتبعها بقية جيش النمل بخطوات حثيثة وبإيقاع منتظم، ربّما لو أصخت السمع لسمعت دبيب أقدامها الشعرية النحيلة على الأرض، هل تلاحظ أنّ بقية الصف كان متخفّفاً من كلّ عبء؟ يمشي خفيفاً غير عابئ بالنملة الأولى، ولكن رغم ذلك يلتزم بالنظام في دقّة محيرة، ينثني عند ذات البروز على الأرض ويتجنب ذات الحفرة بذات الطريقة، ثم يعود للسير في خط مستقيم، نظرتك البعيدة المتعالية لا تتيح لك رؤية التفاصيل، مُجرد صف طويل من النمل، يسير بإيقاع رتيب، خلف نملة تحمل حبة ذرة بيضاء تجتاح سوادها اللامع، ولكن بما أننا لسنا على عجلة من أمرنا، ولدينا من الزمن ما يكفي لمراقبة ميلاد نجم في قبّة السماء، ثم الانتظار حتى فنائه، طالما أننا ننتظر اللاشيء، فلِمَ لا تقترب قليلاً وتُدقق الرؤية، نعم اقترب أكثر، الآن هل لاحظت للنملة الأولى؟ هل ترى ملامحها بشكل واضح، هل ترى كم البؤس الذي يسكن في تفاصيل وجهها المسحوب، هل ترى نظرة القهر واليأس التي تسكن عينيها؟ حسناً دعك منها ولتنظر للنملة التي تليها، دقق أكثر، ألا تبدو أكثر ضخامة وتمشي بخيلاء واضحة، لو كنت تملك القليل من الخيال لظننتها تحرس النملة الأولى، وكأنها ستهرب بحبة الذرة التي تبلغ ضعفي حجمها، والتي بالكاد تستطيع حملها والسير، في ذات الوقت بخطوات منتظمة وثابتة، حسناً ظنك صحيح، تلك النملة

الحارسة، التي تقتل كلّ أمل للنملة الحاملة لحبة الذرة في الانعتاق، رغم استسلامها لقدرها، ولكن وجودها خلفها يذكّرها دائماً بعدم جدوى التفكير في الهروب، هل ترى النملة الثالثة، نعم تلك التي تحيد عن المسار بمليمترات قليلة جهة اليمين تارة، وجهة اليسار تارة أخرى، تلك الحركة التي تكاد لا ترى من فرط سرعتها ودقتها، ثم تعود للمسار، كأنها تراقب النملة الحاملة والنملة الحارسة، دعنا نسميها النملة الجاسوسة، التي تنقل أخبار النملتين أولاً بأول للنملة الرابعة،التي تتخذ ذات المسار المتعرج المستقيم في نفس الوقت، والتي بدورها تنقلها للخامسة فالسادسة فالتاسعة، هل وصلنا للنملة العاشرة الآن؟ هل ترى الأبهة التي تحيط بها، تلك هي التي ينتهي عندها خبر حبة الذرة البيضاء، وحاملتها وحارسها وجواسيسها.

قطع عليه حبل ذكرياته ولوج فتاة إلى المكان، كانت ساحرة في زيها المدرسي مثل طيف يزور في الأحلام، احتضنته ثم قبلته على خده، ألقت حقيبتها في إهمال، وجلست بجواره تحكي عمَّا صادفها خلال يومها وهو ينصت إليها في اهتمام، عقدت حاجبيها في عبوس مصطنع وهي تقول في دلال:

- ما زلت متعجبة من تسميتك لي بطيف.

ابتسم في حنان وداعب شعرها المنسدل على كتفيها وقال مبتسماً:

الطيف عزاء عن كلّ حقيقة لم نستطع تحقيقها، صدقيني!

محمد الطيب
٢٠١٧/١١/١٦

asasi2504@gmail.com

رقم الإيداع: ٦٢٨/ ٢٠٢٠